
بيرل بك
الأرض الطيبة
** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة



الارض الطيبة

بقلم الكاتبة الاميركية

بيرك باك



منشورات مكتبة الثقافة العربية — بغداد
توزيع المكتبة الحديثة — بيروت

الفصل الاول

كان اليوم يوم زفاف وانـغ لانـغ ، وإذ فتح عينيه في الظلام الناشىء عـن الأستار المسدلة حول فراشه ، عجز للوهلة الأولى عن أن يتبين السبب في ان فجر هذا اليوم بدا مختلفاً عن غيره .

وكان البيت ساكناً ولا يعكر هذا السكون غير السعال الخافت ، اللاهث الصادر عن أبيه الشيخ ، الذي كانت غرفته مواجهة لغرفته هـو ، وكان سعال الشيخ أول صوت يسمع عادة في كل صباح . وكان من عادة وانغ لانغ أن يظل راقداً يستمع إلى هذا الصوت .

ولكنه لم ينتظر في ذلك الصباح، بل هب واقفاً ، وأزاح الأستار عن فراشه ، وكان الفجر لا يزال عتمة مشوبة بحمرة قانية . وخلال فجوة مربعـــة صغيرة انحسر عنها الورق الممزق في إحدى النوافذ، أومضت لمحة من السماء البرنزية اللون فتقدم من الفجوة ، ونزع الورق عنها ، وغمغم يقول « أقبل الربيـع ولم أعد في حاجة إلى هذا » .

ففي اليوم السابق ، كان وانـغ لانـغ قد قال لأبيه إن سنابل القمح لن تمتلىء إذا ظلت تلك الشمس النحاسية متوهجة ولكن كأنما السماء قد اختارت هـذا اليوم بالذات لتبدي له الخير . فالأرض سوف تجود بالثمار .

وأسرع الى الردهة الوسطى ، وهو يرتدي سرواله الخارجي الأزرق اللون في أثناء مسيره ، ويعقد حزامه القطني الأزرق حول وسطه الممتلىء . وترك الجزء الأعلى من جسمه عارياً ريثما يسخن ماء يغتسل به ، ودخل الحظيرة التي كانت

تستخدم مطبخاً وتلاصق المنزل ، فراح ثور يلوي رأسه في الظلام من وراء وكن الحظيرة المجاور للباب ، ويرسل خواراً عميقاً في وجهه .

وملأ وانغ لنغ هذه القدر كلها - تقريباً - بالماء ، بأن غمس وعاء إلى النصف في جرة من الطين المجفف كانت بجوار القدر . ولكنه غمسه بحرص لأن الماء كان ثميناً . ثم لم يلبث - بعد أن تردد لحظة - ان رفع الجرة فجأة ، وأفرغ كل مـا بها من ماء في القدر فقد كان جديراً به - في هذا اليوم - أن يغسل جسمه كله . ولم يكن قد سبق لإنسان ان رأى جسمه منذ كان طفلاً في حجر أمه . اما اليوم فلا مناص من ذلك . وبالتالي كان عليه ان ينظف جسمه .

ودار حول الفرن ساعياً الى مؤخرته ، وانتقى حفنة من الحشائش والعيدان الجافة التي كانت ملقاة في ركن المطبخ ، ثم رتبها برفق في فوهة الفرن واشعلها.

كان هذا آخر صباح يضطر فيه إلى إشعال النار ، التي اعتاد أن يشعلها كل صباح منذ ان ماتت أمه قبل ذلك بستة أعوام . كان يشعل النار ، ويغلي الماء ويصبه في وعاء ، ثم يأخذه الى الغرفة التي كان والده يجلس في الفراش بها يسعل ويتحسس الارض بحثاً عن حذائه . وكـان الوالد ينتظر ابنه في كل صباح من هذه الأعوام الستة ليحضر إليه الماء الساخن لـكي يخفف من حدة سعال الصباح وقد آن للأب والابن كليهما ان يستريحا ، فهناك امرأة قادمـة إلى البيت . ولن يضطر وانغ لنغ بعد اليوم الى الإستيقاظ في الفجر - صيفاً وشتاء - ليشعل النار بل سيصبح في وسعه أن يرقد في الفراش وينتظر ، وسوف يأتيه هو الآخر وعاء من الماء ، وإذا قدر للأرض ان تكون مثمرة فسوف تضاف أوراق الشاي إلى الماء . ولم يكن ذلك يحدث إلا مرة واحدة كل بضع سنوات .

وإذا ما دب الوهن إلى المرأة فسوف يكون هناك من يتولون إشعـال النار عنها من أطفالها ، - من الأطفال الكثيرين الذين ستنجبهم لوانغ لنغ . وكف وانغ لنغ عن الاغتسال برهة ، وقد استهوته فكرة الاطفال وهم يجرون داخل الغرف الثلاث وخارجها . وكانت الغرف الثلاث تبدو دائماً أكثر من الحاجة إذ

كان البيت نصف مأهول منذ ماتت أمه .

وكان وانغ لنغ وأبوه مضطرين دائماً إلى صد أقاربهما الذين كانت بيوتهم أكثر ازدحاماً من دارهما ، كعمه وأطفاله الذين يخطئهم العد ، والذي كان يداهنهما قائلاً :

كيف يتسنى لشخصين وحيدين أن يكونا بحاجة إلى بيت بهـذا الاتساع؟ ألا يمكن للأب والابن أن يناما معاً؟... إن حرارة جسم الشاب كفيلة بأن تهدىء من سعال الشيخ .

ولكن الاب كان يجيب دائماً بقوله :

- إنني أدخر فراشي لحفيدي ، فهو كفيل بـأن يدفىء عظامي في شيخوختي .

وها هم أولاد الأحفاد في الطريق .. أحفاد وراء أحفاد ! . وسيصبح لزاماً أن تصف الأسرّة بطول الجدران ، وفي الغرفة الوسطى ، ألن يمتلىء البيت بالأسرة ..؟

- وشبت النار في الفرن بينما كان وانغ لنغ يفكر في كل هذه الاسرة التي ستملأ البيت نصف الخالي ، وبدأ الماء يبرد في القدر. وفجأة ظهر الشيخ كالشبح في الباب ، يلم ملابسه - التي لم يحكم ربطها - حول جسمه ، وقـد راح يسعل ويبصق وهو يقول لاعناً « لماذا لم تحضر لي حتى الآن ماء لتدفئة رئتي ؟».

فحملق فيه وانغ لنغ ، وتنبه ، وشعر بالخجل ، ثم تمتم من وراء الموقـد : « إن هذا الوقود رطب . إن الريح الرطبة ...»

واستمر الشيخ في السعال دون انقطاع ، فلم يكف إلا بعد أن غلي المـاء ، فصب وانغ لنغ بعضاً منه في وعاء ، ثم فتح - بعض لحظـة - جرة مصقولة كانت موضوعة على رف فوق الفرن ، وتناول منها عشر أوراق نباتية جافه

بجمعدة أو حوالي هذا العدد-ونثرها فوق سطح الماء . ففتح الشيخ عينيه بنهم. وشرع لفوره يقول معاتباً :

ـ لماذا أنت مبذر ؟ أما تعلم أن شرب الشاي مجرد إتلاف كأكل الفضة ؟

فأجاب وانغ لنغ مطلقا ضحكة قصيرة: إنه اليوم الموعود ، فتغذ واهنأ بالأ.

وأمسك الشيخ بالوعاء بين أصابعه المغضنة النحيلة، وهو يتمتم ويصدر آهات صغيرة . وراح يراقب الاوراق وهي تنبسط وتنتشر فوق سطح الماء ، دون أن يجرؤ على شرب هذة المادة الثمينة .

وقال وانغ لنغ : سيبرد الشاي .

فقال الشيخ في انزعاج : « حقا .. حقا .. » وشرع يتناول رشفات كبيرة من الشاي الساخن . وراح في غمرة من الرضاء الحيواني ، كالطفل حين يستغرق في ازدراد طعامه . ولكنه لم يذهب في ذلك الاستغراق إلى الحد الذي يغفل عنده رؤية وانغ لنغ وهو يريق الماء - غير حافل - من القدر إلى برميل خشبي عميق ، فرفع رأسه وحلق في ابنه ، ثم قال بغتة :

« هذا قدر من الماء يكفي لإنبات محصول » .

ولم يجب وانغ لنغ ، بل واصل صب الماء إلى آخر قطرة ، فصاح والده بصوت عال : « كفى ! » .

فأجاب وانغ لنغ ، بصوت هادىء : « إنني لم أغسل جسمي بأكمله دفعة واحدة منذ عام .

اختجل ان يقول لوالده إنـــه كان راغبا في تنظيف جسمه لتراه المرأة ، فهرول خارجا وهو يحمل البرميل الخشبي إلى غرفته الخاصة . وتقدم الشيخ مترنحا الى غرفة الحمام ووضع فمه عند ثقب الباب وهتف :

– لن تستقيم الأمور لو بدأنا على هذا الشكل مع المرأة ... شاي في ماء الصباح ، وكل هذا الاغتسال !..

فصاح وانغ لنغ « إنما هو يوم واحد فقط ! » ، ثم أردف قائلاً : « سألقي الماء على الارض بعد ان انتهي ، فلا يذهب كله هباء » .

عند ذلك القول سكت الشيخ . وفك وانغ لنغ حزامه وخلـــع ملابسه ثم غمس منشفة صغيرة في الماء المغلي ، وراح يحك جسمه الأسمر النحيل بشدة على الضوء الذي كان ينساب من خلال الثقب .. ومع أنه كان يظن أن الجو حار فإنه شعر بالبرد عندما ابتل جسمه ، فأسرع في حركاته ، يغمس المنشفة في الماء ويخرجها ليدلك بها جسمه ، إلى ان راحت تتصاعد من جسمه كله سحابة رقيقة من البخار ، ثم ذهب إلى صندوق ، كان فيما مضى ملكا لامه ، فأخرج منه حلة قطنية زرقاء نظيفة ، وقدر أنه قد يشعر بشيء من البرد في ذلك اليوم دون ثياب الشتاء المبطنة ، ولكنه شعر فجأة بأنه لا يطيق ان يضعهـــا على جسده النظيف ، فإن الطبقة الخارجية منها كانت ممزقة قذرة ، وقد أطل الحشو من الثقوب ولم يشأ أن تراه هذه المرأة للمرة الاولى والحشو يبرز من ثيابه ..لسوف يكون عليها أن تغسل وترفو فيما بعد . لكن ليس من اول يوم .

في أيام الاعياد التي لم تكن تتجاوز في جملتها حوالي عشرة أيام في العام كله ، ثم فك – بأصابع سريعة الحركة – ضفيرة الشعر الطويلة المدلاة على ظهره ، وتناول من درج المنضدة الصغيرة المتأرجحة مشطا من الخشب وشرع يمشط شعره .

واقترب ابوه مرة أخرى ، ووضع فمه في ثقب الباب وقال متضجراً ، « ألن أحظى بغذاء اليوم ؟ إن العظام تكون – في مثل سني – لينة كالماء في الصباح حتى يتاح لها الغذاء . »

وأجاب وانغ ، وهو يجدل شعره بسرعة وخفة ، ها أنذ قادم .

وما لبث أن خلع عباءته الطويلة – بعد لحظة – ثم خرج حاملاً برميل الماء .

وكان قد نسي الإفطار تماماً ، وتذكر أن عليه ان يقلب بعض الحنطة في قليل من الماء ثم يقدمها طعاماً لوالده ، أما هو ، فلم يكن راغبـــاً في الأكل . وسار بالبرميل مترنحاً إلى العتبة ، ثم سكب الماء على أقرب قطعة أرض إلى الباب . وفيما كان يفعل هذا ، تذكر أنه استخدم في اغتساله جميـع الماء الساخن الذي كان في القدر ، وأن عليه أن يشعل النار من جديد فانتابته موجة من الغضب على أبيه ، وتمتم في فوّهة الفرن ، « إن هذا المخ العتيق لا يفكر في غير طعامــه وشرابه » .. ولكنه لم يقل شيئاً بصوت عال ، فقد كان هذا آخر صباح يعد فيه طعاماً للشيخ ، وسكب في القدر قليلاً من الماء ، سرعان ما غلي ، وقلب الحنطة فيه ، ثم حمله إلى الشيخ ، وقال : سنتعشى الليلة أرزاً يا أبتاه .

فقال الأب لم يبق في السلة سوى قدر قليل من الأرز .

وقال وانغ لنغ : « إذن ، فسنقتضب من القدر الذي اعتدنا تناوله في عيد الربيـع » ولكن الشيخ لم يسمع هذا القول لأنه كان يرتشف الطعام من الوعاء بصوت مرتفع .

وإذ ذاك ذهب وانغ لنغ إلى غرفته ، وارتدى عباءته الطويلة الزرقاء . ألم يكن يجدر به ان يعيد حلاقة شعره ؟.. وبوسعه ان يمر بشارع الحلاقين ليحلق قبل ان يذهب إلى الدار التي كانت المرأة تنتظره فيها . إذا كانت لديه نقود فسيفعل ذلك .

وأخرج من حزامه كيساً صغيراً من قماش رمادي اللون متسخ بالدهن،وعد ما فيه من مال ، فوجد هناك ستة ريالات فضية وحفنتين من العملة النحاسية ولم يكن قد أبلغ والده بعد أنه دعا بعض أصدقائه إلى العشاء في تلك الليلة .

فقد دعا ابن عمه الشاب ودعا عمه إكراماً لخاطر والده ، كما دعا جيرانه .

وترك الشيخ دون أن ينبس ببنت شفة،وخرج ليستقبل تباشير الصباح،وبرغم عتمة الفجر المحمرة ، وطغت غريزة الفلاحة على وانغ لنغ برهة ، فانحنى وأخذ

يفحص السنابل وكانت لا تزال فارغة تنتظر المطر . كان ثمة مطر متوقع ، في الفيوم الداكنة وقرر أن يشتري عوداً من البخور ليضعه في المعبد الصغير لرب الأرض ، فهذا ما يجب أن يفعله في يوم كهذا .

وشق طريقه بين الحقول في الدرب الضيق ، ولاح له عن قرب سور المدينة الرمادي ووراء البوابة التي تتخلل السور والتي كان سيمر منها ، كانت هناك الدار الكبيرة التي كانت زوجته المستقبلة تعمل فيها جارية منذ حداثتها .تلك دار « هوانغ » وكان هناك من يقول : خير للمرء أن يعيش وحيداً من أن يتزوج امرأة كانت جارية في بيت كبير ولكنه لما سأل والده : ألن تكون لي امرأة على الإطلاق ؟ رد الوالد بقوله : أما وقد أصبحت الزيجات تكبد ما تكبد من نفقات في هذه الأيام اللعينة وكل امرأة ترغب في اقتناء الخواتم الذهبية والملابس الحريرية حتى تقبل الزواج من رجل ، فلم يبق للفقير سوى أن يتزوج من الجواري ! »

ولم يلبث الوالد بعد هذا أن تحرك وذهب إلى دار « هوانغ » ليسأل عما إذا كانت لديهم جارية يمكن أن يستغنوا عنها وعاد ليقول له هناك جارية ليست بالصغيرة جداً ، وهي فوق كل شيء ـ غير جميلة .

وتألم وانغ لنغ من ألا تكون جميلة ، فما أحلى أن تكون للمرء زوجة جميلة يهنئه على اقتنائها الرجال الآخرون . ولما رأى علامات التمرد على وجهه صرخ فيه : « وماذا نفعل بامرأة جميلة ؟ يجب أن تكون امرأة تعني بشئون البيت وتنجب الأطفال وهي تعمل في الحقول ، فهل تفعل هذا المرأة الجميلة ؟ إنها ستظل أبداً تفكر في ثياب تلائم جمال وجهها ! . لا ، لن تدخل بيتنا امرأة جميلة فنحن فلاحون وفضلاً عن هذا فمن ذا الذي سمع عن جارية جميلة ظلت عذراء في بيت موسر ؟.. لا بد أن ينال شبان هذا البيت نصيبهم منها ، فمن

الخير أن تكون الرجل الأول لا مرأة قبيحة وألا تكون الرجل المائة لا مرأة فاتنة . أتتصور أن ترى الجميلة يدي فلاح مثلك في نعومة يدي ابن رجل ثري ، وأن ترى وجهك الذي لوحته الشمس يضارع جمال البشرة الذهبية التي يتمتع بها أولئك الذين كانت متاعاً لهم ؟ »

وأدرك وانغ لنغ أن والده قد أصاب في أقواله ، ولكنه مع هذا ظل يناضل رغبة جسده قبل أن يتمكن من الإجابة . وأخيراً صاح في ضراوة ، إنني لن أقبل ، على الأقل ، امرأة ذات وجه تشوهه بثور الجدري ، أو امرأة مشقوقة الشفة العليا !

فأجاب والده ، « إن ذلك يتوقف على ما سنجده أمامنا » .

ولم تكن المرأة شوهاء الوجه من آثار الجدري ، ولا كانت مشقوقة الشفة العليا . وكان هذا كل ما عرفه ، فاشترى ـ مع والده ـ خاتمين من الفضة مطليين بالذهب ، وحلقاً فضياً . وحمل الأب هذه الأشياء إلى صاحبة الجارية اعترافاً بالخطبة . ولم يعرف أكثر من هذا عن المرأة التي كان مقدراً أن تكون زوجته ، اللهم إلا أنه بوسعه أن يذهب في هذا اليوم ليأخذها ؛

ومشى وسط العتمة الرطبة إلى بوابة المدينة . وكان السقاءون ـ خلف البوابة ـ يروحون ويجيئون طيلة النهار ، يدفعون عرباتهم المحملة ببراميل كبيرة مملوءة بالماء ، والباعة ينادون : بشائر خوخ الربيع .

فقال وانغ لنغ لنفسه : « إذا كانت تحب الخوخ فسأشتري لها حفنة منه عندما نعود وعسر عليه أن يصدق أنه حين يعود خلال البوابة ، ستكون هناك امرأة تسير في أعقابه .

وعرج إلى اليمين خلف البوابة ، فإن هي إلا لحظة حتى كان في شارع الحلاقين ولم يكن قد سبقه ـ في تلك الساعة المبكرة ـ سوى نفر قليل ، مجرد

شرذمة من الفلاحين الذين حملوا منتجاتهم إلى المدينة في الليلة السابقة ، وتجنبهم وانغ لنغ لئلا يعرفه بعضهم .

وعلى طول الطريق ، وقف الحلاقون في صف طويل وزاء منصاتهم الصغيرة. فسار وانغ لنغ إلى أقصى واحد منهم ، وجلس على المقعد ، وأشار يدعو الحلاق الذي كان واقفاً يثرثر مع جاره . وأقبل الحلاق في الحال ، وشرع مسرعاً في صب الماء الساخن . وقال في لهجة مهينة « هل أحلق كل شيء ؟ » فأجاب وانغ لنغ ، « رأسي ووجهي . » وسأله الحلاق، « وتنظيف الأذنين والمنخرين؟» فسأله وانغ لنغ بدوره في حذر : « وكم يكلف هذا فوق الحلاقة ؟ »

فأجاب الحلاق وقد بدأ يغمس قطعة من القماش الأسود في الماء الساخن ويخرجها « أربعة بنسات » .

فقال وانغ لنغ : « سأعطيك بنسين ! » فبادر الحلاق قائلاً :

« إذن فسأنظف أذنا واحدة ومنخراً . ففى أية ناحية من الوجه تريد أن أفعل ذلك ؟ » .

وغمز الرجل للحلاق المجاور ، فأنفجر هذا ضاحكاً . وتبين وانغ لنغ أنه قد وقع بين يدي مهرج ، وشعر بالتضاؤل بشكل لا سبيل إلى تعليله ، كعادته بإزاء ساكني المدن ، ولو كانوا من الحلاقين ومن أدنى الأشخاص، فقال في عجلة : « كما تشاء .. كما تشاء ! » .

وأسلم نفسه للحلاق وصابونه وتدليكه وحلاقته . ولما كان الحلاق على أية حال رجلاً سخياً ، فقد قام له دون أجر إضافي بسلسلة من التدليك الماهر للكتفين والظهر لتلين عضلاته . وقال يدلي بتعليقاته على وانغ لنغ ، وهو يحلق له أعلى جبهته :

« لن تكون فلاحاً قبيح الشكل إذا أنا قصصت شعرك عن آخره فإن التقليعة الحديثة هي إزالة الضفيرة » .

وحومت الموسى على مقربة من حلقة الشعر في هامـــة وانغ لنغ ، فصرخ هذا :

« لست أملك قصها دون أسأل والدي » .

فقهقه الحلاق واكتفى بحلق ما حول دائرة الشعر .

وعندما انتهت الحلاقة ذهب إلى السوق ، واشترى بعض الحوائج من لحوم وخضار وعودين من البخور . ثم عاد أدراجـــه نحو دار هوانـــغ في استحياء بالغ .

وما إن وصل إلى الباب الخارجي للدار حتى تملكه جزع شديد ، وأخـــذ يسائل نفسه : كيف آتى وحده ؟.. كان جديراً به ان يطلب من والده أو عمه او – حتى أقرب جيرانه « شنبيع » – او أي امرىء ان يأتي معه ، إذ لم يسبق له ان دخل بيتاً كبيراً من قبل . وكيف يدخل وهو يحمل لوازم وليمة زفافه على ذراعه ، ويقول ، « لقد أتيت من اجل امرأة ! » .

ووقف لدى الباب الخارجي فترة طويلة ، يتطلع إليه . وكان مغلقاً بإحكام وقد أطبق مصراعان ضخمان من الخشب . ولم يكن هناك أي مخلوق سواه . فعاد أدراجه إذ بدا له الأمر مستحيلاً .

وشعر فجأة بإعياء . ورأى أن يذهب أولاً ليبتاع قليلاً من الطعام ، إذ أنه لم يكن قد تناول شيئاً .. كان قد نسي كل شيء عن الطعام ، وقصد إلى مطعم صغير في الشارع ، فجلس وهو يضع بنسين على المائدة . واقترب منه ندل قذر يرتدي مئزراً أسود لامعاً ، فناداه قائلاً ، « أئتني بقدحين من العصيدة ! » ، حتى إذا أحضرهما له ، التهمهما بشراهة ، دافعاً محتوياتهما إلى فمه دفعاً بعودي الخشب ، بينما وقف الصبي يقلب العملتين النحاسيتين بين إبهامـــه وسبابته

الأسودين . وسأله الصبي في غير اكتراث : « هل تريد مزيداً ؟ » .

فهز وانغ لنغ رأسه أن لا ، واستوى في جلسته نظره وأجال فيما حوله ،لم يكن في الغرفة الصغيرة المنظمة المزدحمة بالموائد شخص يعرفه . وإنما كان هناك نفر قليل يأكلون او يشربون الشاي ، وكان ذلك المطعم خاصاً بالفقراء ، فظهر هو بينهم أنيقا ونظيفا ، بل وميسر الحال ، حتى إن متسولاً ناشده ، إذ مر به قائلاً « أشفق علي يا أستاذ ، واعطني قليلاً من النقود ، فإني أموت جوعا ! » .

ولم يكن قد سبق لونغ لنغ أن تعرض لمتسول يسأله إحسانا ، كما لم يناده أحد من قبل بلقب « أستاذ » فاغتبط لهذا ، وألقى في قبعة السائل بقطعتين صغيرتين من العملة تعادلان خمس البنس ، فأسرع السائل إلى سحب يده المعروقة السوداء ، وأمسك بقطعتي العملة وأخفاهما في أسماله .

وجلس وانغ لنغ ، إلى أن ارتفعت الشمس في كبد السماء ، ودار صبي المطعم حوله وقد عيل صبره ،ثم قال أخيراً بوقاحة بالغة : « إذا لم تطلب شيئا آخر ، فسيكون عليك أن تدفع أجراً عن المقعد » .

واغتاظ وانغ لنغ من هذه الوقاحة ، وكاد أن ينهض لولا ان تذكر الذهاب إلى دار هوانغ والسؤال هناك عن امرأة ، فتصبب العرق من جميع جسده كما لو كان يعمل كادحا في حقل . وقال للصبي في وهن : « احضر لي شايا ! » وقبل ان يعتدل في جلسته ، كان الشاي قد حضر . وسأله الصبي في حدة : « أين البنس ؟ » .

ولشد ما كان جزع وانغ لنغ عندما اضطر إلى إخراج بنس آخر من حزامه ، ودمدم يقول وهو كاره : « هذه لصوصية ! » .

ثم رأى جاره الذي دعاه إلى الوليمة يدخل المطعم ، فوضع البنس بسرعة على المائدة وشرب الشاي في جرعة واحدة ، ثم خرج مهرولاً من الباب الجانبي

المطعم فوجد نفسه في الشارع مرة أخرى . وتمتم لنفسه في يأس يقول : « لا بد من أداء هذه المهمة ! » . وتحول ببطء ميمماً شطر البوابة الضخمة .. ووجد المصراعين في هذه المرة مفتوحين ، إذ كان الوقت قد فات الظهيرة ، وكان حارس الباب جالساً في كسل عند المدخل ، ينظف أسنانه بسواك من الغاب ، بعد أن تناول الطعام . وعندما ظهر وانغ لنغ صاح الرجل بخشونة ، إذ ظن ـ بسبب السلة ـ أنه قد جاء يبيع شيئاً ، « ماذا تريد يا هذا ؟ » وبصعوبة كبيرة استطاع وانغ لنغ ان يقول ، « أنا وانغ لنغ الفلاح » .

فقال البواب الذي لم يكن مهذباً إلا مع الأغنياء وحدهم من اصدقاء سيده وسيدته ، « حسنا ، ووانغ لنغ الفلاح هذا ، ماذا ؟ » فقال وانغ لنغ في لعثمة « جئت .. جئت .. »

وتظاهر البواب بالصبر بطريقة مسرحية ، وأخذ يفتل الشعرات المدلاة من الشامة وهو يقول « هذا أمر أراه .. »

فتضاءل صوت وانغ لنغ إلى ما يشبه الهمس ، وتصبب وجهه عرقا تحت أشعة الشمس ، وقال : « توجد امرأة . »

فانفجر البواب ضاحكاً ، وقال بصوت هادر : « إذن ، فأنت هو .. لقد طلب مني أن أترقب اليوم عريساً ، ولكني لم أعرفك وأنت تحمل هذه السلة على ذراعك » ..

فأجاب وانغ لنغ معتذراً : « إن هي إلا بعض اللحوم » .. وارتقب أن يقوده البواب إلى الداخل ، ولكن البواب لم يحرك ساكناً ، فاضطر وانغ لنغ أخيراً إلى أن يقول بشيء من القلق : « هل أدخل وحدي ؟ » .

فتصنع البواب أجفالة ذعر وقال : « إن السيد الكبير خليق بأن يقتلك ؟»

وإذا رأى أن وانغ لنغ كان مفرط السذاجة ، قال : « إن القليل من الفضة لهو خير مفتاح » ..

وتبين وانغ لنغ أخيراً أن الرجل كان يطلب منه مالاً ، فقال في ضراعة : « انني رجل فقير » ..

فقال البواب : « دعني أر ما في حزامك ؟ »

وضحك في خبث عندما وضع وانغ لنغ – ببساطته المعهودة – سلته على الأحجار فعلاً . ورفع عباءته ثم أخرج الكيس الصغير من حزامه، وهزه مفرغاً في راحته اليسرى ما تبقى فيه من نقود مشترياته ، وكانت ثمة قطعة فضية واحدة ، وأربعة عشر بنساً من العملة النحاسية .

فقال البواب ببرود : « سآخذ القطعة الفضية » .

وقبل أن يتمكن وانغ لنغ من الاعتراض ، أخذ الرجل القطعة في كمه ، ودلف خلال البوابة وهو يصيح بصوت عال : « العريس ، العريس ! » .

وبرغم ما اعترى وانغ لنغ من غضب مما حدث ، وما تملكه من جزع إزاء إعلان مقدمه بهذا الصوت الجهوري ، لم يسعه إلا أن يتبع الرجل ، فالتقط سلته وسار وراءه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً .

ومع أن هذه كانت المرة الأولى التي يدخل فيها دار أسرة عظيمة ، فإنه لم يتذكر شيئاً من ذلك فيما بعد ذلك أنه سار مطأطيء الرأس – ووجهه يكاد يلتهب – مجتازاً الردهة تلو الردهة ، وهو يسمع ذلك الصوت يهدر أمامه ، ويسمع رنين ضحكات من كل جانب . وفجأة ، عندما خيل إليه أنه قد اجتاز مائة ردهة سكت البواب ودفعه إلى غرفة انتظار صغيرة ، فوقف فيها وحيداً بينما دخل البواب إلى مكان آخر ، ليعود بعد برهة قائلاً : « لقد أمرت السيدة الكبيرة بأن تمثل بين يديها » .

فهم وانغ لنغ بأن يتقدم ، ولكن البواب استوقفه ، وصاح فيه بامتعاض :

« إنك لا تستطيع أن تظهر أمام سيدة عظيمة بسلة في ذراعك ، سلة بها لحم الخنزير وعصيدة الفول . كيف سيتسنى لك أن تنحني ؟ » .

فقال وانغ لنغ في ارتباك : « حقاً .. حقاً .. » ولكنه لم يجرؤ رغم ذلك على ترك السلة لأنه خشي أن يسرق منها شيء ..

ولاحظ البواب خوفه فقال له باحتقار شديد: « في بيت كهذا نطعم الكلاب هذه اللحوم » . وأخذ السلة منه فألقاها وراء الباب ، ودفع وانغ لنغ أمامه ..

وسارا في بهو طويل ضيق ، يقوم سقفه على عمد رقيقة منقوشة ، ثم دخلا قاعة لم يسبق لوانغ لنغ أن رأى نظيراً لها ..

ـ والآن ، لعلك تتأدب فتنكفيء على وجهك هكذا في حضرة السيدة الكبيرة ؟.

فتمالك وانغ لنغ نفسه في خجل بالغ ، وتطلع إلى الأمام .. وعلى منصة في وسط الغرفة رأى سيدة طاعنة في السن ، وقد لفت جسدها الصغير النحيل في ثوب من الساتان الفخم ، وبجوارها نرجيلة للأفيون مشتعلة فوق موقدها الصغير. وتأملته السيدة بعينين سوداوين حادتين صغيرتين .. وخر وانغ لنغ على ركبتيه، ودق رأسه بالأرض ..

فقالت السيدة الكبيرة بوقار للبواب : « انهضه ، فلا داعي لكل هـــذا الخضوع . هل جاء من أجل المرأة ؟ » . فأجاب البواب : « أجل أيتها السيدة العريقة » .

وتساءلت السيدة : « لم لا يتحدث عن نفسه ؟ » .
فقال البواب وهو يفتل شعيرات شامته : « لأنه أبله أيتها السيدة العريقة».

فأثار هذا القول ثائرة وانغ لنغ ، ونظر إلى البواب في غضب وقال :

ـ لست سوى فلاح جلف ياسيدتي العظيمة العريقة ، ولا أعرف أية كلمات تستخدم في حضرة كحضرتك ..

وتفرست السيدة فيه بدقة واهتمام كبير ، وبدا عليها أنها توشك أن تتكلم ، ولكنها في الواقع لم تفعل أكثر من أن مدت يدها وتناولت النرجيلة ،وسرعان ما بدا أنها نسيت وانغ لنغ، فانحنت وراحت برهة تمتص أنبوبة النرجيلة بشراهة ، وقد ضاعت من عينيها النظرة الحادة ، وغشيتها غلالة من النسيان . وظل وانغ لنغ واقفاً أمامها إلى أن لمحته وهي تجيل بصرها . فتساءلت في غضب مفاجىء: « ماذا يفعل هذا الرجل هنا ؟ » ، وكأني بها قد نسيت كل شيء .. غير أن وجه البواب ظل جامداً ولم ينبس ببنت شفة ..

وقال وانغ لنغ في دهشة : « انني انتظر المرأة ياسيدتي العظيمة » .

وأنشأت السيدة تقول : « المرأة .. أية امرأة .. » ولكن الجارية الواقفة بجانبها مالت عليها وهمست في أذنها، فعادت السيدة إلى حالتها الطبيعية وقالت: « آه ، أجل ، لقد نسيت لحظة .. إنها مسألة صغيرة .. لقد جئت من أجل الجارية المدعوة « أولان » ، اذكر اننا وعدنا فلاحاً بتزويجها له ، فهل أنت هذا الفلاح ؟ » .

فأجاب وانغ لنغ : « انا هو » ..

فقالت السيدة الكبيرة لجاريتها : « نادي اولان بسرعة ! » . وبدا كأنها تلهفت فجأة على الانتهاء من كل هذا ، لكي تبقى وحيدة في سكون القاعة الكبيرة ، مع نرجيلة الأفيون ..

وعادت الجارية بعد هنيهة وبيدها فتاة عريضة المنكبين ، اقرب إلى الطول منها إلى القصر ، ترتدي سترة وسروالاً نظيفين من القماش القطني الأزرق وألقى وانغ لنغ عليها نظرة ، ثم اشاح بنظره ، وقلبه يخفق ، تلك كانت امرأته ..

وقالت السيدة في غير اكتراث : « تعالي أيتها الجارية ، لقدجاء هذا الرجل من أجلك » ..

وتقدمت المرأة ووقفت أمام السيدة محنية الرأس ، متشابكة اليدين ..

فسألتها السيدة : « أفأنت على استعداد ؟ » .

فردت المرأة ببطء ، وكأن صوتها رجع الصدى : « على استعداد » .

وإذ سمع وانغ لنغ صوتها للمرة الأولى ، نظر إلى ظهرها ، وهي تقف أمامه كان صوتها طيباً إلى حد كاف ، لا بالمرتفع ، ولا بالخافت ، ولكنه عادي ، ولا يوحي بسوء الطبع.

قالت السيدة للبواب : « احمل صندوقها إلى البوابة ، ودعهما ينصرفان ! »

ونادت بعد ذلك وانغ لنغ قائلة : « قف إلى جانبها بينما أتحدث » . فلماتقدم وانغ لنغ ، قالت له : « لقد قدمت هذه المرأة إلى بيتنا عندما كانت طفلة في العاشرة ، وقد عاشت هنا حتى الآن ، إذ ناهزت العشرين من عمرها . ولقد اشتريتها في عام سادت فيه المجاعة ، عندما أتى والدها إلى الجنوب لانهما لم يجدا ما يقتاتان به . ولعلك ترى بنفسك أن لها ما امتاز به نوعها من قوة البنية واكتناز الخدين . وسوف تجيد العمل لك في الحقل ، وتجلب الماء إلى آخرذلك مما تؤديه . إنها ليست جميلة ، ولكنك في غير حاجة إلى الجمال ، فليس يحتاج إلى الجميلات سوى أهل الفراغ ، ليجدوا فيهن تسلية وملهاة . وهي أيضاًليست ذكية ، ولكنها تؤدي ما يطلب منها خير أداء ، كما أنها ذات طبع هادىء،وهي عذراء على قدر ما أعلم ، فليس فيها من الجمال ما يغري أولادي وأحفادي،حتى لو لم تكن في المطبخ ، فإذا كان قد حدث شيء ، فلا بد أنه من الخدم فقط . ولكني أشك في هذا لأنه توجد في البيت كثيرات من الجواري الجميلات يمرحن في ساحاته طليقات فخذها وأحسن استخدامها ، فهي جارية لا بأس بها وإن كانت بطيئة وغبية بعض الشيء ، ولو لم أكن راغبة في كسب ثواب في المعبد ينفعني في حياتي المقبلة ، بأن اعمل على اجتلاب نفوس جديدة إلى الدنيا لاحتفظت بها ، لأنها نافعة إلى حد كبير في المطبخ ، ولكني أزوج جواري إذا طلبن ولم يكن السادة راغبين فيهن ! » .

وقالت للمرأة : « أطيعه ، وانجبي له الأبناء في أعقاب الأبناء ، واحضري لي طفلك الأول لأراه ! » .

فأجابت المرأة في خضوع : « سمعاً وطاعة ياسيدتي العريقة » .

ووقفا مترددين . وكان وانغ لنغ عظيم الارتباك ، ولم يدر أيتكلم أم يخلد إلى الصمت . وقالت السيدة المسنة في ضجر : « هيا ، انصرفا » .

فانحنى وانغ لنغ مسرعاً ، ثم استدار وخرج ، والمرأة في إثر وخلفهاالبواب حاملاً الصندوق على كتفه ، وألقى هذا الصندوق على الأرض في الغرفة التي عاد إليها وانغ لنغ ليأخذ سلته . وأبى أن يحمله لأبعد من هـذا ، بل إنه اختفى دون أن ينبس بكلمة أخرى .

وعندئذ تحول وانغ لنغ إلى المرأة وتفرس فيهـــا لأول مرة .. كانت ذات وجه مربـع ينم عن الأمانة ،وأنفعريض قصير ، له منخران أسودانواسعان. أما فمها فـكان واسعاً كأنه شق عميق في وجهها . وكانت عيناها صغيرتين ، لهما لون أسود خاب ، وقد افعمتا بشيء من حزن غير واضح المعالم .. كان وجهها وجهاً اعتاد أن يبدو صامتاً لا يتحدث ، وكأنما لم يكن في وسعه الكلام إذا قدر له ان يتكلم . وتحملت المرأة بصبر نظرة وانغ لنغ ، في غير ما ارتباك ولا استجابة بل ظلت تنتظر ببساطة حتى فرغ من تأملها . ورأى ان وجهها كان بالفعل خلواً من اي نوع من الجمال ، وجه اسمر ، عادي ، صبور ..

وقال لها بصوت أجش : « أمامنا هذا الصندوق وهذه السلة » ..

فانحنت دون أن تنبس ببنت شفة ، ورفعت طرفاً من الصندوق فوضعتهعلى كتفها وترنحت تحت ثقله وهي تحاول النهوض به ، وكان يراقبها فيهذه المحاولة ، ثم قال فجأة : « سأحمل الصندوق ، فإليك السلة » .

ورفع الصندوق على ظهره ، غير عابىء ، بأن العباءة التي كان يرتديها هي

خير ما عنده . أما هي فقد أمسكت بيد السلة وهي لا تزال صامتة . وفكر في مئات الردهات التي اجتازها في مجيئه ، وفي منظره وهو ينوء تحت هذا الحمل الثقيل ، فدمدم يقول : « إذا كانت هناك بوابة جانبية » . فهزت رأسها بعد تفكير وجيز ، وكأنها لم تفهم ما قال بالسرعة الكافية ، ثم تقدمته عبر ساحة صغيرة مهجورة نبتت فيها الأعشاب ، وطفحت بركة الماء بهـــا . وتحت شجرة صنوبر معوجة ، كانت ثمة بوابة قديمة مستديرة ، جذبت عنها رتاجها ،واجتازها إلى الشارع ..

ونظر خلفه مرة أو مرتين ليتطلع إليها ، فألفاها تسير في خطى وئيدة ثابتة على قدميها الكبيرتين ، كأنما اعتادت أن تسير في هذا الطريق طوال عمرهـــا ووجهها العريض خال تماماً من أي تعبير . وعند بوابة سور البلدة توقف في تردد وأخذ يتحسس حزامه بإحدى يديه بحثاً عن البنسات التي تركها فيـــه ، وهو يمسك الصندوق في مكانه على كتفه باليد الأخرى . ولم يلبث أن أخرج بنسين فاشترى بهما ست خوخات صغيرة خضراء ، وقال في صوت أجش : « خذي هذه وكليها » .

فتناولتها بجشع كما يفعل الطفل ، وتركتها في يدها دون أن تنطق بكلمة ، وعندما نظر إليها مرة أخرى ، وهما يسيران على حافة حقول القمح ، وجدها تقضم واحدة بحذر . ولكنها لم تكد تلمحه ينظر إليها حتى غطتها مرة أخرى بيدها ، وأوقفت حركة فكيها .

وسار هكذا حتى بلغا الحقل الغربي ، حيث يقوم معبد إله الأرض . وكان هذا المعبد مبنى صغيراً ، لا يزيد ارتفاعه في مجموعه على كتف الإنسان ، وقد شيد من طوب داكن ، وصنع سقفه من القرميد . وكان جد وانغ لنغ — الذي أفلح في أيامه الحقول التي يقضي وانغ لنغ فيها حياته الآن — قد شيده بنفسه ..

وقبع داخل المعبد ، في وضع مريح ، تمثالان طينيان صغيران لشخصين مهيبي الطلعة .

وكان والد وانغ لنغ يشتري في مطلع كل عام صحائف من الورق الأحمر يقصها بعناية ويلصق منها ثياباً جديدة على التمثالين ، فازدهى وانغ لنغ فخراً لمنظرهما الأنيق ، وأخذ السلة من يد المرأة وبحث تحت لحم الخنزير –في حذر– عن عيدان البخور التي اشتراها ، وكان يخشى أن تكون قد تكسرت فيكون ذلك نذير شؤم ، ولكنها كانت سليمة ، فلما وحدها ثبتها متجاورة في رماد عيدان البخور الأخرى الذي تراكم أمام الإلهين ، لأن أهل المنطقة جميعاً كانوا يعبدون هـــذين التمثالين ، ثم بحث عن الزناد والصوان ، وأشعل ناراً في ورقة شجر جافة اتخذها فتيلا ، ثم أشعل البخور باللهب .

ووقف الرجـــل والمرأة معاً أمام إلهي حقولهما ، وراحت المرأة تراقب أطراف عيدان البخور وهي تحمر ثم تستحيل رماداً . وعندما تجمع الرماد على العيدان ، انحنت ودفعته عن أطرافها بسبابتها . وكأنما تملكها الفزع مما فعلت ، فالتفتت بعجلة إلى وانغ لنغ بعينين بدا فيهما الغباء . ولكن شيئاً في حركتها راق له . إذا بدت كأنها تشعر بأن البخور ملك لهما معا . فـكانت تلك لحظة قران بينهما . ووقفا ساكنين ، جنباً إلى جنب ، بينما كان البخور يحترق متحولاً إلى رماد ، ثم حمل وانغ لنغ الصندوق على كتفه وسارا إلى البيت إذ كانت الشمس تميل إلى المغيب .

وعند باب الدار ، كان الشيخ يقف ليتلقى على جسمه أشعة الشمس الغاربة ولم تبدر عنه أية حركة بينما كان ابنه يقترب مع امرأته ، وكأنه أرفع مقاماً من أن يلاحظ المرأة . بل إنه – من النقيض – افتعل اهـــتماماً كبيراً بالسحب ، وقال : « هذه السحابة العالقة بالقرن الأيسر للقمر الجـــديد تنبيء بالمطر . فلن يتأخر عن مساء الغد » .

ثم رأى وانغ لنغ ليأخذ السلة من المرأة ، فصـــاح مرة أخرى : « وهل أنفقت نقوداً ؟ » .

فوضع وانغ لنغ السلة على المائدة ، وقال في اقتضاب : « سيكون لدينـــا

ضيوف الليلة » ثم حمل الصندوق إلى الغرفة التي اعتاد أن ينام فيها ، ووضعه بجوار الصندوق الذي كانت به ملابسه . ومضى يرمقه بنظرة غريبة . ولكن الشيخ أتى ووقف عند الباب ، وقال في تأنيب : « لا حد للمال الذي ينفق في هذا البيت ! » .

وكان في سريرته مغتبطاً لأن ابنه دعا ضيوفاً ، ولكنه رأى أنه ليس من اللائق أن يبدي غير الشكوى أمام زوجة ابنه الجديدة ، خشية أن تعتاد من بادىء الأمر على أساليب التبذير . ولم يقل وانغ لنغ شيئاً ، وإنما خرج وأخذ السلة إلى المطبخ ، فتبعته المرأة . وأخرج الطعـــام قطعة تلو قطعة من السلة ، ووضعها على حافة الفرن البارد ، وقال لها :

– هاك لحم خنزير ، ولحم بقر . وسمك ، وسيجلس إلى المائدة سبعة ، فهل تستطيعين إعداد الطعام ؟ .

ولم ينظر إلى المرأة وهو يتكلم ، فما كان ذلك بالأمر اللائق . وأجابت المرأة بصوتها الواضح :

– لقد ظللت جارية في المطبخ منذ أن حللت في بيت هوانغ ، وكانت اللحوم تقدم في كل وجبة .

فأومأ وانغ لنغ برأسه وتركها . ولم يرها بعد ذلك إلا عندما توافد الضيوف وفي مقدمتهم عمه – البشوش ، الماكر ، الجائع – وابن عمه ، وهو صبي وقح . وكان ثمة رجلان من القرية ، اعتاد وانغ لنغ أن يتبادل معهما الحبوب والخدمات في وقت الحصاد ، وثالث يدعى شينغ – يسكن البيت المجاور – .

وبعد أن جلسوا جميعاً في الغرفة الوسطى ، في اعتراض وتمنع عن الجلوس – من قبيل الأدب – اتجه وانغ لنغ إلى المطبخ ليأمر المرأة بتقديم الطعام . وكم كانت فرحته عندما قالت له :

– سأناولك الأواني إذا تكرمت بوضعها على المائدة ، فلست أحب أن أظهر أمام الرجال ..

وشعر وانغ لنغ في أعماقه بزهو بالغ لأن هذه المرأة أمرأته ، ولم تكن تخشى الظهور أمامه ، ولكنها كانت تأبى الظهور أمام غيره من الرجال . فتناول الأواني من يديها عند باب المطبخ ، ووضعها على المائدة في الغرفة الوسطى ، ونادى بصوت عال : « هيا إلى الطعام ياعمي ويا إخوتي » . وعندما قال عمه الذي كان مولعاً بالمزاح » ، « ألن نرى العروس الرقيقة الحاجبين ؟ » .

أجاب وانغ لنغ في حزم : « إننا لم نقترن بعد ، وليس من اللائق أن يراها أحد قبل أن يتم الزواج » .

وألح عليهم أن يأكلوا ، فأقبلوا على الطعام الشهي المذاق . ولكنه كان في قرارة نفسه فخوراً بأصناف الطعام ، حتى أن وانغ لنغ نفسه لم يذق مطلقاً أصنافاً كهذه على موائد أصدقائه .

وفي تلك الليلة ، وبعد أن تلكأ الضيوف طويلاً في احتساء الشاي ، وأفرغوا ما في جعبتهم من نكات ، ظلت المرأة قابعة وراء الفرن . فلما ودع وانغ لنغ الضيف الأخير ، دخل الحظيرة فوجدها نائمة على كومة من القش بجوار الثور . وكانت بعض أعواد القش قد علقت بشعرها ، عندما أيقظها . وعندما ناداها رفعت ذراعها فجأة – وهي نائمة – كأنها تدفع عن نفسها ضربة . وإذ فتحت عينيها أخيراً ، تطلعت إليه بنظرتها الغريبة الصامتة ، فشعر كأنه يواجه طفلاً . وأخذ بيدها وقادها إلى الغرفة التي اغتسل فيها صباح ذلك اليوم من أجلها ، ثم أشعل شمعة حمراء اللون على المائدة . وفي هذا الضوء الخافت شعر فجأة بالخجل إذ وجد نفسه وحيداً مع المرأة ، واضطر إلى أن يذكر نفسه قائلاً : « ها هي ذي امرأتي ، فلا بد من إنجاز الأمر » .

وشرع يخلع ثيابه في إصرار اما المرأة فتسللت خلف طرف الستار. وأخذت تتأهب للفراش دون أن يصدر منها صوت ، فقال وانغ لنغ بصوت محتبس : « عندما تتهيئين للرقاد اطفئي النور أولاً » .

واستلقى هو في الفراش ، وسحب الغطاء الكثيف فوق كتفيه ، وتظاهر بالنوم ، ولكنـــه لم ينم ، بل راح يرتجف ، وكل نأمة في جسده مستيقظة ، وعندما أظلمت الغرفة بعد وقت طويل ، وشعر بالمرأة تزحف ببطء ، وفي صمت وتستلقي الى جانبه تملكه شعور طاغ بالفرح والرغبة كاد جسمه أن يتحطم تحت وطأته ، وأطلق في الظلام ضحكة مبحوحة ، وأمسك بالمرأة .

الفصل الثاني

شعر وانغ لنغ بلذة حياة الترف ، فقد ظل مستلقياً في فراشه - في اليوم التالي لزواجه - يرقب المرأة التي أصبحت كلها ملكا له . فقد نهضت وضمت ثيابها المفككة حول جسمها وأحكمت رباطها حول عنقها ووسطها ، وأخذت تسويها حول جسدها ببطء ، ثم دست قدميها في نعليها المصنوعين من القماش ، وأحكمت رباطها بأشرطة من الخلف وكان الضوء المنساب من الثقب الثاني في الجدار ينصب عليها في شريط ، فرأى وجهها في غير وضوح. ولم يبدو عليه أي تغيير . وكان هذا مبعث دهشة لوانغ لنغ ، إذ خيل إليه أنه شخصياً قد تغير في أثناء الليلة الماضية ، ولكن ها هي ذي المرأة تنهض من فراشه وكأنها اعتادت أن تنهض منه في كل يوم من حياتها .

وعلا سعال الشيخ صاخباً في الفجر المعتم ، فقال لها :

احملي لوالدي أولاً وعاء من الماء الساخن من أجل رئتيه !

وتساءلت وصوتها هو ذات الصوت الذي سمعه منها بالأمس : « هل توضع فيه أوراق الشاي ؟ » .

وأزعج هذا السؤال البسيط وانغ لنغ ، وود لو أنه قال : طبعاً ، يجب أن تكون فيه أوراق الشاي . أتحسبيننا متسولين أم ماذا ؟ دان يود ان تعتقد المرأة أنهم لا يحفلون بأوراق الشاي في هذا الدار ، فمما لا شك فيه أن كل وعاء من الماء – في دار هوانغ – كان يبدو أخضر لفرط ما فيه من أوراق الشاي ، ومن المحتمل أن الجواري انفسهن كن يأبين ان يشربن الماء قراحا .

ولكنه كان يدرك ان أباه سوف يغضب إذ لم يكونوا أغنياء ولهـــذا أجاب بغير اكتراث :

شاي ؟ لا .. لا .. إنه يزيد سعاله حدة !

بعد ذلك ظل مستلقياً في الفراش راضيا متمتعا بالدفء ، بينما كانت المرأة في المطبخ تشعل النار وتغلي المـــاء وكان يود ان ينام ، بعد ان أصبح ذلك ميسوراً له ، ولكن جسده الأحمق الذي عوده على النهوض في مثل هذه الساعة المبكرة من كل صباح خـلال كل تلك الأعوام ، أبى ان ينام برغم أن هذا كان في وسعه ، ولذلك ظل راقداً يتذوق بحبوحة هـــذا الكسل ويتلذذ به فكرياً وجسدياً .

وكان لا يزال شبه خجلان من التفكير في هذه المرأة التي أصبحت امرأته ، ففكر بعض الوقت في حقوله وحبوب القمح ، وما يمكن ان يكون عليه محصوله إذا هطل المطر ، وفي « تقاوي » اللفت التي كان يود شراءها من جاره شينغ إذا قدر لهما ان يتفقا على سعر . ولكن اندست بين كل هذه الأفكار - التي كانت تشغل باله في كل يوم - فكرة جديدة متسلسلة تدور حول ما صارت إليه حياته وتبادر الى ذهنه فجأة — وهو يفكر فيما جرى بالليل — أن يتساءل إذا كانت قد أحبته . وكانت هذه حيرة جديدة . فهو لم يكن يتساءل من قبل إلا عما إذا كا سيحبها ، وعما إذا كانت سترضيه في فراشه وبيته او لن ترضيه . ومع أن وجهها كان خلواً من الجمال ، وبشرة يديها خشنه ، فإن لحم جسدها الفارع كان ناعما لم يمس .

وعندما فكر فيه ضحك ، تلك الضحكة القصيرة ، الحادة ، الـتي أطلقها في ظلام الليلة الماضية .. إذن ، فـلم يفطن السادة الشباب إلى مواطن الجمـال الـكامنة في جارية المطبخ هذه وراء وجهها العادي . لقد كان جسمها جميـلا ، نحيلا طويل العظام ، لكنه كان ملفوف وناعم . وتمنى فجأة أن تحبه كزوج لها ، ثم خجل من نفسه .

وانفتح باب الغرفة ، وأقبلت بطريقتها الصامتة ، تحمل له بين يديها وعـاء يتصاعد منه البخار ، فجلس في الفراش وأخذه منها . وكانت ثمة أوراق شاي تطفو على سطح الماء ، فنظر إليها بسرعة ، فخافت على التو وقالت : « لم أقدم شايا للشيخ ... لقد فعلت ما أمرتني به ».. أما لك أنت فإني ... » وأدرك وانغ لنغ أنها خائفة منه ، فاغتبط لهذا ، ورد عليها قبل ان تنهي كلامها، قائلا: « إنني أحبه .. إنني أحبه » وأخذ يرشف الشاي بصوت عال ينم عن سرور .

وشعر في قرارة نفسه بهذه البهجة الجديدة التي كان يخجل من أن يعلنها ولو بينه وبين نفسه بقوله : « إن امرأتي هذه تحبني حبا لا بأس به » .

* * *

وخيل إليه انه لم يفعل شيئا – خلال تلك الأشهر التي تلت الزواج - سوى مراقبة زوجته ولكنه في الواقع كان يعمل كما اعتاد دائما ان يعمل : يحمل فأسه على كتفه ، ويذهب إلى حقوله ، فيزرع الحبوب صفوفـــا ، ويشد الثور الى المحراث ، ويحرث الحقل الغربي لاستنبات الثوم والبصل . ولكن العمل كان مبعث لذة ، إذ كان بوسعه – إذا ما بلغت الشمس كبد السماء – ان يذهب الى داره ، فيجد الطعام معداً ليأكله ، والغبار قد أزيح عن المائدة ، والأوعيـــة والعصي الخشبية قد وضعت بأناقة عليها . وكان قبل ذلك يضطر الى ان يعد بنفسه وجبات الطعام عندما يعود الى المنزل برغم تعبه ، ما لم يكن الشيخ قد جاع مبكراً وعمد إلى تجهيز وجبة صغيرة او الى إنضاج قطعة من الخبز غير المختمر ليلفها حول عود من الثوم .

أما الآن فكل شيء أصبح يعد له .

وكانت – بعد الظهر – تحمل فأساً وسلة، وتذهب بهما على كتفها إلى الحقول لتجمع مخلفات الحيوانات وتحملها الى البيت . وكانت تقوم بهـــذه الأعمال في صمت ، ودون أن تؤثر بعملها . وعندما كانت نهاية اليوم تحين ، لم تكن تستريح

إلا بعد أن تضع للثور غـذاء في المطبخ ، وتحمل له مـــاء أمام فمه ليشرب ما شاء منه .

وكانت تأخذ ملابسهم المهلهلة فترتقها بخيط تغزله بنفسها من بعض القطن .

أما فراشهما فـكانت تحمله الى الشمس عند عتبة الدار . وتنزع الأكسية عن الملاحف فتغسلها وتنشرها على عود من الغاب لتجف .

ويوماً بعد يوم ، كانت تؤدي عملاً تلو الآخر ، حتى بـدت الغرف الثلاث نظيفة بل ومرفهة إلى حد ما. وتحسنت كذلك حالة سعال الشيخ، وأخذ يجلس في الشمس .

ولكن هذه المرأة لم تكن تتكلم على الإطلاق ، إلا في الحالات القليلة الـتي تقتضيها مستلزمات الحياة . وكان وانغ لنغ لا يخرج بنتيجة وهو يراقبهـــا إذ تنتقل بثبات وبطء بـــين الحجرات على قدميها الكبيرتين ، او وهو يراقب سراً وجهها المربع الخالي من التعبيرات ، والنظرة شبه الخائفة التي تبدو في عينيها لقد عرف في الليل نعومة جسدها . وكانت أشبه بخادم أمينة ، تخدم بلا كلام ، ولا تزيد على أن تكون خادماً . ولم يكن من المناسب أن يسألهـا : « لماذا لا تتكلمين ؟ » كان في أداء واجبها ما يكفي .

وكان أحيانا يتجه بتفكيره إليها وهو يعمل في ا الحقول ، فيتساءل . ترى ما الذي رأته في الردهات المائة (في دار هوانغ) ؟.. وكيف كانت حياتها .. تلك الحياة التي لم تطلعه على شيء منها ألبتة؟لقد ظلت تلك الحياة مجهولةبالنسبة له ثم إنه لم كان يخجل من فضوله ومن اهتمامه بها.فهي لم تكن على أية حال سوى مجرد امرأة .

على أنه لم يكن في ترتيب ثلاث غرف وإعداد وجبتين من الطعام في اليوم، ما يشغل امرأة كانت جارية في قصر كبير واعتـــادت أن تعمل من الفجر إلى منتصف الليل ، وقد حدث ذات يوم — ووانغ منهمك جداً في تعهد القمح النامي

يعالجه بمسلفته يوما بعد يوم حتى كاد الإعياء أن يقصم ظهره – ان رأى ظلها ينعكس على الجعدة التي كان منحنيا فوقها وإذا بها واقفة تحمل مسلفة على كتفها وقالت في اقتضاب : «ليس في البيت ما اعمله حتى حلول الليل» وتحولت إلى الجعدة الممتدة إلى يساره ، وعكفت دون أن تتفوه بكلمة على فلاحتها ، وكانت الشمس تصليها ، لأن الوقت كان أوائل الصيف ، فسرعان ما أخذ العرق يتقاطر على وجهها ، وخلع وانغ لنغ سترته ، وظل عاري الظهر ، ولكنها ظلت تعمل وثوبها الرقيق يغطي كتفيها ، فلم يلبث أن ابتل والتصق بجسمها . وإذ رحا يعملان معا في حركة إيقاعية منتظمة ، دون ما كلمة ، ساعة بعد أخرى ، شعر بأنه يندمج معها مما خفف عنه كدحه . ولم تكن لديه فكرة متميزة عن شيء معين وإنما قام بينهما هذا التعاطف الكامل في الحركة ، في تقليب هذه الأرض – التي كانت أرضهما – وتعريضها للشمس . هذه الأرض التي كانت وطنهما . والتي كانت تغذي جسميهما ، والتي صنعت منها آلهتهما وكانت الأرض تمتد سخية ، سوداء التربة ، تتشقق في يسر تحت ضربات فأسيهما . وكانا يجدان أحيانا قطعة من الطوب او شظية من الخشب . ولكن هذا لم يكن بذي بال . فقد دفنت في بغض الأزمان . في أجيال ماضية . أجسام رجال ونساء . وكانت ثمة دور قائمة ثم سقطت وعادت الى الأرض وهذا ما سيحدث لمنزلهما يوما فيعود الى الأرض وكذلك جسداهما . فكل شيء كان له دوره على الأرض وراحا يعملان ويتحركان معا لينتجا ثمرات هذه الأرض ولم يقطع حركتهما بأي كلام .

وعندما مالت الشمس إلى المغيب . قوم ظهره ببطء . واسترق نظرة الى المرأة .. كان وجهها مبللا بالعرق مخططا بالتراب . كانت في سمرة الأرض ذاتها . والتصقت ثيابها الداكنة المبللة بجسدها العريض المنكبين . وسوت جعدة أخيرة في رفق . ثم قالت بلهجتها الساذجة المعهودة وصوتها المنطلق يبدو أكثر وضوحا في هواء المساء الساكن : « إنني حامل » !

وتسمر وانغ لنغ في مكانه . واحتار بماذا يعلق على ذلك الأمر .

وكانت قد انحنت تلتقط قطعة مهشمة من الحجر وألقتها بعيدة عن الجعدة . لقد تكلمت ببساطة وكأنها تقول : لقد أحضرت لك الشاي أو آن أن نتناول الطعام .

كان الأمر يبدو لها عاديا الى هذه الدرجة . أما بالنسبة له ، فلم يكن بوسعه ان يحدد مشاعره بالضبط فلقد اضطرم فؤاده ثم كف عن النبض وكأن قيوداً قد احاطت به فجأة . أجل ذلك كان دورهما على الأرض !

وأخذ الفأس من يدها فجأة . وقال بصوت أجش : كفانا الآن ما أديناه من عمل فقد انتهى اليوم ،هيا بنا نذهب لنزف البشرى الى الشيخ وإذ ذاك سار الى البيت . وهي تتأخر عنه بحوالي ست خطوات . كما ينبغي ان تسير . وكان الشيخ واقفا عند الباب ، متلهفا على طعام عشائه الذي لم يعد يعده لنفسه . بعد أن حلت هذه المرأة في البيت . وكان نافذ الصبر فصاح بهما إنني طاعن في السن لا ينبغي ان انتظر طعامي كل هذا الوقت ؟ ولكن ونغ لنغ قال له وهو يمر به متجها الى الغرفة : « إنها حامل ! » .

ولقد حاول ان يقولها ببساطة . كما يقول المرء لقد ألقيت البذور اليوم في الحقل الغربي . ولكنه لم يستطع ومع انه تكلم بصوت منخفض، فقد خيل إليه انه صرح بالكلمات بصوت أعلى مما كان يريد .

وطرفت عين الشيخ برهة ، ثم فهم عبارة ابنه فقهقه ضاحكا . ونادى زوجة ابنه وهي تقترب : « هه . . هه ... هه ... ؟ إذن فالحصاد وشيك الحلول؟» ولم يكن بوسعه أن يرى وجهها في الغسق . ولكنها قالت في هدوء : ساعد الطعام الآن » .

الفصل الثالث

عندما دنت ساعة الوضع . قال لامرأته :

ـ ينبغي أن نجد من يساعدك عندما يحين الوقت .. امرأة ما ..

ولكنها هزت رأسها وكانت عندئذ منهمكة في رفع الأواني من على المائدة عقب وجبة المساء ، وقد أوى الشيخ إلى فراشه ، فانفردا معاً في سكون الليل، لا يؤنسهما سوى لهب متذبذب من مصباح صغير .

وسألها في دهشة :

ـ « ألا تريدين امرأة ؟ » . كان قد بدأ يألف تلك المحادثات معها ، التي لم يكن دورها فيها يزيد إلا قليلا على إيماءة بالرأس أو إشارة باليد ، أو على الأكثر كلمة عابرة تفلت على غير إرادة من فمها الواسع .. بل لقد انتهى إلى أن يشعربان مثل هذا التخاطب لا يشوبه أي نقص .. واستطرد يقول : « ولكن الأمر سيكون شاذاً ، وليس في البيت غير رجلين ، لقد كانت أمي تستدعي امرأة من القرية، ولست خبيراً بهذه الشئون . أليس في البيت الكبير من تستطيع القدوم؟ أليست هناك جارية عجوز كانت صديقة لك ، يمكنها الحضور ؟ » .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها البيت الذي جاءت منه ، فالتفتت إليه، وقد اعتراها ما لم يرها عليه من قبل ، إذ اتسعت عيناها الضيقتان ونم وجهها عن غضب كالح ، وصاحت في وجهه : « لا أحد في ذلك البيت ! » .

فسقط من يده الغليون الذي كان يحشوه ، وحملق فيها مشدوهاً ، ولكن

وجهها كان قد عاد فجأة إلى مظهره العادي ، وأخذت تجمع الأعواد الخشبية التي يأكلون بها ، وكأنها لم تكن تتكلم منذ برهة . فقال لها في دهشة : « حقاً ، أنه لأمر غريب ! » ولكنها لم تقل شيئاً ، فاستطرد يجادلها : « إننا رجلان ، ولا خبرة لنا بشئون الولادة . أمـا والدي . فليس من اللياقة أن يدخل غرفتك وأما أنا فلم يسبق لي أن شاهدت حتى بقرة وهي تلد ، فما بالك بامرأة ؟!.. إن يدي الخشنتين قد تشوهان الطفـل . إن امرأة من البيت الكبير حيث الجواري يلدن على الدوام .. » .

وبعد تأملات قالت :

– عندما أعود إلى البيت ، فلن أعود إلا وطفلي بين ذراعي وسألبسه معطفاً أحمر وسروالاً موشى بزهور حمراء . وعلى رأسه قبعة مزدانة بصورة صغيرة مذهبة لبوذا مخيطة في مقدمتها . وفي قدميه حذاءان وجهاهما مصنوعان من جلد النمر . وسأنتعل حذاءين جديدين ، وأرتدي معطفـاً جديداً من الساتان الأسود . وسأذهب إلى المطبخ الذي قضيت فيه عمري كما سأدخل إلى القاعة الكبرى حيث تجلس السيدة الكبيرة ومعها أفيونها ، وسأدعهم جميعاً يرونني ويرون طفللي !

ولم يكن قد سبق له أن سمع منها مثل هذا القدر من الكلمات التي تدفقت تباعاً بلا توقف وإن كانت في شيء من البطء فأدرك أنها رسمت كل هذه الخطة لنفسها . كانت ترسم هذا وهي تعمل بجواره في الحقول ، فيا لها من امرأة مدهشة .

كان يظن أنها لم تكن تكاد تفكر في طفلهـا على الإطلاق ، إذ كانت تؤدي أعمالها في هدوء وسكينة يوماً بعد آخر . ولكنها في الواقع تتمثل هـذا الطفل وقد ولد ، وارتدى أكمل ثيابه – وتتخيل صورتها أما له ، وقد ارتدت معطفاً جديداً !.. ووجد أنه هو الذي يلتزم الصمت في هذه المرة . فأخذ يضغط التبغ بين إبهامه وسبابته . ويصنع منه كرة صغيرة . ثم تناول غليونه ووضع التبغ في وعائه . وأخيراً قال بجفوة ظاهرة : «أحسب أنك ستحتاجين إلى بعض النقود» فقالت متخوفة . « إذا أعطيتني ثلاث قطع من الفضة ..إنها – في الواقع – مبلغ

كبير .ولكنني أحصيت كل شيء بدقة ، ولن أبدد درهماً فيما لا يجدي . سأعمل على أن استخلص من بائع القماش كل بوصة أستطيع استخلاصها » .

وتحسس وانغ لنغ حزامه .. كان قد باع في اليوم السابق في سوق المدينة حملا ونصف حمل من أعواد الغاب التي جمعها من البركة التي كانت في الحقل الغربي وأصبح في حزامه نقود أكثر قليلا مما رغبت . فأخرج ثلاثة دولارات فضية . ووضعها على المائدة . ثم أضاف ـ بعد تردد قليل ـ قطعة رابعة. كان قد استبقاها معه فترة طويلة توقعا منه لأن يرغب ذات صباح في أن يقامر بها مشرب الشاي ولكنه لم يفعل قط أكثر من الطواف بين الموائد . والنظر إلى النرد ـ وهو يتدحرج بصوت مسموع على المائدة ـ خشية أن يخسر إذا لعب . وكان ينتهي عادة إلى قضاء ساعات الفراغ في المدينة في « كشك » راوي القصص حيث يمكن للمرء أن يستمع إلى قصة قديمة ، دون أن يدفع أكثر من بنس واحد يلقيه في سلطانية الرجل عندما تدار على الحاضرين

وعاد يقول ، وهو يشعل غليونه بين الكلمات ، وينفخ فيه ليزيده اشتعالا : « يحسن أن تأخذي هذه القطعة كذلك وتستطيعين بالمرة أن تصنعي له معطفاً من بقية صغيرة من الحرير ، فهو على كل حال ابننا الأول ! » .

ولم تأخذ النقود على الفور . بل وقفت تنظر إليها دون أن يختلج عصب في وجها ثم قالت في صوت شبه هامس . « هذه هي المرة الأولى التي أمسك فيها بنقود فضية في يدي » ولختطفتها فجأة وضمت قبضتها عليها وهرعت إلى غرفة النوم وجلس وانغ لنغ يدخن ويفكر في الفضة التي كانت ملقاة على المائدة ، لقد جاءت هذه الفضة من أرضه التي حرثها وقلبها وبذل نفسه فيها . لقد استمد حياته من هذه الأرض . وبعرقه ـ قطرة بعد قطرة ـ كان يعتصر الغذاء منها ويحصل على الفضة من هذا الغذاء . وكان في كل سابقة أعطى فيها الفضة لأي امرىء يشعر كأنه كان ينتزع قطعة من حياته ويعطيها في غير اكتراث لذلك الشخص أما الآن فلأول مرة لم يكن العطاء موجعاً . إنه لم ير الفضة تنتقل إلى

يد تاجر غريب من تجار المدينة بل رآها تتحول إلى شيء له قيمة قد تفوق قيمتها. إلى ملابس تكسو جسد ابنه . وكانت امرأته هذه العجيبة التي تعمل في كل مكان دون أن تنبس ببنت شفة ودون أن يبدو انها ترى شيئاً هي التي رأت الطفل - قبل سواها - في مثل هذا الكساء .

ورفضت أن يكون أحد بجوارها عندما تحين الساعة .. وقد حانت في وقت مبكر من إحدى الليالي ، عندما كانت الشمس على وشك المغيب .

كانت تعمل بجواره في حقل الحصاد . ذلك أن القمح كان قد نضج ، وجمعت سنابله ، ثم غمر الحقل بالمياه ، وبذور الأرز ، ثم نبت واستقامت أعواده ثم آن حصاد الأرز بدوره إذ نضجت سنابله وامتلأت بعد سقوط أمطـــار الصيف وحلول شمس الخريف الباكر بدفئها الذي يساعد على الإنضاج . وظلا معـــاً - في ذلك اليوم - يقطعان عيدان الأرز .. ينحنيان ويقطعان العيدان بمنجلين قصيري المقابض .

وكانت تنحني بمشقة ، بسبب مـــا كانت تنوء به من حمل ثقيل ، وتتحرك ببطء ، ولهذا لم يكونا متساويين فيما يقطعان ، فكان هو متقدما في صفه ، وهي متخلفة في صفها . ثم أخذت تزداد بطئا باطراد ، بينما ذاب وقت الظهيرة في العصر ، ثم أقبلت ساعة الغروب . فاستدار في صبر نافذ لينظر اليها. وإذا بها قد توقفت عن العمل ، ثم استقامت ، وسقط المنجل من يدها . وبدا على وجهها عرق جديد ، عرق أوجاع جديدة . وقالت :

- لقد حانت الساعة . سأذهب إلى المنزل ، فلا تدخل الغرفة حتى أناديك ، ويكفي أن تحضر لي قطعة من الغاب نزعت عنها قشورها حديثا ، وأن تشقها ، لأفصل بها حياة الطفل عن حياتي .

وشقت طريقها وسط الحقول صوب الدار وكأنها لم تكن تتوقع حدثا . وبعد أن راقبها حتى اختفت عن ناظريه ، ذهب إلى البركة عند الحقل الخارجي ،

واختار من هناك غابة رفيعة خضراء ، فنزع عنها قشرتها الخارجية بعنـــاية ، وشقها بحافة منجله . وبدأ الظلام المبكر لليل الخريف يخيم على الحقول ، فحمل منجله وعاد إلى الدار .

وعندما وصل إليها وجد عشاءه ساخنا على المـائدة ، ورأى والده الشيخ جالساً يأكل .. كانت قد توقفت وهي في أوجاع المخاض لتعد لهما الطعام ، فقال لنفسه : إنها امرأة يندر وجودها عادة ! . ثم ذهب إلى باب غرفتها وناداهـــا قائلا : « ها هوذا عود الغاب ! » .

وانتظر متوقعاً أن تطلب منه أن يحمل العود إليها ، ولكنها لم تفعل ، بل جاءت إلى الباب ومدت يدها من خلال الشق الذي بين مصراعيه وأخذت عود الغاب . ولم تنبث ببنت شفة ، ولكنه سمعها تلهث وكأنها حيوان قـــد جرى شوطاً طويلا . ورفع الشيخ رأسه عن الأكل وقال . « تعـــال كل ، وإلا برد الطعام . لا تزعج نفسك الآن ، فسوف يطول الأمر . إني لأذكر جيـدا وقت ولادة طفلي الأول . إن الفجر أقبل قبل أن ينتهي الوضع . أي أسى أشعر بـه إذ أفكر في انه من كل الأطفال الذين أنجبتهم والذين حملتهم والدتك واحداً تلو الآخر ، وكانوا حوالي العشرين — لا أذكركم بالضبط — لم يعش لي إلا انت فقط. أترى لماذا يتحتم على المرأة ان تحمل وتكرر الحمل مرات ومرات ؟ » ثم عـــاد يقول ، وكأنما الفكرة جاءت بنت لحظتها : « قد أصبح — في مثل هذا الوقت من الغد — جداً لطفل ذكر » . وشرع يقهقه فجأة ، ثم توقف عن الأكل،وجلس في ظلام الغرفة يواصل الضحك فترة طويلة .

ولكن وانغ لنغ وقف عند الباب يصغي إلى تلك اللهثات العميقة الحيوانية، وانبعثت من شق الباب رائحة دم حار ، رائحة تغثى لهـا النفس أخافته ، ثم تسارعت داخل الحجرة لهثات المرأة وأصبحت عالية ، كأنها صراخ مكتوم على أنها لم تطلق صرخات عالية وعندما أصبح عاجزاً عن ان يحتمل اكثر من ذلك، واوشك أن يقتحم الغرفة ، انبعثت صرخة ضارية فنسى كل شيء !

وصاح بلهفة ، وقد نسى المرأة : « اذكر هو ؟ » . وانبعثت الصرخة الحادة

مرة أخرى . وكانت هذه المرة ، قوية ، ملحة فصاح من جديد : « أهو ذكر ؟ نبئني عن هذا على الأقل .. أذكر هو ؟ » .

وأجابه صوت المرأة خائراً ، ضعيفـاً ، كأنه رجع الصدى : « إنه ذكر » عندئذ سار إلى المائدة وجلس .. ما أسرع ما انقضى الأمر !..

وكان الطعام قد برد منذ فترة طويلة ، والشيخ قد نام على مقعده الخشبي ، ورغم ذلك فما أسرع الكيفية التي تم بها كل شيء !.. وهز كتف الشيخ، وصاح مزدهيا : « إنه طفل ذكر .. إنك جد ، وأنا أب ! »

واستيقظ الشيخ فجأة ، واخذ يقهقه ، كما كان يفعل عندما غشيه النـوم ، وهو يقول : « أجل .. أجل .. طبعاً .. جـد .. جد ! » ثم نهض واتجه إلى فراشه ، وهو لا يزال يقهقه .

وتناول وانغ لنغ وعاء الأرز البارد وأخذ يأكل لقـــد شعر فجأة بجوع شديد ولم يستطع رفع الطعام إلى فمه بسرعة تكفي لسد جوعه.وكان يسمع المرأة تروح وتغدو في الغرفة وهي تجر نفسها جرا ، وصراخ الطفل ثاقب مستمر .

وقال لنفسه في زهو وفخر : « أظننا لن نهنأ بسكون في هذا البيت بعـــد الآن » وعندما أكل ما شاء أن يأكل ، ذهب إلى البـــاب مرة أخرى ، فسمعها تناديه أن يدخل، فدخل الغرفة « وكانت رائحة الدم المهرق لا تزال حارةعالقة بالجو ، ولكن لم يكن ثمة أثر للدم إلا في البرميل الخشبي . على أنها كانت قـد صبت في ذلك البرميل بعض الماء ، ثم دفعته تحت الفراش حتى لا يراه زوجها ، وكانت الشمعة الحمراء مضاءة بينما رقـدت المرأة في الفراش تحت أغطية نظيفة ، وإلى جوارها ابنه ملفوفا في أحدسراويله القديمة كالعادة المتبعة في تلك البقعةمن الأرض . وسار إليها .. وظل برهة لا تسعفه الألفـــاظ . وراح قلبه يقفز في صدره . ثم انحنى فوق الطفل ليتأمله . كان له وجه مستدير ، متغضن ، بـدا شديد السمرة ، وعلى رأسه شعر طويل ، رطب ، اسود ، وكان قد كف عـن الصراخ ، ونام وعيناه مطبقتان تماماً .

والتقت عيناه بعيني زوجته . وكان شعرها لا يزال مبللا بعرق الألم ،وعيناها الضيقتان غائرتين : وفيما عدا ذلك ، كانت كعهده بها دائما .

الفصل الرابع

في اليوم التالي لمولد الطفل نهضت المرأة كالمعتاد ، وأعدت الطعام للرجلين . ولكنها لم تخرج إلى الحقول للحصاد مع وانغ لنغ ، فظل يعمل بمفرده حتى ما بعد الظهيرة ، ثم ارتدى ثوبه الأزرق وذهب إلى المدينة . وسعى إلى السوق فاشترى خمسين بيضة ، لم تكن طازجة وإن كانت في حالة لا بأس بها قال له البائع : « لعله لأم قد وضعت حديثاً »

فأجب الرجل وانغ لنغ في زهو : « إنه ابن بكر » .

فاجاب الرجل بغير مبالاة « آه ، حظ سعيد ! قالها وعيناه مثبتتان على عميل حسن الهندام ، دخل المحل إذ ذاك . وكانت تلك عبارة رددها مرات كثيرة للآخرين ، بل كان يرددها كل يوم لشخص من الأشخاص ، ولكنها بدت لوانغ لنغ كأنها خاصة به ، فاغتبط لهذه المجاملة من الرجل ، وانحنى له ، ثم كرر الانحناء وهو يخرج من المحل ، وخيل إليه وهو يخرج إلى الشارع المترب تحت وهج الشمس ، أنه لم يخلق رجل أسعد منه حظاً .

فعرج مسرعاً إلى متجر صانع الشموع الذي كان يبيع البخور أيضاً ، واشترى منه أربعة أعواد من البخور .. عوداً لكل شخص في بيته . وبهذه الأعواد الأربعة ذهب إلى المعبد الصغير الخاص بإله الأرض وثبتها في الرماد المتخلف من عيدان البخور التي سبق ان وضعها هناك هو وزوجته وراقب العيدان الاربعة حتى اشتعلت جيداً ، ثم ذهب إلى الدار مرتاح البال . يا لهذين التمثالين الصغيرين اللذين يجلسان تحت سقفها الصغير ويحميان الحقول ! ويا لقدرتهما !

وقبل أن يتبين المرء أي شيء عادت المرأة إلى الحقول بجوار زوجها وكانت ايام الحصاد قد انتهت ، واخذا يدرسان الحبوب في الجرن الذي كان ايضا بمثابة فناء للدار .

واصبحت تعمل طول اليوم ، والطفل على لحاف قديم ممزق على الأرض وقد راح في سبات عميق ، وكانت تتوقف ـ إذا ما بكى ـ وتكشف عن صدرها وترضعه ، وهي متربعة على الأرض ، والشمس تصليهما معا .. شمس نهاية الخريف المتسكعة ، التي لا تدع دفء الصيف يتبدد إلا عندما يضطرها إلى ذلك برد الشتاء ، وكانت المرأة والطفل في سمرة التربة . فلما جلسا لاحا كانهما تمثالان صنعا من الطين .. وكان على شعر المرأة ، وعلى رأس الطفل الأسود الناعم ، غبار من الحقول . على أن اللبن كان ينزل مدراراً للطفل من ثدي المرأة الكبير الأسمر .. لبن ابيض كالثلج . فكان الطفل إذا ما امتص ثديا انبثق اللبن كالنافورة من الثدي الآخر ، فكانت تدعه ينساب ..

وحل الشتاء .. وكانا مستعدين له ، كانت المحاصيل من الكثرة بدرجة لم يسبق لها نظير ، حتى كادت الدار ذات الغرف الثلاث الصغيرة أن تنفجر .

وكان عمه دائماً يضطر إلى بيع قمحه قبل أن يتم نضجه ، بل وكان يبيعه احيانا وهو بعد لا يزال نباتا في الحقل ، ليوفر على نفسه مشقة الحصاد والدرس ، في مقابل نقود ضئيلة . وكانت زوجة عمه كذلك امرأة حمقاء ، بدينة وكسولاً ، لا تكف عن طلب الأطعمة الشهية ، وعن طلب هذا أو ذاك . وعن طلب أحذية جديدة تشترى من المدينة . أما زوجة وانغ لنغ فكانت تصنع كل الأحذية له وللشيخ ولقدميها وقدمي الطفل . وما كان يدري ماذا يفعل لو أنها أرادت شراءها .

ولم يكن في بيت عمه القديم المتداعي أي شيء يتدلى من دعامات السقف ، بينما كان كل شيء متوافراً في داره هو لدرجة انه كانت هناك فخذة من لحم الخنزير اشتراها من جاره شينغ عندما ذبح خنزيره الذي بدا عليه أنه على

وشك أن يصاب بالمرض . ولقــد ذبح الخنزير في باكورة المرض ، قبــل أن يهزل .

لهــذا جلسوا في دارهم وسط هذه الوفرة ، عندما هبت رياح الشتاء من الصحراء وسرعان ما استطاع الطفل أن يجلس بمفرده ـ وكانوا عندما اكتمل شهر قمري على مولد الطفل قد احتفلوا بهذه المناسبة ، فاقاموا وليمة قــدموا فيها « الشعرية » ـ رمز العمل الطويل ـ ودعا وانغ لنغ أولئك الذين كان قد دعاهم في حفل قرانه ، وقدم لكل منهم عشر بيضات حمراء كان قد سلقهــا وصبغها ، واعطى كل فرد ممن جاءوا من القرية لتهنئته بيضتين . ولقد حسده كل امرىء على ابنه الكبير البدين ذي الوجه المشرق كالقمر ، العريض عظم الفكين كوالدته .

وعندما حل الشتاء ، أصبح يجلس على الحشية التي أصبحت تفرش الآن على الأرض الطينية في الدار ، بدلاً من ارض الحقول ، واصبحوا يفتحون الباب المطل على الناحية الجنوبية لينساب منه الضوء .. وكانت أشعة الشمس تدخل إلى الدار ، أما الرياح الآتية من الشمال ، فكانت تهاجم جدران الدار السميكة المشيدة من الطين ، دون ما جدوى .

ومع هذه الريح الجافة لم تقو حبوب القمح المبذورة في الأرض على الإنبات ، فراح وانغ لنغ يترقب سقوط الأمطار بلهفة . ولم تلبث أن هطلت فجأة ، في يوم ساكن معتم ، عندما سكنت الريح وهدأ الجو وشاع فيه الدفء . وكانوا يجلسون جميعاً في الارض الزاخرة بالخيرات ، فأخذوا يرقبون هطول الأمطار وهي تنصب انصبابا ، وتغوص في أرض الحقول المحيطة بساحة الدار ، وتتقاطر على الباب من أركان السقف المصنوع من القش والغاب . وتملكت الدهشة الطفل ، فراح يمد يديه ليمسك هذه الخيوط الفضية من المطر وهي تنساب . واخذ يضحك فضحك الجميع معه . وأقعد الشيخ بجوار الطفل وقال : ما من طفل كهذا في عشرات القرى ، إن أولاد أخي لا يفطنون إلى شيء قبل أن يستطيعوا السير ! »

ونبت القمح في الحقول واستوى على عيدان خضراء رقيقة فوق الأرض المبللة السمراء ، وكان يطيب للناس التزاور في وقت كهذا ، لأن كل فلاح كان يشعر بأن «السماء» قد تولت عنهم مؤقتاً تأدية أعمالهم في الحقول، وأن محصولاتهم كانت تروي دون أن تنقصم ظهورهم في حمل دلاء الماء جيئة وذهاباً ، معلقة على عصى مرتكزة على أكتافهم ، وكانوا يجتمعون في الصباح في هذا البيت وفي ذاك ، ويشربون الشاي هنا وهناك ، ويذهبون من دار إلى دار – وهم حفاة – عبر الدرب الضيق الممتد بين الحقول محتمين بمظلات كبيرة من الورق المزيت ، وكانت النسوة يمكثن في البيوت ، يصنعن الأحذية ويرتقن الثياب إذا كن مدبرات ويفكرن في الاستعدادات لوليمة رأس السنة .

ولكن وانغ لنغ وزوجته لم يكونا يكثران من الزيارات إذ لم يكن في القرية المؤلفة من دور مبعثرة – والتي كان بيتهما واحداً من ستة منها – دار واحداً ممتلئة دفئا وخيراً كدارهما . فشعر وانغ لنغ بأنه لو وثق صداقته بالآخرين لأقبلوا على الاستدانة منه ، إذ كان رأس السنة يقترب .. ومنذا الذي أوتى المال اللازم لشراء الملابس الجديدة والأطعمة ؟ لهذا مكث في داره . وبينما كانت المرأة ترتق وتحيك ، كان هو يتناول مجارفه المصنوعة من قصب الغاب المشقوق ويفحصها ، وحينما كان يجد الخيط مقطوعا كان يحيك مكانه خيطا جديداً من النقب الذي زرعه بنفسه ، وحينما وجد أحد الأسنان مكسوراً كان يضع مكانه حديدة من الغاب بمهارة .

وكانت زوجته تفعل بأدوات البيت ما كان يفعله بأدوات المزرعة . فإذا انثقبت جرة من الجرار الفخارية لم ترمها وتتحدث عن جرة جديدة كما تفعل غيرها من النساء ، بل كانت تعمد إلى خلط التراب بالطمى وتسد الثقب ثم تسخنه ببطء ، فتصبح الجرة وكأنها جديدة .

لهذا مكثا في دارهما ، وكل منهما مغتبط باستحسان الآخر لمسلكه ، وإن لم يزد حديثهما عن بعض كلمات متفرقة مثل : « هل ادخرت الحب من اليقطينة

الكبيرة للزراعة الجديدة ؟ » ، أو «سنبيع التبن» ونستخدم سيقان الفول كوقود في المطبخ » . ولقد يقول وانغ لنغ ـ في مرات نادرة ـ « هذا طبق لذيذ من حساء الشعيرية » ، فتجيبه أولان في تواضع : « إن القمح الذي حصلنا عليه من حقولنا هذا العام من نوع جيد » .

ومن نتاج الأرض ـ في تلك السنة الطيبة ـ حصل وانغ لنغ على حفنة من الريالات الفضية تزيد وتربو على حاجتهم، وقد خشي أن يستبقي هذه في منطقته أو أن ينبىء بأمرها أحداً سوى المرأة ، فاخذا يفكران معا في مكان يخبئان فيه الفضة . واخيراً حفرت المرأة في مهارة فجوة صغيرة في الجدار الأقصى لغرفتها ، خلف الفراش ، وفي هذه الفجوة دس وانغ لنغ الفضة ، ثم سدتها أولان بقطعة من الطين ، فكانما لم يكن هناك شيء . ولكنهـــا بعثت نفس وانغ لنغ وأولان شعوراً بالثراء الخفي ، وبحوزة رصيد للضائقات .. . وكان وانغ لنغ يدرك أن لديه من المال ما يزيد عن حاجته للإنفاق ، فكان إذا سار بين رفاقه مشى معتداً بنفسه راضيا على كل شيء .

الفصل الخامس

أخذ العام الجديد يقترب ، فقامت الاستعدادات في كل بيت في القرية على قدم وساق . وذهب وانغ لنغ إلى متجر صانع الشموع في المدينة ، فاشترى قصاصات مربعة من الورق الأحمر ، رسم على كل منها بحبر ذهبي اللون الحرف الذي يرمز إلى السعادة كما نقش على بعض منها الحرف الذي يرمز للثراء .

أما لبيته ، فقد اشترى شمعتين حمراوين ليشعلهما في عشية العيد على المائدة ، تحت صورة لأحد الآلهة كانت ملصقة على جدار الغرفة الوسطى ، فوق المكان الذي كانت فيها المائدة .

ثم ذهب وانغ لنغ إلى المدينة مرة أخرى ، فاشترى شحم خنزير ، وسكراً أبيض . فعالجت المرأة الدهن حتى بات طرياً أبيض ، وأخذت بعضا من دقيق الأرز الذي كانا قد طحناه من أرزهما بين شقي رحاهما الكبيرة التي كانا يربطان إليها الثور ليديرها كلما احتاجا إلى ذلك ، ثم أخذت الدهن والسكر فأضافتها وصنعت كعكاً فاخر لرأس السنة ، يسمى « كعك القمر » كذلك الذي كان يؤكل في دار « هوانغ » .

وعندما وضعت الكعك في صفوف على المائدة ، استعداداً لتسخينه ، شعر وانغ لنغ بأن قلبه يكاد ينفجر لفرط زهوه . فلم تكن في القرية امرأة أخرى يفعل ما فعلته امرأته .. تصنع كعكاً لا يأكل مثله سوى الأغنياء في الأعياد . وكانت قد وضعت في بعض هذه الكعكات ثمــاراً من الكرز الأحمر نسقتها في

خطوط وأجزاء من البرقوق الأخضر المجفف نثرتها كالنقط ، راسمة من هـذه وتلك أزهاراً وأشكالاً مختلفة .

وقال وانغ لنغ « حرام أن تؤكل هذه ! » .

وكان الشيخ يحوم حول المائدة فرحاً كما يفرح الطفل بالألوان البراقة ،ثم قال « ناد أخي ـ عمك ـ وأطفاله .. ليروا ! » .

ولكن رغد العيش جعل وانغ لنغ رجلاً حريصاً فلم يكن المرء يستطيع أن يدعو الجياع من الناس لمجرد أن يروا الكعك فقط . فأجاب في عجلة « من الجلب للنحس أن يشاهد الناس الكعك قبل رأس السنة ! » .

وقالت المرأة التي كان بيديها أثر دقيق الأرز الناعم والدهن : « ليس هذا الكعك معداً لكي نأكله نحن وإنما هو ـ فيما عدا واحدة أو اثنتين من الكعكات غير المزركشة التي قد نعطيها للضيوف كي يتذوقوه » (فنحن لسنا من الثراء بدرجة أن نأكل سكراً أبيض وشحم خنزير) ولكنه معد للسيدة العريقة في البيت الكبير ، فسوف آخذ الطفل إلى هناك في اليوم الثاني من العام الجديد ، وأقدم هذا الكعك هدية . إذ ذاك ازدادت قيمة الكعك أكثر من ذي قبل ، وسر وانغ لنغ لأن زوجته ستذهب الآن كضيفة إلى تلك القاعة الكبيرة ـ التي وقف فيها من قبل في كثير من الارتباك والفقر ـ وهي تحمل ابنها ، وترتدي الثياب الحمراء ومعها هدية من مثل هذا الكعك المصنوع من خير أنواع الدقيق والسكر والدهن وغاضت أهمية كل شيء آخر في العام الجديد بجانب هـذه الزيارة . ولم يوح إليه المعطف الجديـد الذي صنعته ، أولان ، من قماش قطني أسود ـ عندما ارتداه ـ إلا بأن يردد لنفسه : « سأرتديه عندما أرافقها إلى بوابة البيت الكبير ! » .

بل لقد قضى اليوم الأول من العام الجديد في غير اكتراث . ولم يبال بزيارة عمه وجيرانه عندما جاءوا إلى الدار وازدحموا فيها ليهنئوه هو ووالده بالعيد .

وأسرفوا في الأكل والشرب ، وحرص على وضع الكعك الملون في السلة بنفسه حتى لا يضطر إلى تقديم شيء منه إلى عامة الناس ولو أنه وجد صعوبة كبيرة عندما قوبلت الكعكات البيضاء غير المزينة بالإطراء لنكهة الدهن والسكر - في أن يمسك نفسه عن أن يصيح : « ليتكم ترون الكعك الملون ! » ولكنه لم يفعل، لأنه أراد أن يدخل البيت الكبير في زهو وفخار .



وفي اليوم الثاني من العام الجديد - وهو اليوم الذي تزور فيه النسوة بعضهن البعض ، بعد أن يكون الرجال قد ملئوا بطونهم أكلاً وشرباً في اليوم السابق استيقظوا جميعاً في الفجر ، فألبست المرأة الطفل معطفه الأحمر والحذاءين اللذين صنع وجهاهما من جلد النمر واللذين صنعتهما له بنفسها ، ووضعت على رأسه ، الذي كان وانغ لنغ قد حلق شعره بيديه في اليوم الأخير من العام القديم، القبعة الحمراء التي خيطت في مقدمتها صورة لبوذا موشاة بالذهب ، ثم أجلسته على الفراش وارتدى وانغ لنغ ثيابه بسرعة ، بينما أخذت زوجته ترجل من جديد شعرها الأسود الطويل وتمسكه بالدبوس النحاسي المطلي بالفضة الذي كان قد اشتراه لها . وارتدت معطفها الجديد الأسود المصنوع من ذات القماش الذي صنع منه معطف زوجها أربع وعشرون قدماً من القماش الجيد للاثنين ، وقدمان إضافيتان تأكيداً للأمانة في القياس ، كما هي العادة في متاجر الأقمشة ثم انطلقا - هو يحمل الطفل وهي تحمل الكعك في السلة - في الطريق عبر الحقول، التي كان الشتاء قد جعلها جرداء في ذلك الوقت .

وسرعان ما تلقى وانغ لنغ ثوابه عند البوابة الضخمة للبيت الكبير ، فإن البواب عندما أقبل تلبية لنداء المرأة ، حملق دهشة إزاء كل ما رآه ، وفتل الشعرات الثلاث النابتة من شامته ، وصاح : « آه وانغ لنغ الفلاح .. ولكنكم ثلاثة في هذه المرة ، بدلاً من واحد ! » . حتى إذا وقع نظره على الثياب الجديدة التي كانوا يرتدونها ، وشاهد الطفل وأدرك أنه ذكر ، أضاف :

« لا داعي للمرء لأن يتمنى لكم في هذا العام حظاً أفضل من الذي كان لكم في العام الماضي ! » .

ورد وانغ لنغ بغير مبالاة ، كما يتحدث المرء إلى شخص لا يكاد يدانيه مقاماً : « محصولات جيدة .. محصولات جيدة ! » .. وخطا في اعتداد عبر البوابة وبهت البواب لكل ما رآه فقال لوانغ لنغ :

« هلا تكرمت بالجلوس في غرفتي المتواضعة ريثما أعلن عن مقدم زوجتك وابنك في داخل الدار » ، ووقف وانغ لنغ يراقبهما وهما يجتازان البهو. زوجته وابنه يحملان هدايا لسيدة دار كبيرة .. كان في كل هذا ما يشرفه . وعندما غابا عن ناظريه تماماً ــ بعد أن غابت زوجته والبواب في ذلك التيه الطويل من الأبهاء ، البهو في داخل البهو ، واختفيا في النهاية عن بصره تماماً ــ دخل مسكن البواب وهناك تقبل كأمر طبيعي ــ المقعد المشرف الذي دعته إليه زوجة البواب الشوهاء من أثر الجدري ، إلى يسار المائدة ، في وسط الغرفة . وقبل ــ بمجرد انحناءة خفيفة من رأسه ــ كوب الشاي التي قدمتها له المرأة . فوضعها أمامه ولم يحتس منها ، وكأن ما بها لم يكن مصنوعاً من أوراق شاي تليق جودتها بمقامه .

وخيل إليه أن وقتاً طويلاً أنقضى قبل أن عاد البواب يقود المرأة والطفل وتفرس وانغ لنغ في وجه المرأة لحظة . محاولاً ان يعرف هل سارت الأمور على ما يرام ، فقد تعلم ان يستشف التغيرات الطفيفة التي تطرأ على ذلك الوجه المريض الجامد ، والتي لم تكن تبتدىء له من قبل . ولمح إمارات الرضى البالغ على وجهها فإذا به يفقد الصبر على سماع روايتها لما حدث في أبهاء الحريم التي لم يستطيع الدخول إليها ، بعد ان لم يعد له شأن هناك . ومن ثم فقد استحث زوجته على الانصراف ، بعد انحناءات خفيفة للبواب وزوجته ذات الوجه المجدور ، وتناول بين ذراعيه الطفل الذي كان نائماً ، مكوماً في معطفه الجديد . والتفت إلى زوجته ــ التي كانت تتبعه ــ وصاح من فوق أحد كتفيه :

« وبعد ؟ » وشعر للمرة الأولى بالضيق لبطئها ، فاقتربت قليلاً منه ، وهمست تقول : « أعتقد – لو أنني سئلت – أنهم هذا العام يشعرون بشيء من العسر في ذلك البيت » .

وكانت تتكلم بلهجة المفجوع ، كما يتحدث المرء عن آلهة أصيبت بالمجاعة فسألها وانغ لنغ مستحثاً : « ماذا تعنين ؟ » ولكنها لم تشأ أن تسرع في الإجابة فإن الكلمات كانت بالنسبة لها أشياء تلتقط واحدة بعد الأخرى لتطلق بعناء ثم قالت : « وجدت السيدة العريقة ترتدي في هذا العام عين الثوب الذي كانت ترتديه في العام الماضي ، وهذا ما لم أره من قبل . كذلك الجواري لم تحظ واحدة منهن بمعطف جديد كمعطفي » .. ثم عادت تقول بعد برهة : « أما ابننا فلم يكن هناك ، حتى أبناء محظيات السيد العريق نفسه ، من يضارعه جمالاً أو أناقة » .

وشاعت في وجهه ابتسامة بطيئة ، فضحك وانغ لنغ عالياً ، وضم طفله لصدره بحنان . فكم أحسن صنعاً .. كم أحسن صنعاً !.. ثم تملكه الخوف وهو في نشوته . ما أحمق ما كان يفعل إذ يمشي هكذا تحت سماء مكشوفة ، حاملاً طفلاً ذكراً جميلاً كابنه ، معرضاً إياه لأن تراه أية روح شريرة قد يتصادف مرورها في الهواء . وأسرع إلى فتح معطفه ، ودس رأس الطفل في صدره ، ثم قال بصوت عال .

من دواعي الأسف ان يكون طفلنا أنثى لا يريدها أحد ، فضلاً عن ان بثور الجدري تكسو وجهها !.. فلنبتهل إلى الآلهة ان تميتها !.

وبادرت زوجته قائلة بأسرع ما استطاعت وهي تدرك في إبهام ما فعلا : « أجل .. أجل ! » .

وإذ ارتاح وانغ لنغ لتلك الاحتياطات التي اتخذها ، عاد يستدرج زوجته للحديث قائلاً : « هل عرفت لماذا أصبحوا أفقر مما كانوا ؟ » .

— لم تسنح لي إلا لحظة عابرة تحدثت فيها سراً مع الطاهية التي كنت أعمل تحت إمرتها ، فقالت لي « لن يستطيع هذا البيت ان يظل قائماً والسادة الصغار جميعاً — وهم خمسة — يبددون المال كأنه ماء مراق في أنحاء غريبة ، ويبعثون إلينا هنا بالنساء — امرأة تلو الأخرى — بعد ان يبرموا بهن ، كما ان السيد الكبير لا يزال يقيم في البيت ويضيف في كل عام عشيقة او عشيقتين ، والسيدة الكبيرة تستهلك من الأفيون يومياً ما يكفي لملء حذاءين بالذهب ! » .

فتمتم وانغ لنغ يقول مأخوذاً : « أيفعلون ذلك حقاً ؟ » وواصلت أولان حديثها « ثم إن الابنة الثالثة ستتزوج في الربيع ، وصداقها يعادل فدية امير ، ويكفي لشراء منصب رسمي في مدينة كبيرة . امـــا ملابسها ، فلن ترتضي لصنعها سوى أفخر الأقمشة الحريرية الموشاة بأشكــال تنسج خصيصاً لها في سوشاو وهنجشاو وستستقدم حائكاً من شنغهاي ومعه حاشية من المساعدين ، لئلا تكون ملابسها أقدم طراز من ملابس النسوة في الأصقاع الأجنبية ! » .

وتملك وانغ لنغ شعور من الإعجاب المقترن بالفزع من مثل هذا الإهراق للثروة وتساءل : « ومن الذي ستنزف إليه بعد كل هذه النفقات » : فأجابت المرأة ستتزوج من النجل الثاني لأحد قضاة شنغهاي » . ثم أردفت بعد لحظة صمت طويل « لابد أنهم يزدادون فقراً ، لأن السيدة الكبيرة اخبرتني بنفسها انهم يرغبون في بيع ارض ، بعضاً من الأرض التي تقع في جنوب البيت ، خارج سور المدينة مباشرة ، حيث اعتادوا زراعة الأرز في كل عام . لانها ارض طيبة . يسهل إغراقها بالماء من الخندق المحيط بالسور » .

فردد وانغ لنغ قولها في اقتناع : « يبيعون أرضهم !.. إذن فهم حقاً يتردون في مهاوي الفقر ، إذ ان الأرض هي لحم المرء ودمه ! » .

وفكر برهة . ثم خامرته فجأة فكرة ، فضرب جانب جبهتــه بكفه ، واستدار نحو المرأة صائحاً « كيف لم أفكر في هـــذا ؟.. سنشتري نحن تلك الأرض ! » .

وحملق كل منهما في الآخر ، هو في اغتباط ، وهي في ذهـــول . وقالت متلعثمة : « ولكن الأرض .. الأرض » .. فصاح بصوت متعال : « سأشتريها، سأشتريها من بيت هوانغ الكبير ! » . وقالت في استغراق : « إنها بعيدة ، وسيتحتم علينا ان نسير إلى الضحى لكي نصل إليها » فعاد يزدد في إصرار، كطفل يكرر طلباً على امه وهي تنهره : سأشتريها !.. سأشتري الأرض ! » .

فقالت وهي تحاول تهدئة ثائرته : « من البديع ان تشتري أرضاً .. مـن المؤكد انه أفضل من وضع المال في جدار مشيد من الطين.ولكن لماذا لاتشتري قطعة من أرض عمك ؟.. إنه يتوق لبيع تلك القطعة القريبة من الحقل الغربي الذي نملكه الآن ! » .

فأجاب وانغ لنغ بصوت عال : لست أريد شراء أرض عمي .. لا أقبلها ، فقد كان يعصر منها المحصولات عصراً – بطريقة أو أخرى – لعشرين عاماً ، دون أن يضع فيها قطعة من السماد أو من كسب الفول .. إن تربتهـــا أشبه بالجير . كلا بل سأشتري أرض هوانغ ! » .

ولفظ « أرض هوانغ » ببساطة ، وكأنه يقول « أرض تشينغ » ، تشينغ جاره الفلاح لسوف يصبح أكثر من ند لهؤلاء الذين يسكنون البيت الكبير المتلاف الأحمق . وسوف يذهب إليهم والفضة في يده ، فيقول ببساطة : «عندي مال ، فما ثمن تلك الأرض التي ترغبون بيعها ؟ » . وتخيل نفسه واقفـاً امام السيد الكبير ، وتوهم أنه يسمع نفسه يقول لوكيل السيد الكبير : « اعتبراني كأي إنسان آخر . ما هو السعر المناسب ؟.. إنه في يدي ! » .

ورأى بعين الخيال زوجته التي كانت جارية في مطبخ الأسرة المتعجرفة ، قد أصبحت زوجة رجل امتلك قطعة من الأرض التي برحت أجيالاً تمنع العظمة لآل هوانغ . وكأنمـــا كانت تشعر بمجرى تفكيره ، إذ كفت بغتة عـن الاعتراض ، وقالت :

اشترها إذن . فإن الأرض التي تزرع أرزاً أرض طيبة على أية حـــال . وهي قريبة من الخندق ، ويمكننا الحصول على المـاء في كل عام . هـذا أمر أكيد !

ومرة أخرى عادت الابتسامة البطيئة تشيع في وجهها .. تلك الابتسامة التي لم تبعث الوميض مرة في عينيها المتبلدتين السوداوين الضيقتين . وقالت بعد فترة طويلة .

ـ في مثل هذا الوقت من العام الماضي كنت جارية في ذلك البيت !

وسارا معاً في صمت ، وقد تملكتهما هذه الفكرة !

الفصل السادس

كانت قطعة الارض هذه ، التي اصبح وانغ لنغ مالكاً لها ، حدثاً هاماً غير كثيراً من حياته ، ففي بداية الأمر بعد ان أخرج الفضة من مخبئها في الجدار وأخذها إلى البيت الكبير ، وبعد ان انقضى شرف التحدث إلى السيد الكبير حديث الند للند تملكه انقباض يكاد يشبه الندم . وعندما فكر في الفجوة التي كانت في الجدار وقد أصبحت خاوية بعد ان كانت مملوءة بالفضـــة التي لم يكن يحتاج إلى استخدامها ، ود لو أنه استرد فضته . فهـذه الأرض ، مهما يكن من أمر ، ستشجمه ساعات طويلة من الكد والكدح ، مرة أخرى . فضلاً عن أنها كانت كما قالتْ أولا بعيدة بأكثر من « لي » — وهـو ثلث الميل – عن داره .. ثم إن شراءها لم يكن مجللاً بالمجد الذي كان يتوقعه . فلقـــد ذهب إلى البيت الكبير مبكراً جداً ، وكان السيد الكبير لا يزال نائماً . صحيح أن الوقت كان ظهراً ، ولكنه عندما قال بصوت عال : « أبلغ صاحب المجد الكبير انني جئت لعمل هام.. قل له إن الأمر يتعلق بالمال ! » أجابه البواب . « إن جميـع أموال العالم لن تغريني بإيقاظ النمر العجوز ، فهو نائم مع محظيته الجديـــدة « زهرة الخوخ » ، التي اقتناها منذ ثلاثة أيام فقط .. لن أجازف بحياتي وأوقظه !».

وأضاف البواب يقول بشيء من الخبث ، وهو يشد شعيرات شامته : « ولا تظن أن الفضةَ ستوقظه ، فقد اعتاد منذ نعومة أظفاره أن تكون الفضة بين يديه ! » .

وانتهى الأمر بعقد الصفقة مع وكيل السيد ، وهو وَغد مداهن ، ثقلت يداه من كثرة المال الذي علق بهما خـلال الصفقات ، ولهذا كان يتراءى لوانغ لنغ

ـ أحياناً ـ ان الفضة كانت اكبر قيمة من الأرض ، ففي وسع الإنسان ان يرى بريقها .

ولكن الأرض اصبحت ملكه مع كل هذا ! . وذات يوم لم تشرق له شمس ، في ثاني شهور العام الجديد ليتفقدها ولم يكن أحد قد عرف بعد انهـا أصبحت ملكاً له ، فانطلق بمفرده ليلقي عليها نظرة ، وكانت قطعة مستطيلة من الطين الأسود السميك ، ممتدة بجوار الخندق المحيط بسور المدينة ، وأخـــذ يقيسها بعناية .. ثلاثمائة خطوة طولاً ، ومائة وعشرون عرضاً . وكانت هناك أربعة أحجار لا تزال قائمة تعين أركان حدود الأرض.. أحجار نقش عليها شعار بيت هوانغ .. ينبغي له ان يغير هذه الأحجار . فليقتلعها ـ فيا بعد ـ ويضع غيرها تحمل اسمه .. ولكن ليس بعد، فهو لم يكن مستعداً لأن يعرف الناس انه اصبح من الثراء بدرجة ان يشتري أرضاً من البيت الكبير ، ولكن فيا بعد ، عندما يصبح أكثر ثراء، وبالتالي غيرعابىء بما يفعل وفيا كان يتأمل الأرض المستطيلة، راح يقول في نفسه . « إن هذه القبضة من الأرض لا تعني شيئاً لأهـل البيت الكبير ، ولكنها تعني الكثير لي أنا » .

ثم تحول تفكيره، فامتلأ سخطاً على نفسه إذ تلوح له قطعة صغيرة من الأرض بمثل هذه الأهمية. ألم ير بعينيه كيف تناول الوكيل الفضة في غير اكتراث عندما صبها أمامه في زهو ، وكيف قال الوكيل « هذا ـ على أي حال ـ يكفي بضعة أيام لأفيون السيدة الكبيرة » ؟ !

وخيل إليه فجأة أن الفارق الكبير الذي لم يزل قائماً بينه وبين البيت الكبير ، لا يمكن تخطيه ، كالخندق المترع بالماء أمامه ، وفي ارتفاع السور العالي القائم وراءه والممتد أمامه مستقيماً ووعراً . ثم تملكه عزم غاضب ، وقال في نفسه إنه سيعاود ملء الفجوة التي في جدار غرفته بالفضة مرة بعد أخرى ، إلى أن يشتري من بيت هوانغ من الأرض مـــا يكفي لأن يجعل هذه القطعة من الأرض لا تزيد في نظره على بوصة واحدة .

وهكذا اصبحت هذه القطعة من الأرض بالنسبة لوانغ لنغ بمثابة رمز .

وأقبل الربيع تصحبه رياح عاصفة وسحب مثلثة مشحونة بالمطر. وتحولت أيام الشتاء التي كان وانغ لنغ فيها أشبه بالمتعطل، فأصبحت أياماً طويلة من العمل الشاق في أرضه . واصبح الشيخ يرعى الطفل ، بينما اشتركت المرأة مع الرجل في العمل من الفجر حتى يدهم الغروب الحقول .

وعندما لاحظ وانغ لنغ أن امرأته اصبحت حاملا مرة أخرى ، كان اول ما خامره هو شعور بالضيق من انها لن تقدر على العمل في موسم الحصاد . فصرخ فيها وقد أثاره الارهاق « إذن فقد اخترت هذا الوقت لـكي تلدي من جديد.. أليس كذلك ؟ » . فأجابت بشجاعة : « إنها مسألة هينة في هذه المرة .. فالمرة الأولى هي وحدها العسيرة القاسية ! » .

وفيما عدا هذا ، لم يدر بينهما حديث عن الطفل الثاني منذ اللحظة التي لاحظ فيها انتفاخ بطنها ، حتى حل اليوم المنتظر في الخريف ، إذ ألقت الفأس ذات صباح ، وتسللت إلى البيت . ولم يعد إلى الدار في ذلك اليوم ، ولو ليتنـاول وجبة الغذاء ، لأن السماء كانت ملبدة بالغيوم المرعدة ، والأرز قـد استكمل نضجه وحان موعد حصاده وقبل ان تغرب الشمس ، كانت المرأة بجواره مرة اخرى ، وقد انبسط جسمها ونحل عودها ، ولكن وجهها كان صامتاً ، لم يبد عليه الألم . وأوشك ان يقول : كفاك ما تحملت اليوم ، فاذهبي وارقدي في فراشك ! » .

ولكن أوجاع جسمه المنهوك جعلته قاسيا ، فقال لنفسه إنه قاسي من مشقة العمل في ذلك اليوم مثل ما عانت هي من آلام الوضع . ولهذا اكتفى بسؤالها بين ضربات منجله : «أهو ذكر ام انثى؟» ، فأجابت بهدوء: «إنه غلام آخر».

ولم يتبادلا اية كلمة بعد ذلك ، ولكنه كان مسروراً . وبدا له ان الانحناء والاعتدال المستمرين أقل إيلاما ، فظل يعمل إلى ان هلّ القمر من وراء سحب قرمزية اللون ، فتحولا عن الحقل وعادا ادراجهما إلى البيت .

وبعد ان تناول وانغ لنغ طعامه ، وغسل بالماء البارد جسده الذي لوحته الشمس ، ومضمض فاه بالشاي ، دخل الغرفـة ليلقي نظرة على وليده الثاني . وكانت اولان قد رقدت على الفراش ، بعد طهو الطعام ، وأرقدت الطفـــل بجوارها .. طفلاً بدينا ، هادئا ، لا بأس به ، ولكنه أقل حجما من الطفـل الأول . وتأمله وانغ لنغ، ثم عاد إلى الغرفة الوسطى مغتبطا .. ها هو ذا طفل آخر ، وسيتبعه ثان وثالث .. ، طفل في كل عـــام ، وليس للمرء ان يحمل هم البيض الأحمر في كل عام ، فحسبه أن فعل هذا في المرة الأولى .. ابناء في كل عام ، ألم يكن البيت مفعماً بحسن الحظ .. إن هذه المرأه لم تجلب إليه سوى سوى الحظ السعيد .. وصاح محدثاً والده :

« والان أيها الشيخ ، وقد أصبح لك حفيد آخر ، فسنضطر إلى أن نضع الحفيد الأكبر في فراشك ! » .

واغتبط الشيخ ، فقد كان يرجو من زمن طويل أن ينام الطفل في فراشه ، وأن يدفىء بدنه العجوز المرتعش ، بفضل عظامه الناشئة ودمه ، ولكن الطفل كان يأبى أن يفارظ أمه .

أما الآن بعد أن أصبح يسير مترنحاً على قدمين لم تزالا غـــير ثابتتين بسبب طفولته ، فقد أخذ يتفرس في الطفل الجديد الراقد بجوار أمـه ، وكأنما أدرك بعيليه المتزنتي النظرات أن طفلاً آخر قد احتل مكانه ، فأسلم نفسه ليوضع في فراش جده دون ما اعتراض .

الفصل السابع

وشرع عم وانغ لنغ ـ في ذلك الوقت ـ في ان يكون مصدراً للمتاعب التي كان وانغ لنغ يتوقعها منه منذ البداية . كان هـــذا العم هو الأخ الأصغر لوالد وانغ لنغ ، وكان يحق له ـ بحكم صلة القرابة ـ أن يعتمد على وانغ لنغ إذا لم يجد كفايته ـ هو وأسرته ـ من العيش. وعندما كان وانغ لنغ ووالده فقيرين يعيشان على الكفاف، كان هذا العم ينبش في أرضه ليجمع ما يغذيه هو وزوجته وأولاده السبعة . ولكن أحداً منهم ما كان ليمارس عملاً إذا شبع . فكانت الزوجة تأبى أن تحرك ساكناً لكنس أرض كوخهم ، وكان الأطفال لا يجشمون أنفسهم عناء غسل آثار الطعام عن وجوههم . وكان من المخزي ان بناته وقد أخذن في النمو حتى كدن يبلغن سن الزواج بقين يتسكعن في شارع القرية ، ويتركن شعورهن الخشنة ، التي أصلتها الشمس بشواظها ، دون ما ترجيل . بل إنهن كن يتحدثن أحياناً مع الرجال وقد قابل وانغ لنغ ذات يوم كبرى بنات عمه على هـــذه الحال ، فاستبد به الغضب من هذا العار الذي لحق بالأسرة ، لدرجة أنه ذهب إلى امرأة عمه ، وقال لها : «من ذا الذى سيتزوج من فتاة كابنة عمي ، يستطيع أي رجل أن يراها . لقد أصبحت في سن الزواج منذ ثلاثة أعوام ، ومع هذا فلا تزال تتسكع في الطرقات ، واليوم رأيت جلفاً من المتسكعين يضع يده على ذراعها في عرض الطريق ، فلم ترد عليه إلا بضحكة خليعة ! » .

ولم يكن في جسم امرأة عمه عضو نشيط غير لسانها ، فأطلقته على وانغ لنغ قائلة : « حسن ، ومن الذي سيدفع صداقها ونفقات زفافهـا ، وأجر وسيط وسيط الزواج ؟ .. جميل جداً أن يتكلم من يملكون من الأرض ما لا يدرون

ما يفعلون به ، ومن يستطيعون فوق ذلك أن يمضوا ويشتروا المزيد من الأرض من الأسرات الكبيرة ، بما لديهم من فضة مدخرة ، ولكن عمك رجل سيىء الحظ .. وقد كان كذلك منذ البداية . إن طالعه سيىء دون أن يكون له ذنب في هذا ، فإن هي إلا مشيئة السماء ، وحينما يستطيع غيره أن ينتج حبوباً وفيرة ، فإن بذوره هو تموت في الأرض ولا تنبت غير العشب ، بالرغم مما يبذله من جهد يكاد يقصم ظهره ! ».

وانفجرت تبكي بصوت عال ، وانهمرت دموعها سهلة مدرارة وأخذت تفتعل نوبة من الهياج ، فانتزعت عقدة شعرها من مؤخرة رأسها ، وجذبت الشعر حول وجهها ، وأخذت تولول وتصيح كيفما شاءت : « آه ، إنك لا تعرف ما يصيب المرء إذا كان طالعه سيئاً ! .. بينما تنتج حقول الآخرين أرزاً وقمحاً طيبين ، لا ينبت حقلنا غير الأعشاب .. وبينما تبقي بيوت غيرنا مائة عام ، تجد الأرض ذاتها تهتز تحت بيتنا حتى تتصدع جدرانه .. وبينما تلد النساء الأخريات ذكوراً ألد أنا أنثى برغم احتواء بطني في فترة الحمل على جنين ذكر . يا له من طالع سيىء ! » .

وأخذت تولول بصوت عال ، فهرعت جاراتها إلى خارج بيوتهن ليتفرجن ويسمعن ، ولكن وانغ لنغ ظل صامداً ، عازماً على إتمام ما جاء من أجله فقال : « ومع ذلك ، وبالرغم من أنه ليس من شأني أن أنصح شقيق والدي ، أقول إنه من الخير للفتاة أن تتزوج وهي لا تزال بعد عذراء ، فمن الذي سمع عن كلبة فاجرة تركت تتسكع في الشوارع دون أن تلد جرواً ؟! » .

وإذا انتهى من هذا الحديث الصريح ، انصرف إلى بيته تاركاً زوجة عمه تصرخ . وكان قد بيت العزم على أن يشتري المزيد من بيت هوانغ لنغ في هذا العام وعلى أن يواصل شراء الأرض عاماً بعد عام ما وسعه ذلك .. كما كان يحلم بإضافة غرفة جديدة إلى داره ..

ولقد أغضبه أنه في الوقت الذي أخذ هو وأبناؤه يؤلفون أسرة من ملاك

الأرض ، إذا ببنات عمه اللواتي يحملن اسم الأسرة مثله يتسكعن في الطرقات وفق هواهن .

وفي اليوم التالي جاء عمه إلى الحقل الذي كان يعمل فيه . ولم تكن أولان هناك ، فقد انقضت عشرة شهور قمرية منذ ولد الطفل الثاني ، وأصبحت الآن على وشك وضع المولود الثالث . ولم تكن في هذه المرة على ما يرام ، فلم تأت إلى الحقول منذ أيام ، ومن ثم كان وانغ لنغ يعمل وحيداً .. وتقدم عمه يسير ببطء ، على أحد الجمدات المحفورة في الأرض ، وملابسه كعهدها دائماً ، غير مقفلة بأزرارها كما يجب ، بل ملمومة معاً وممسكة بحزامه في غير إحكام ، فكان يبدو وكأن أي لفحة من الهواء كفيلة بأن تعريه فجأة ..

وسار إلى حيث كان وانغ لنغ ، ووقف صامتاً بينما كان وانغ لنغ ، يعزق بفأسه خطاً ضيقاً بجوار الفول العريض الذي كان يزرعه ، وأخيراً قال وانغ لنغ بشيء من الخبث ، دون أن يرفع نظره إليه :

« أرجو المعذرة يا عمي لعدم توقفي عن العمل ، فإن هـذا القول يحتاج ـ كما تعلم ـ الى أن يفلح مرتين أو ثلاثاً ، إذا أريد له أن يثمر وأظنك قد انتهيت بلا شك من زراعة فولك ، أما أنا فرجل بطيء جداً .. فلاح ضعيف.. لا أنتهي من عملي قط في وقت يتيح لي أن أنعم بشيء من الراحة » .

وأدرك عمه تماما خبث وانغ لنغ ، ولكنه رد عليـه في لين : « إنني رجل سيىء الطالع ، فلم تنبت لي في هذا العام غير واحدة من كل عشرين فولة .. لقد جاءت هذه الزراعة ضعيفة إلى درجة لا تسمح لي بإلقاء فأسي جانبا لأستريح ، وسنضطر الى شراء الفول هذا العام إذا شئنا أن نأكله ! » .

وتنهد الرجل في أسى ، ولكن وانغ لنغ زاد قلبه قساوة ، إذ أدرك أن عمه إنما جاء يطلب شيئا منه ، فأعمل فأسه في الأرض بحركة طويلة منتظمة ، وأخذ يكسر بعناية كبيرة كل قطعة متيبسة في التربة الناعمة المفلوحة خير فلاحة .

وكانت نبتات الفول تستوي على سيقانها مستقيمة ، وافرة ، ترسل ظلالاً صغيرة واضحة تحت أشعة الشمس ، وأخيراً عاد العم يقول :

« لقد أخبرتني تلك التي في بيتي عن اهتمامك بجاريتي الكبرى غير الجديرة بالاهتمام ، وإنك لعلى حق في كل ماقلت ، فإن عقلك يفوق سنك ، وينبغي لتلك الفتاة أن تتزوج في الخامسة عشرة ، وكان من الممكن أن تنجب أطفالاً خلال السنوات الثلاث أو الأربع الماضية ، واني لفي جزع مستمر ، خشية ان تحمل من كل كلب متبربر ، فتجلب العار لي ولإسمنا . تصور حدثا كهذا في أسرتنا المحترمة ، يقع لي أنا شقيق والدك ! » .

فضرب وانغ لنغ الأرض بفأسه بقوة . كان يود أن يتكلم بصراحة . كان يود أن يقول لعمه : « إذن فلماذا لا تسوسها بحزم .. لماذا لا تحجزها في البيت في أدب واحتشام ، وتحملها على أن تكنس وتنظف وتطهو وتصنع الثياب للأسرة ؟ » ..

ولكن المرء لا يمكنه أن يوجه أقوالا كهذه لمن يكبرونه سناً ، ولهذا لاذ بالصمت وأخذ يعمل بفأسه حول نبتة صغيرة ، وانتظر .. فاستأنف عمه الحديث قائلاً في أسى : « لو كنت من حسن الطالع بحيث تزوجت امرأة كالتي تزوجها أبوك ، امرأة تستطيع أن تعمل وان تنجب اولاداً في الوقت ذاته ، وكما تفعل امرأتك هي الأخرى ، بدلا من امرأة كزوجتي لا تربي سوى لحمها ، ولا تنجب غير اناث وذلك الابن الواحد الذي ولدته لي ، والذي هو أقل من ذكر بسبب بلادته .. لكان من المحتمل ان اصبح غنياً مثلك ، ولكنت - إذ ذاك - قد اشركتك ثروتي عن طيب خاطر ، ولزوجت بناتك من رجال صالحين ، والحقت ابنك بمتجر يعمل صبياً فيه ودفعت عنه قيمة الضمان راضيا .. ولسرني ان اصلح لك بيتك ، ولأطعمتك من اطيب ما لديّ من طعام ، انت ووالدك واطفالك ، لأننا من دم واحد ! »

فأجاب وانغ لنغ بإيجاز : « انتِ تعرف انني لست غنيا ، فعندي خمسة

أفواه يجب أن أطعمها ، وأبي طاعن في السن ولا يعمل ، ولكنه لا يزال يأكل ، وهناك فم آخر قد يولد في هذه اللحظة في بيتي على ما أعلم ! » .

فقال عمه بغيظ : « إنك غني .. إنك غني ! .. لقد اشتريت الأرض من البيت الكبير ، بثمن لا يعلم غير الآلهة مدى فداحته .. فهل في القرية من كان يقدر أن يفعل هذا سواك ! » . واستثار قوله غضب وانغ لنغ ، فألقى بفأسه ، وصاح بغتة وهو يحملق في عمه : « إذا كنت أمتلك حفنة من الفضة ، فذلك لأني أكد وزوجتي تكدح ، ولسنا — كما يفعل البعض — نجلس في كسل إلى مائدة قمار ، أو نثرثر على أعتاب لم تكنس قط ، تاركين الحقول فريسة للأعشاب ، وأولادنا يتضورون جوعاً » .

وتصاعد الدم في وجه عمه الأصفر ، واندفع صوب ابن أخيه وصفعه على خديه بشدة ، وصاح : « إليك جزاء التحدث هكذا لمن هو من جيل أبيك !! أليس لك دين ولا خلق حتى تكون قليل الأدب إلى هذا الحد ؟ .. ألم تسمع أن التعاليم المقدسة أوصت بأنه لا يجوز لإنسان أن ينتقد من هو أكبر منه سناً ؟ ».

ووقف وانغ لنغ عابساً ، جامداً ، وقد أدرك خطأه ، ولكن قلبه كان مترعاً بالغضب على هذا الرجل الذي كان عمه ..

وصاح عمه بصوت عال يتهدج غضباً : « سأروي كلماتك للقرية بأسرها .. فبالأمس تهجمت على بيتي وصحت بصوت عــــال في الشوارع بأن ابنتي ليست عذراء ، واليوم تؤنبني أنا الذي يجب أن يكون لك بمثابة الأب إذا مات أبوك. إني لأفضّل أن تكون بناتي جميعهن غير عذارى عن أن أسمع من واحدة منهن مثل هذا الكلام » وراح يكرر المرة بعد الأخرى : « سأنبيء القرية كلهــــا .. سأروي هذا للقرية » . إلى أن قال له وانغ لنغ على كره منه : « وماذا تريدني أن أفعل ؟ » . فقد مس كبرياءه أن هذه المسألة قد تذاع في القرية ، فهي — على أية حال — من لحمه ودمه ، وتغير عمه في الحال ، فذهب غضبه وابتسم . ثم وضع يده على ذراع وانغ لنغ ، وقال برفق : « آه ، إنني أعرفك .. إنك لفتى

طيب .. فتى أصيل .. إن عمك الشيخ يعرفك .. فأنت ابني .. إن قليلاً من الفضة في هذه اليد الفقيرة العجوز يابني .. عشر قطع أو حتى تسع فقط، تمكنني من البدء في تدبيرات مع وسيط زواج ، من أجل الجارية ابنتي ! .. أجـــل ، إنك على حق ! .. لقد آن لها أن تتزوج ! » . وتنهد وهز رأسه ، ونظر إلى السماء في خشوع ..

فالتقط وانغ لنغ فأسه ، ثم رمى بها مرة أخرى الى الأرض ،وقال بإيجاز: « تعال الى المنزل ، فلست أحمل الفضة معي كما يفعل الأمراء ! » . وسار متقدماً عمه ، وهو يشعر بغيظ حال بينـه وبين الكلام ، لأن بعض النقود الفضية التي كان يفكر في أن يشتري بها المزيد من الأرض سوف ينتقل الآن إلى كف عمه ، ليتسرب منها الى مائدة القمار قبل حلول الليل ، ودخل البيت بخطى واسعة ، منحياً عن طريقه ولديه الصغيرين اللذين كانا يلعبان عاريين ـ في أشعة الشمس ـ عند عتبة الباب فناداهما عمه ، في بشاشة وطيبة ، وأخرج من ثناياثيابه قطعة من العملة النحاسية لكل منهما . وضم الجسدين البدينين الصغيرين إليه ، ووضع أنفه على عنقيهما الناعمين ، وأخذ يشم رائحة لحمهما الذي لوحته الشمس ، وقال في حنان وافر ، وهو يضم كلاً منهما بأحد ذراعيه : « آه ، إنكما رجلان صغيران ! .. »

غير أن وانغ لنغ لم يتريث ، بل دخل الغرفة التي دخل الغرفة التي ينام فيها مع زوجته وطفلها الأخير ، وكانت حالكة الظلام ، لاسيما لأنه كان قادماً من الخارج حيث كانت الشمس ساطعة . ولولا شريط النور المنساب من الكوة لما استطاع أن يرى شيئاً . ولكن رائحة الدم الدافيء ـ التي يذكرها جيداً ـ ملأت خياشيمه ، فصاح بحدة يقول : « ماذا هناك ؟ .. هل حان وقت مخاضك؟ وأجابه صوت زوجته من الفراش ، أضعف مما عهده ، في أي وقت تكلمت فيه: « لقد انتهى الأمر . وهي ـ في هذه المرة ـ ليست سوى جارية لا تستحق الذكر » .

وجمد وانغ لنغ ، وقد دهمه شعور التشاؤم .. بنت ؟ .. إن بنتاً كانت سبب كل هذه المتاعب في بيت عمه ، وها هي بنت تولد في داره هو الآخر ! .

وذهب ـ دون أن يعقب بكلمة ـ الى الفجوة التي في الجدار وتحسس البقعة الخشنة التي كانت ترشد الى المخبأ ، ثم نزع قطعة الطين، وعبث في الكومة الصغيرة من النقود الفضية خلفها وأحصى تسع قطع ، وسألته زوجته فجأة في الظلام : « لماذا تخرج الفضة » . فأجاب بإيجاز : « انني مضطر الى اقراضها لعمي » .

ولم تبادر الزوجة بالرد في بادىء الأمر ، ولكنها لم تلبث أن قالت في لهجتها الواضحة الرصينة : « يحسن بك ألا تقول « إقراضاً » فليس هنـاك إقراض في ذلك البيت ، بل هناك المنح فقط » .

فأجاب وانغ لنغ بمرارة : « أعرف هذا ، وأنا أشعر كأنني اقتطع من لحمي لأعطيه لا لشيء إلا لأننا من دم واحد ! » .

وخرج بعد ذلك الى عتبة الباب، فدفع النقود الى عمه ، وعاد الى الحقـــل بسرعة . وهناك انكب على العمل وكأنه يوشك أن يقتلع التربة من أساسها . لم يكن يفكر ـ إذ ذاك ـ في شيء غير النقود الفضية ، فقد تمثلها تنسكب بغير اكتراث على مائدة القمار ، ورآها تجتاحها يد أحد الكسالى ، وهي فضته .. الفضة التي جمعها بكل عناء من ثمار حقوله ، لينفقها ثانية في شراء مزيد من الأرض لنفسه ..

الفصل الثامن

وبدا كأنما الآلهة إذا تنكرت لامرىء يوماً ، فأنها لا تعود لتحفل به مرة أخرى ، فالأمطار - التي كان ينبغي أن تهطل في أوائل الصيف - امتنعت ، وظلت السماء يوماً بعد يوم تتألق بإشراق متجدد وغير عابىء بشيء فكأنما الأرض المشققة الجائعة لا وزن لها لديها .. ومن مطلع فجر إلى مطلع فجر لم تظهر سحابة واحدة . وفي الليل كانت النجوم تبدو بجمالها - وهي معلقة في السماء - ذهبية وقاسية !

وجفت الحقول وتشققت بالرغم من استماتة وانغ لنغ في فلاحتها ، فإذا بسيقان القمح الناشئة - التي شبت ونمت في فتوة عند اقتراب الربيع ، وتأهبت رؤوسها للامتلاء بالحبوب - تكف عن النمو عندما لم يأتها شيء لا من التربة ولا من السماء ، ووقفت في بادىء الأمر بلا حراك تحت الشمس ، ثم انكمشت واصفرت في النهاية ، وأصبحت حصاداً فارغاً . أما أحواض الأرز التي بذرها وانغ لنغ فقد أصبحت مربعات مصفرة على الأرض السمراء . وراح يحمل إليها الماء ، بعد ان يئس من القمح ، يوماً بعد يوم في الدلوين الخشبيين الثقيلين ، على طرفي قضيب من الغاب ارتكز على كتفيه .

ومع أن حزاً غائراً بدأ يظهر على لحم كتفه ، كما بدأ يتكون به « كاللو » في حجم السلطانية ، فإن المطر لم يهطل ..

وأخيراً جف الماء في البركة ، وأصبح قاعها كتلة من الطين ، بل حتى الماء الذي في البئر انخفض إلى حد حمل « أولان » على أن تقول له : « إذا كان لا بد للأطفال من أن يشربوا ، ولا بد للشيخ من أن يحصل على الماء الساخن ، فلا

مناص من أن يترك الزرع بلا ري. فأجاب وانغ لنغ في غيظ كاد يخنقه : «حسن» وإذا مات الزرع جوعاً فسوف يموتون هم أيضاً جوعاً » .. وكان من الصحيح أن حياتهم تعتمد على الأرض ..

ولم تنمو سوى قطعة الأرض الصغيرة المجاورة للخندق ، وذلك لأن وانغ لنغ حين رأى ـ في النهاية ـ أن الصيف أوشك أن ينصرم بغير أمطار ، ترك كل حقوله الأخرى ، وصار يقضي اليوم كله في هذه القطعة ، ينقل لها الماء من قاع الخندق ليصبه فوق التربة العطشى المنهوكة .. وفي هذا العام ، باع ـ لأول مرة ـ محصول قمحه بمجرد أن حصده من تلك القطعة الصغيرة من الأرض . وعندما شعر بالفضة في كفه ، شد قبضته عليها في تحد . وقال لنفسه إنه برغم الآلهة والجفاف سيفعل ما كان قد اعتزم فعله . لقد حطم جسده وأراق عرقه في سبيل هذه القبضة من الفضة ، وخليق به أن يفعل بها ما يشاء . وسارع إلى بيت هوانغ وقابل الموكل بالأرض هناك ، وقال له بلا مقدمات : « ما استطيع أن اشتري به الأرض الملاصقة لأرضي عند الخندق » .

وكان وانغ لنغ قد سمع ـ من هنا وهناك ـ أن هذا العام كان بالنسبة لبيت هوانغ العام الذي دفعهم الى حالة الفقر ، فلم تحظ السيدة الكبيرة بجرعتها كاملة من الأفيون لأيام كثيرة ، وأصبحت أشبه بالنمرة الجائعة ، حتى إنها كانت ترسل في طلب الوكيل كل يوم ، فتسبه وتلعنه وتلطم وجهه بمروحتها ، وتصيح فيه : « وبعد ؟ .. أفلم تبق لدينا أفدنة أخرى من الأرض ؟ حتى نفد صبره . بل لقد بلغ به الأمر انه تخلى عن الأموال التي كان يحتجزها لنفسه من الصفقات التي تعقدها الأسرة ، ثم كأنما هذا لم يكن كافياً ، فإذا بالسيد الكبير يتخذ لنفسه محظية أخرى .. جارية كانت ابنة جارية أثيرة لديه في شبابها ، ولكنها أصبحت زوجة لخادم في المنزل ، لأن رغبة السيد الكبير فيها خبت قبل أن يأخذها إلى غرفته لتكون محظية له .. ثم رأى الآن ابنة الجارية ـ التي لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة ـ فاشتعلت شهوته من جديد ، ذلك لأنه وقد اكتهل ،

واعتل وأثقلته السمنة ، بدا وكأنه يزداد اشتهاء للنساء الضئيلات الأجسام ، الصغيرات السن ، ولو كن في سن الطفولة ، حتى لا تتراخى شهوته ، وكما كان شأن السيدة الكبيرة مع أفيونها كذلك كان شأنه مع شهواته . ولم تكن ثمة حيلة لإفهامه أنه لم تعد ثمة أموال للأفراط المرصعة باليشب لمحظياته ، ولا ذهب يضعه في أيديهن الجميلة . لم يكن يفهم عبارة : « لا مال » وهو الذي لم يكن – طيلة عمره – يتكبد أكثر من أن يمد يده ليغترف من المال ما يشاء ، كلما شاء ..

ولما رأى السادة الصغار والديهم على هذا المنوال ، هزوا أكتافهم ، وقالوا إنه لا بد أن هناك ما يكفيهم طول حياتهم . ولم يتحدوا إلا في شيء واحد ، وكان ذلك هو تحقير الوكيل لسوء إدارته لأملاكهم ، إلى درجة أن الرجل الذي كان مــداهناً ، ناعماً ، يعيش في وفرة وبلهنية ، أصبح في هم وقلق مقيمين ، ونحل جسمه حتى بات جلده فضفاضاً وكأنه ثوب قديم ..

ولم ترسل السماء أمطاراً على حقول آل هوانغ ، فأجدبت هي الأخرى من المحصولات . ولهذا فعندما جاء وانغ لنغ للوكيل صائحاً : « معي فضة » ، كان كالشخص الذي يأتي للجائع قائلاً « عندي طعام » ..

وتشبث الوكيل بهذه الفرصة ، وبدلاً من المساومة وشرب الشاي – كما كان العهد من قبل – أخذ الرجلان يتحدثان همساً وباهتمام . وأسرع من أن يستطيعا أن ينطقا بالكلمات كاملة ، وانتقل المال من يد إلى الأخرى . وتم توقيع الأوراق وختمها . وأصبحت الأرض ملكاً لوانغ لنغ .

ولم يأبه وانغ لنغ – في هذه المرة ايضاً – بذهاب الفضة التي كانت بمثابة لحمه ودمه .. لقد اشترى بها منى فؤاده ، وأصبح يملك حقلاً شاسعــاً من الأرض الطيبة ، إذ كان الحقل الجديد في مساحته ضعف الحقل الأول . وكانت أهمية هذه الأرض بالنسبة له لا تكمن في خصوبة تربتها السوداء ، وإنما في كونهـــا

كانت يوماً ملكاً لأسرة امير .. وفي هذه المرة لم يخبر احد بما فعل .. ولا « اولان » ..

* * *

انقضى الشهر تلو الشهر ، وظلت الأمطار ضنينة ، وعندما اقترب الخريف تجمعت السحب على كره في السماء . سحب صغيرة خفيفة . وكان المرء يرى الرجال في شوارع القرية واقفين متطلعين ملهوفين ، وقد اتجهت وجوههم إلى السماء ، يتأملون في تفرس هذه السحابة وتلك ، ويتناقشون فيما بينهم أيها تحمل مطراً ، ولكن قبل ان تتجمع سحب كافية ، كانت الريح العاتية تهب من الشمال الغربي ، قادمة من الصحراء البعيدة فتزيح السحب ، كما يزيح المرء التراب عن الأرض بمكنسة . فإذا السماء خالية مقفرة . وأخذت الشمس تشرق بجلالها في كل صباح ، وتقطع شوطها حتى تغرب وحيدة في السماء .. والقمر يتألق في وقته ، وكأنه شمس صغيرة تضيء الكون من فرط صفاء السماء ..

وجمع وانغ لنغ من حقوله محصولا هزيلاً من الفول اليابس . وجنى من حقل القمح ـ الذي كان قد زرعه وهو قانط عندما اصفرت احواض الأرز وماتت قبل ان تقف السنابل على عيدانها في الحقل المروي ـ سنابل قصيرة سميكة ، تناثرت فيها الحبات . ولم تفقد حبة واحدة من الفول في اثناء الدرس ، فقد كلف الصبيين الصغيرين بغربلة تراب ارض الجرن بين اصابعهما ، بعد ان كان وزوجته قد دقا قرون الفول ، كما انه نزع عن القمح قشوره على ارض الغرفة الوسطى ، متطلعاً في حذر الى كل حبة تطايرت بعيداً . وعندما اراد ان ينحي العيدان جانباً لتكون وقوداً ، قالت له زوجته « لا تبددها في الحريق ، فإني اذكر عندما كنت طفلة في شانتونغ ان سنوات كهذه مرت بنا ، فكنا نطحن العيدان ونأكلها .. إنها خير من الحشائش » .

وبعد ان انتهت من كلامها ، خيم على الجميع ـ حتى الأطفال ـ صمت مطبق . التشاؤم يسود الناس في تلك الإيام الغريبة المشرقة ، التي خذلتهم فيها الأرض .

ولم يكن هناك من لم يعتره الخوف سوى الطفلة ، فقد كان ثديا امها الكبيرتان لا تزالان مملوءتين بما يكفي حاجتها . ولكن « أولان » كانت تدمدم وهي ترضع الطفلة : « كلي أيتها الغبية المسكينة ! .. كلي ، ما دام هناك ما يمكن أن تأكليه .. »

وكأن هذا الشر لم يكن كافياً ، فحملت « اولان » مرة أخرى ، وجف لبنها ، فامتلأ البيت الواجف بصوت طفلة لا تكف عن الصراخ طلباً للقوت ..

* * *

ولو ان انساناً سأل وانغ لنغ : « كيف كنتم تتغذون خلال ذلك الخريف؟» لأجاب بقوله : « لست أدري .. كنا نحصل على قليل من الغذاء من هنا وهناك» على أنه لم يكن هناك من يوجه إليه سؤالاً كهذا ، بل لم يكن هناك من يسأل غيره في الريف كله : « كيف تتغذون ؟ » وإنما كان كل لا يسأل إلا نفسه : « كيف أتغذى اليوم ؟ » بينما يتساءل الآباء : « كيف نتغذى نحن وأطفالنا ؟ ».

وظل وانغ لنغ يعني بثوره ما دام في وسعه ذلك . فكان يقدم له بعض التبن أو حفنة من عروق الفول إذا وجدت ، ثم أخذ يقطع له الأوراق من الشجر ، إلى أن حل الشتاء وسقطت الأوراق .. ولما لم تكن هناك أرض بحاجة إلى حرث ، ولما كانت الحبوب إذا بذرت لا تلبث أن تجف في الأرض ، ولما كانوا قد أكلوا كل ما كان لديهم من حبوب ، فقد اضطر ــ أخيراً ــ إلى إطلاق سراح الثور لكي يتصيد غذاءه بنفسه وأرسل الصبي الأكبر ليمتطي ظهره طول اليوم ، ويمسك بالحبل المرر في منخريه ، حتى لا يسرقه أحد . ولكنه لم يعد ــ في النهاية ــ يجسر حتى على هذا ، لئلا يتغلب رجال من القرية ــ أو حتى من جيرانه ــ على الصبي ويأخذوا الثور ليذبحوه ويقتاتوا بلحمه . لهذا احتجز الثور عند مدخل الدار ، الى ان ضعف ونحل وأصبح هيكلاً . على أنه لم يلبث أن جاء يوم لم يتبق فيه في الدار ارز ولا قمح ، فلم يكن هناك غير قليل من الفول

وكمية هزيلة من القمح وراح الثور يخور من شدة الجوع ، فقال الشيخ : «سنأ كل الثور بعد ذلك ».

وإذ ذاك صرخ وانغ لنغ ، إذ كان ذلك بالنسبة إليه كما لو قال انسان . « سنأ كل انساناً بعد ذلك » كان الثور رفيقه في الحقول ، وقد اعتاد في الماضي ان يمشي وراءه يمتدحه تارة ويلعنه أخرى بحسب مزاجه . وقد ألف الحيوان منذ صباه عندما اشتروه عجلاً صغيراً . فقال لأبيه : « كيف نأ كل الثور ؟ .. وكيف نحرث بعد ذلك ؟ » .

ولكن الشيخ اجابه في هدوء : إما حياتك وإما حياة الحيوان .. وإما حياة ابنك وإما حياة الثور ! .. واسهل على المرء ان يشتري ثوراً آخر من جديد ، من ان يشتري حياته من جديد » .

ولكن وانغ لنغ لم يذبح الثور في ذلك اليوم .. ومر اليوم التالي والذي بعده .. في طلب الغذاء ، ولا يريدون أن يهدأوا ، فنظرت « أولان » إلى زوجها تضرع إليه من اجل الأطفال ، فأدرك اخيراً انه لا معدي عن هذا الأمر ، ومن ثم قال بخشونة : « ليذبح الثور اذن، ولكن لا ينتظر أحد أن اذبحه بنفسي! » .

وذهب الى الغرفة التي ينام فيها ، واستلقى على الفراش ، ولف الغطاء حول رأسه لكيلا يسمع خوار الثور عند ذبحه .

وإذ ذاك ، تسللت « اولان » الى الخارج ، واخذت سكيناً كبيراً من الحديد كان عندها في المطبخ ، وشقت جرحاً كبيراً في عنق الثور فقضت على حياته . ثم اخذت اناء تلقت فيه دمه لتطهوه لهم ليأ كلوه في العصيدة ، وسلخت الحيوان الكبير وقطعته ، ووانغ لنغ يأبى ان يخرج حتى انتهى كل شيء ، وطهي اللحم ووضع على المائدة . ولكنه عندما حاول ان يأ كل لحم ثوره ، غص حلقه ، ولم يستطع ابتلاعه ، واكتفى بشرب قليل من الحساء . وقالت له « اولان » : ما الثور إلا ثور .. وهذا الثور كان قد كبر وشاخ ، فكل وسيكون لنا يوماً ثور آخر يفوقه كثيراً . »

ومرى عن وانغ لنغ شيئاً ما ؛ فأكل شريحة من لحم الثور، ثم أخذ أخرى. وإذ ذاك أكل الجميع . ولكن لحم الثور لم يلبث ان انتهى ، وامتصت العظام حتى النخاع . وسرعان ما تلاشى الثور بأكمله ، ولم يبق غير جلده ، فجففته « أولان » بنشره على رف من الغاب صنعته من أجله .

وساد القرية – في بادىء الأمر – شعور بالعداء لوانغ لنغ ، إذ كان ثمة ظن بأن لديه فضة يخبئها ، وطعاماً يختزنه . وجاءه عمه – الذي كان في مقدمة الذين شعروا بالجوع – يستعطفه . والواقع أن الرجل وزوجته وأولاده السبعة لم يكن لديهم بالفعل ما يأكلونه . فكال وانغ لنغ – على كره منه – كومة صغيرة من الفول وحفنة ثمينة من القمح في ذيل ثوب عمه ، ثم قال بحزم : « هذا كل ما أستطيع الاستغناء عنه ، فمن واجبي أن أرعى والدي أولا ، بغض النظر عما لدي من أطفال .

وعندما جاء عمه مرة أخرى ، صاح فيه وانغ لنغ : « لم يعد شيء – ولا حتى عطف البنوة – يستطيع أن يطعم بيتي ». ورده خالي الوفاض .

ومنذ ذلك اليوم ، تألب عمه عليه كالكلب المطرود ، وراح يهمس في هذا البيت وذاك في أرجاء القرية : « إن ابن أخي ذاك يملك فضة ويملك طعاماً ، ولكنه يأبى أن يعطينا شيئاً ، لي وأولادي ، ونحن من لحمه ودمه ، فليس أمامنا إلا الموت جوعاً ! » .

وإذ أخذت كل أسرة بعد أخرى – في القرية الصغيرة – تستنفد مختزناتها ، وتنفق آخر قطعة عملة لديها في أسواق المدينة الهزيلة .. وإذ أقبلت رياح الشتاء من الصحراء قارسة البرودة كنصل من الفولاذ ، وجافة ومجدبة ، أضل عقول القرويين جوعهم وجوع زوجاتهم المتعوجات ، وبكاء أطفالهم ، وعندما سار عم وانغ لنغ في الأزقة وهو يرتجف ككلب ضامر ، مطلقاً بين شفتيه الساغبتين هذه الهمسات : « هناك من لا يزال لديه طعام ، ولا يزال أطفاله سماناً » ، اختطف الرجال عصيهم ، وقصدوا – ذات ليلة – بيت وانغ لنغ ، وطرقوا

الباب ، فلما فتح استجابة لأصوات جيرانه ، انقضوا عليه ودفعوه إلى خارج البيت ، وألقوا إلى الخارج كذلك بأطفاله المذعورين ، ثم أخذوا يفتشون كل ركن ، وينبشون كل سطح بحثاً عن مخبأ أغذيته . حتى إذا وجدوا مختزنه الضئيل من الفول المجفف ، وملء إناء من القمح اليابس ، صاحوا يأساً وخيبة ، واستولوا على قطع الأثاث : المائدة ، والمقاعد الخشبية ، والفراش الذي كان الشيخ مستلقياً عليه وهو يبكي ذعراً .

وعند هذا تقدمت أولان وتكلمت ، فارتفع صوتها الواضح البطيء على أصوات الرجال ، « دعوا هذه .. دعوا هذه الان .. لم يصل الأمر إلى هذا الحد ..، لم يحن الوقت بعد لتأخذا من دارنا مائدتنا ومقاعدنا وسريرنا . لقد أخذتم كل طعامنا . ولكنكم لم تبيعوا من بيوتكم إلى الان موائدكم ومقاعدكم ، فاتركوا لنا متاعنا ، إذ نحن سواء معكم .. ليس لدينا حبة فول أو قمح فوق ما لديكم .. لا ، بل إن لديكم الان أكثر مما لدينا،إذ أخذتم كل غذائنا. ستصعقكم السماء إذا أخذتم المزيد ! كلنا سننطلق غدا لنجمع الحشائش ولحاء الشجر ، أنتم لتطعموا أطفالكم ونحن لنطعم أطفالنا الثلاثة ، ولهذا الرابع الذي قدر له أن يجيء في مثل هذه الأوقات ! » . وضغطت يدها على بطنها وهي تتكلم ،فخجل الرجال أمامها ، وانصرفوا واحداً بعد الاخر » .

الفصل التاسع

قال وانغ لنغ لنفسه : وهو يجلس على عتبة داره ، إنه لا بد من عمل شيء الان فما كان بوسعهم أن يبقوا في هذا البيت الخالي إلى ان يموتوا .. كان جسمه النحيل – الذي كان يشد حزامه المتراخي حوله بمزيد من الإحكام يوماً بعد يوم – عزيمة قوية للحياة ، فما كان ينبغي له ، في الفترة التي يبلغ فيها عنفوان حياة الرجولة ، أن يسلب من هذه الحياة فجأة بفضل قدر غبي . وأصبح صدره يجيش بغضب عارم لم يكن في كثير من الأحيان يقدر أن يعبر عنه ،واحياناً كان يستبد به الى حد الجنون ، فكان يهرع إلى جرنه الخاوي ، ويهز ذراعيه مهدداً السماء القاسية التي تشرق فوقه ، دائمة الزرقة والصفاء ، والبرودة ، والصحو ، ويصيح في خبل : « لشد ما أنت شرير ، أيها العجوز القابع في السماء ! » . فإذا تولاه الخوف وهلة ، صاح في الوهلة التالية متجرئاً : « وماذا يمكن ان يحدث لي أسوأ مما حدث ؟ » .

وخرج يوما ، يجر قدما وراء قدم في ضعف وخور ، فقصد إلى معبد الأرض ، وبصق متعمداً على وجه المعبود الصغير الذي كان يجلس بجوار زوجته في جمود ، ولم تكن أمام هذين الصنمين عيدان بخور الان ، ولا كانت هناك عيدان منذ عدة أشهر قمرية ، وكانت ثيابهما المصنوعة من الورق قد تمزقت ، وكشفت خلال فتوقها عن جسميهما المصنوعين من الطين ، ولكنهما ظلا قابعين في مكانهما لا يحركهما شيء . فصر وانغ لنغ على أسنانه حانقاً أمامهما ، ثم عاد أدراجه إلى البيت وهو يئن ، وارتمى على الفراش ، وكانوا لا يكادون ينهضون من مراقدهم

إلا نادراً ، إذ لم تكن هناك حاجة لذلك ، وأصبح اليوم المتقطع يحل – ولو مؤقتاً على الأقل – محل الطعام الذي لم يكونوا يملكونه .. وكانوا قد جففوا القوالح وأكلوها ، ونزعوا عن الأشجار قشورها وتغذوا عليها .. وأخذ الناس – في كافة أرجاء الريف – يأكلون ما يعثروا عليه من حشائش فوق سفوح التلال التي أجدبها الشتاء . ولم يكن ثمة حيوان واحد في أي مكان ، وقد يسير المرء اياماً دون ان يرى ثوراً واحداً او حماراً ، او أي نوع آخر من الحيوانات او الدواجن .

اما الشيخ ، فكان في حالة أفضل من أي فرد فيهم ، إذ كان يؤثر بأي شيء يؤكل إذا وجد مثل ذلك الشيء ، حتى ولو لم يحظ الأطفال بقسط منه لأنفسهم .

وكان وانغ لنغ يقول لنفسه في افتخار إن لن يقول – في ساعة الموت – إنه قد نسي أباه . ولو اقتضى الأمر ان يقدم له من لحمه طعاماً لما تردد ، فقد كان من الواجب ان يقتات الشيخ .

وكان الشيخ ينام نهاراً وليلا ، ويأكل ما يقدم له ، وبقيت فيه قوة تمكنه من الزحف إلى الباب الخارجي في وقت الظهيرة ، عندما تكون أشعة الشمس دافئة . وكان اكثر مرحاً من أي منهم ، وقد قال يوماً بصوته الضعيف المرتعش الذي يشبه ريحاً ضعيفة تتخبط بين عيدان مشقوقة من الغاب : « كانت هناك أيام اسوأ من هذه الأيام .. كانت هناك ايام اسوأ .. لقد رأيت الرجال والنساء مرة يأكلون الأطفال ! » فقال وانغ لنغ في جزع شديد : « لن يحدث شيء كهذا في بيتي ! » .

وجاء جاره شينغ يوماً – وقد هزل حتى اصبح أقل من شبح مخلوق آدمي – وقال هامساً خلال شفتيه اللتين جفتا واصبحتا بلون الأرض السوداء : « إن الكلاب تؤكل في المدينة .. وفي كل مكان تؤكل الخيول والطيور من كل نوع .

ونحن هنا قد أكلنا البهائم التي كانت تحرث حقولنا ، والحشائش، ولحاء الشجر. فماذا يبقى بعد لنأكله ؟ » .

فهز وانغ لنغ رأسه بيأس . وكان يضم إلى صدره طفلته النحيلة التي أصبحت هيكلاً عظمياً ، فألقى نظرة على الوجـــه الرقيق الناتيء العظام ، وعلى العينين الحادتين الحزينتين اللتين كانتا لا تكفان عن تأمله من خلال أحضانه . وعندمـا التقى نظره بتلكما العينين ، حومت على وجه الطفلة ابتسامة متذبذبة تقطعت لها نياط قلبه .

وقرب شينغ وجهـه ، وهمس : « إنهم يأكلون اللحم الادمي في القرية . ويقال إن عمك وزوجته يأكلانه .. وإلا فكيف لا يزالان أحياء ، ولديها القوة التي تمكنهما من السير والتسكع ، وهما المعروفان بأنهما لا يملكان شيئاً ؟ »

وتراجع وانغ لنغ ، مبتعداً عن الوجه الشبيه بالموت ، الذي كان شينغ يدنيه منه وهو يتكلم . كان الرجل مرعباً وعيناه قريبتان إلى ذلك الحـــد . وشعر وانغ لنغ فجأة بخوف لم يدر كنهه . فنهض بسرعة كأنه يهم بدفع خطر داهم ، وصاح بصوت عال : « سنترك هـذا المكان ، وسنذهب إلى الجنوب .. في كل مكان في هذه الربوع الشاسعة يموت الناس جوعـاً . على أن السماء مهما تبلغ من القسوة . لن تمحو أبناءها دفعة واحدة ! » .

ونظر اليه جاره وقال في صبر : « آه ، إنك لا تزال شاباً . أمـا انا فأكبر منك سناً ، وزوجتي أيضاً متقدمة في السن ، وليس لدينا غير ابنة واحـــدة . فبوسعنا أن نموت جوعاً ! » .

فقال وانغ كنغ : « إنك أسعد مني حظاً ، فإن لدي أبي الشيخ ، وهـذه الأفواه الثلاثة ورابع يوشك ان يولد . فلا بد لنا من الرحيل لئلا ننسى طبيعتنا فنأكل بعضنا البعض كالكلاب المسعورة ! » .

وخيل إليه بغتة أن ما قاله كان صحيحاً ، فنادى « أولان » بصوت عال ،

وكانت ترقد على الفراش يوماً تلو الآخر دون ان تتفوه بكلمة . بعد أن لم يبق طعام لتطهوه ولا وقود للفرن . وقال لها : « هيا يا امرأة ، إننا سنرحل إلى الجنوب » !

وكانت في صوته رنة فرح لم يسمعها منه أحد منذ عدة أشهر ، فتطلع الأطفال إليه ، ودب الشيخ خارجاً من غرفته، ونهضت « أولان » في إعياء من فراشها وسعت إلى باب غرفتها ، وقالت وهي تتشبث بالباب : « من الخير أن نفعل ، فأفضل للمرء أن يموت وهو يمشي ، على الأقل » .

وكان الجنين يبرز من قوامها النحيل كثمرة مكورة ، وقد غاب عن وجهها كل أثر للحم ، فبرزت عظامها بائنة تحت جلدها كالصخر .

وقالت : « فقط انتظر إلى الغد، فإذ ذاك سأكون قد وضعت حملي، وبوسعي ان أعرف هذا من حركة الجنين » .

فقال وانغ لنغ : « إلى الغد إذن ! » . ثم رأى زوجته، فتأثر وتملكته شفقة فاقت شفقته على نفسه .. كانت هذه المسكينة تجر أمامها مخلوقاً آخر ، فتمتم : « وكيف ستسيرين أيتها المسكينة ؟! » . ثم قال – على كره – لجاره شينغ ، الذي ظل مستنداً إلى باب البيت : « إذا كانت لديك فضلة من الطعام، فبحق الإنسانية أعطني حفنة لإنقاذ حياة أم أولادي . وسأنسى – إذ ذاك – أنني رأيتك يوما تدخل بيتي لتنهبه مع الاخرين » .

فنظر إليه شينغ في خجل ، وقال بانكسار : « إنني لم أتذكرك أبداً وأنا مرتاح الضمير منذ تلك الساعة . لقد كان الكلب – عمك – هو الذي حرضني قائلاً إن لديك محصولات طيبة مختزنة . وأقسم لك – أمام هذم السماء القاسية – إني لا املك سوى حفنة من الفول الأحمر اليابس، مخبأة تحت حجر بيتي – وقد ادخرتها وزوجتي لساعتنا الأخيرة ، لنتبلع بها نحن وطفلتنا ، حتى نموت وفي بطوننا قليل من الطعام . ولكني سأعطيك بعضها ، ولترحل غداً إلى الجنوب

إذا استطعت . أما أنا فسأبقى .. أنا وبيتي . فإني أكبر منك سناً ، وليس لي ولد ، فلا يهمني ان أعيش او أموت ! » .

وذهب شينغ ثم عاد بعد برهة ، وقد أحضر في منديل قطني ، حفنتين من الفول الأحمر يخللها الطين . وتراقص الطفلان لمرأى الغذاء ، بل إن عيني الشيخ لمعتا فرحاً ، ولكن وانغ لنغ أبعدهم جميعاً بحزم ، ودخل بالغذاء إلى زوجته وهي راقدة ، فأكلت قليلاً منه ، حبة بعد حبة .. وما كانت لتؤثر نفسها به لولا أن ساعة الوضع كانت قد حانت . وكانت تدرك أنها إذا لم تتناول طعاماً فستموت تحت وطأة أوجاع المخاض . ولم يجيء وانغ لنغ سوى حبات قليلة من الفول في يده . وهذه دسها في فمه ، وأخذ يجرشها حتى أصبحت عجينة طرية ، ثم ألصق شفتيه بشفتي ابنته ، ودفع الطعام إلى فمها . وشعر بالشبع وهو يراها تحرك شفتيها !

وبقي ـ في تلك الليلة ـ في الغرفة الوسطى وكان الوالدان في غرفة الشيخ بينما كانت أولان في الغرفة الثالثة تضع وليدها بمفردها وكان يجلس كما جلس عندما وضعت وليدها الأول ، يرهف السمع مترقباً . فقد ظلت تأبى أن يكون بقربها في ساعة الوضع . كانت تؤثر أن تكون وحيدة في مخاضها ، جالسة القرفصاء فوق البرميل القديم الذي احتفظت به لهذا الغرض ، زاحفة في الغرفة ـ بعد الوضع ـ لتمحوا آثار ما حدث ، وتزيل بقع الدم كما يفعل الحيوان عند الولادة .

وأرهف سمعه مترقباً الصرخة القصيرة الحادة ، التي كان يعرفها تماماً . وكان ينصت في يأس . فما عاد يهمه إن كان الوليد ذكراً أو أنثى .. فهو على كل حال فم جديد لا بد من إطعامه . وتمتم : « من الرحمة أن يموت الوليد » .

وعندئذ سمع الصيحة الواهنة ـ وكم كانت واهنة ! ـ تشق السكون لحظة ، معلقة وسط ذلك السكون ، فأتم عبارته : « ولكن الرحمة انعدمت في هذه الأيام ! » ثم جلس صامتاً ، ولم يسمع صيحة أخرى ، وخيم على البيت سكون

شامل . على أن السكون كان يسيطر على كل مكان منذ أيام كثيرة ، فقد جمد القوم عن الحركة ، كل في بيته يرتقب الموت .

وكان بيته معتماً بمثل هذا السكون . وفجأة ،لم يعد وانغ لنغ يطيق احتمالا وتملكه الخوف ، فنهض وسعى إلى باب الغرفة التي كانت أولان بها ، وناداها من خلال فرجة الباب ، وقد بعث وقع صوته شيئاً من الطمأنينة في نفسه .. وصاح بالمرأة : « هل أنت بخير ؟ » وأنصت. هب أنها ماتت وهو جالس هناك ! . ولكنه سمع حفيفاً خافتاً ، كانت تتحرك في الغرفة .. ثم أجابته أخيراً ، وكان صوتها زفرة خافتة : « تعال ! » فدخل الغرفة وإذا بها راقدة على الفراش ، وجسدها لايكاد يرفع الغطاء . وكانت ترقد بمفردها ، فسألها : « أين الوليد؟». وأشارت من على الفراش بحركة خفيفة من يدها ، فرأى جسد الطفل على الأرض، فصاح : « ميت ؟! » .. وهمست : « ميت ! » وانحنى ففحص قبضة اللحم .. كومة من جلد وعظم .. كانت بنتا. وهم أن يقول : «ولكني سمعتها تصرخ .. كانت على قيد الحياة » .. ولكن نظرة حانت منه إلى وجه المرأة .. كانت عيناها مغلقتين ،ولون جسمها بلون الرماد ، وعظامه بارزة من تحت الجلد، كان وجهاً بائساً صامتاً، ذلك الوجه الراقد ، فقد تحمل أقصى الآلام . ولم يجد ما يقول .

ولم ينطق بكلمة ، وإنما أخذ الطفل الميت إلى الغرفة الأخرى ، فوضعه على الأرض وأخذ يبحث ، حتى عثر على قطعة من حصيرة بالية لفها على الجثة .

ولم يكد يضع حمله على الأرض ، حتى حوم من خلفه في الحال كلب جائع أشبه بالذئب ، وقد بلغ من جوعه أنه لم يتزحزح أكثر من بضع أقدام قليلة عندما التقط وانغ لنغ حجراً صغيراً وضربه به ، فأصابه في خاصرته النحيلة.وأخيراً، شعر وانغ لنغ بساقيه تتخاذلان تحته ، فغطى وجهه بيديه ، وقفل راجعاً إلى البيت ، وهو يتمتم لنفسه : « الخيرة في الواقع ! » وللمرة الأولى ، ملأه اليأس عن آخره .

وفي صبيحة اليوم التالي ، عندما أشرقت الشمس كعهدها في سماء صافيه الزرقة ، بدا له كالحلم أنه كان يظن أنه يستطيع الرحيل من البيت ومعه هؤلاء الأطفال البؤساء، وهذه المرأة الضعيفة، وهذا الشيخ . إذ كيف يستطيعون جر أجسامهم أكثر من مائة ميل ، حتى ولو كان الخير والرخاء ينتظرانهم ؟.. ثم ، من ذا الذي يدري ما إذا كان في الجنوب طعام أم لا ؟.. فقد كان يخيل للمرء أن لا نهاية لهذه السماء المتوهجة الشمس ، وربما استنفدوا البقية الباقية من قواهم ليجدوا أناساً أكثر منهم جوعا ، فضلاً عـن أنهم غرباء عنهم . إذن فمن الخير كل الخير أن يبقوا حيث يمكنهم أن يموتوا في فراشهم .

وجلس ساهما على عتبة الباب ، وسرح بنظرات شاردة نحو الحقـول الجافة الجرداء التي اقتلع منها كل ما يمكن ان يسمى أكلا أو وقوداً !

ولم يكن معه مال . فقد أنفق آخر قطعة من النقود منذ أمد بعيد . غير أن المال ذاته لم يكن ليستطيع أن يفعل الكثير الآن ، إذا لم يكن هنـــاك طعام يشترى .

وكان قد سمع ـ من قبل ـ أن في المدينة قوما أغنيـــاء اختزنوا أغذية لأنفسهم ، وأخرى للبيع لمن هم أغنى منهم . ولكن هذا لم يعد يستثير غضبه . فإنه شعر ـ في ذلك اليوم ـ أنه لم يكن يستطيع السير إلى المدينة،حتى ولو كان الطعام هناك بغير مقابـــل ، ولم يكن جائعاً في الواقع ، فإن قرصات الجوع الطاغية التي كان يستشعرها في معدته في بداية الأمر كانت قد ولت، وأصبـــح في إمكانه أن يقتطع قليلا من الطين من بقعة في أحد حقوله ، ويعطيها لأطفاله دون أن يشتهي شيئاً منها . وكانوا قد مضت عليهم أيام يأكلون هـــذا الطين ممزوجاً بالماء . وكان يسمى « تربة ربة الرحمة » ، لأنه كان يحتوي على قدر من التغذية ، وإن لم يكن كافياً ، في نهاية الأمر ، لحفظ الحياة ، وكان يصنع منه نوع على شكل الثريد ليهدىء مؤقتاً من حدة اشتهاء الأطفال للأكل ، ويواتي بطونهم الفارغة ـ المتضخمة بالهواء ـ بشيء يملأ جانباً منها وقـــد أصر على

الإحجام عن لمس الحبات القليلة من الفول التي ظلت أولان تحتفظ بها في يدها ، وكان يشعر بارتياح مبهم إذ يسمعها تجرشها واحدة بعد الأخرى على فترات متباعدة .

وفيما كان يجلس عند عتبة الباب – وقد تخلى عن آماله – وراح يفكر – بسرور الحالم – في الرقاد على فراشه ، والنوم حتى يواتيه الموت في يسر وسهولة ، رأى قوما آتين عبر الحقول .. رجالا كانوا يسيرون نحوه . وبقي جالساً في مكانه وهم يقتربون منه ،فتبين فيهم عمه وثلاثة رجال لم يكن يعرفهم.

وقال عمه بصوت عال وبمرح مصطنع : « لم أرك منذ عدة أيام !». حتى إذا ازداد اقترابا ، قال بنفس الصوت العالي : « لكم تبدو عيشتك رضية !.. وكيف حال أبيك أخي الأكبر .. أهو بخير ؟ » .

وتفرس وانغ لنغ في عمه . صحيح أن الرجل كان قد هزل ، ولكنه لم يكن يتضور جوعاً كما كان متوقعاً له . وشعر وانغ لنغ بالبقية الباقية من الحياة في جسمه المتغضن تتجمع وتستحيل غضباً جارفاً على هذا الرجل – عمه – فغمغم بغلظة : « كيف استطعت أنت أن تأكل ، ومن أين أتيت بالأكل ؟ »

ولم يبال بهؤلاء الغرباء الذين كانوا مع عمه . ولا اهتم بأية مجاملة ، فلم يكن يرى سوى عمه واللحم لا يزال يكسو عظامه . واتسعت حدقتا عمه.ورفع يديه إلى السماء وقال : « أكلت !!.. ليتك ترى بيتي ؟. إن العصفور لا يمكنه أن يجد أي فتات يلتقطه . وزوجتي .. هل تذكر كيف كانت بدينة ؟.. لقد أصبحت كثوب معلق على وتد ، ولم يبق منها غير عظام تصطفق تحت جلدها. ولم يتبق لنا من أطفالنا غير اربعة ، لقد مات الثلاثة الصغار .. ماتوا .. أما انا ، فهأنت ذا تراني ! » وامسك بطرف كمه ، ومسح به طرف عينية بعناية . فردد وانغ لنغ في تبلد : « إنك اكلت ! » .

فقال عمه بحدة : « لم اكن افكر إلا فيك وفي ابيك ، الذي هو اخي ..

وها انذا ابرهن لك على هذا. فقد استعرت من هؤلاء الفضلاء القادمين من المدينة حالما امكنني ذلك قدراً قليلا من الطعام على وعـد ان اساعدهم بما يمدني به من قوة على ابتياع بعض الأراضي المحيطة بقريتنا » وعندئذ فكرت اولا في ارضك الطيبة ، انت ، يا بن اخي . لقد جاءوا ليشتروا ارضك ويعطوك مالاً . وطعاماً .. وحياة ! » .

وإذ انتهى العم من كلماته هذه ، تراجع إلى الوراء ، وشك ذراعيه، ملوحاً بثيابه القذرة المهلهلة . ولم يحرك وانغ لنغ ساكناً ، ولم ينهض ، ولم يتعرف - بأي حال من الأحوال - على الرجال الذين جاءوا . ولكنه رفع راسه لينظر إليهم فرأى انهم كانوا حقاً من اهل المدينة ، وكانوا يرتدون ثياباً طويلة مـن الحرير المتسخ . وكانت ايديهم ناعمة واظافرهم طويلة . كانوا يبدون وكأنهم اكلوا حتى الشبع ، وكان الدم لا يزال يجري في عروقهم متدافعـاً . واحس بكراهية شديدة مفاجئة نحوهم . فها هم اولاء رجال من اهل المدينه قد جاءوا إليه آكلين شاربين ، ووقفوا بجواره هو الذي يكاد اطفاله ان يموتوا جوعاً ، وهم يقتاتون على طين الحقول ..وها هم قد جاءوا ليغتصبوا منه ارضه مستغلين حاجته الماسة ، فنظر إليهم متجهما ، وقد غارت عيناه واتسعت في وجهه الذي اصبح شبيهاً بالجمجمة ، وقال : « لن ابيع ارضي ! » .

فتقدم العم خطوة . وفي تلك اللحظة اقبل اصغر ولدي وانغ لنغ زاحفاً إلى الباب على يديه وركبتيه ، فإن الطفل - لضآلة قوته في تلك الأيام الأخيرة - كان قد عاد إلى الحبو كما اعتاد ان يفعل في طفولته . فصاح العم : « اهذا ولدك ؟ .. اهذا هو الطفل البـدين الذي اعطيته قطعة نحاسية من النقود في الصيف ؟ » .

ونظروا جميعاً إلى الصبي ، وفجأة انفجر وانغ لنغ في بكاء صامت ، وهـو الذي لم يذرف دمعة واحدة طيلة تلك المدة . واخذت الدموع تتجمع في غصات كبيرة خنقت حلقه ، ثم انسابت على خديه .

واخيراً قال لهم بصوت هامس : « وما الثمن الذي تعرضونة ؟ » .

ولا عجب ، فقـد كان عليه ان يغذي هؤلاء الأطفال الثلاثة ، والشيخ .. كان بوسعه وزوجته ان يحفرا قبرين لنفسيهما في الأرض ،ويرقدا فيهما وينام ، اما هؤلاء ..

وما لبث ان تكلم احد الرجال القادمين من المدينة — وكان رجلا ذا عـين واحدة غائرة في وجهه — فقال في نعومة :«سندفع لك — ايها الرجل المسكين ثمناً يفضل ما يمكن الحصول عليه في هذه الأيام في اي مكان ،إكراماً لهذا الطفل الذي يكاد يموت جوعاً . سنعطيـك .. » وهنا امسك عن الكلام لحظة ، ثم استطرد قائلاً بخشونة : « سنعطيك خيطاً به مائة بنس للفدان الواحد» فضحك وانغ لنغ بمرارة وصاح : « وي ا.. كأني بكم تأخذون ارضي هدية . إنني ادفع عشرين مثلاً لما تعرضون عندما اشتري ارضاً ! » .

وقال رجل آخر من المدينة : « حقاً ، ولكنك لا تدفع هذا الثمن عندمـا تشتري من اناس يموتون جوعاً » . وكان رجل ضئيل الجسم نحيفـا ، ذا انف رفيـع عال ، ولكن صوته كان ضخما ، خشنا ، حادا .

وتطلع وانغ لنغ إلى الرجال الثلاثـة . كانوا متاكدين من قبوله ! .. فاي شيء لا ينزل المرء عنه من اجل اطفاله الجيـاع وابيه الشيخ ! . وتحول ضعف الاستسلام لديه إلى غضب لم يعهد مثله في حياته من قبل ، وقفز نحو الرجال كما يقفز الكلب على عدو ، وصرخ فيهم يقول : « لن ابيـع الأرض مطلقا..ساحفر الحقول قطعة قطعة ، واطعم اطفالي طينها ، وعندما يموتون سادفنهم في جوفها، وساموت أنا وزوجتي بل ووالدي نفسه ، على الأرض التي وهبتنا الحياة ! » .

وراح يبكي بشدة ، وقد انفثأ غضبه بسرعة الريح .. ووقف يرتجف ويبكي بينما وقف الرجال امامه يبتسمون ابتسامة خفيفة ، وعمه بينهم لم يتأثر بشيء. كان حديثه جنونا ، فظلوا يرتقبون تلاشي غضبه .

ثم ظهرت « اولان » فجأة عند الباب ، وتحدثت اليهم بصوتها الهادىء ، وبلهجة عادية ، وكأن مثل هذه الأمور تجري كل يوم. قالت : « لن نبيع الأرض بكل تأكيد ، وإلا فلن نجد مـا نقتات به عندما نعود من الجنوب ، ولكننا سنبيع المائدة والسريرين وفرشهم ، والمقاعد الخشبية الأربعة ، وكذلك القـدر الذي في الفرن .. اما المناجل والفـأس والمحراث ، فلن نبيعها .. وكذلك لن نبيع الأرض » .

كان ثمة طمأنينة في صوتها ، ابلغ واقوى اثرا من كل غضب وانغ لنغ ، فقال عم وانغ لنغ في ترتب : « استرحلون إلى الجنوب حقا ؟ »

واخيرا تحدث الرجل الأعور إلى زميـله ، وراحوا يتهامسون فيما بينهم ، ثم استدار وقال :

« إنها اشياء لا قيمة لها ولا تصلح لغير الوقود . سنعطيكم قطعتين مـن الفضة مقابل الجميـع ، ولا مجال للمساومة ، فإما ان تقبلا وإما ان ترفضا » .

الفصل العاشر

لم يكن ثمة ما يعمل سوى إحكام إغلاق مصراعي البـاب ، وتثبيت الرتاج الحديدي . وكانوا يرتدون كل ما لديهم من ملابس ، ودفعت « أولان » بين يدي كل طفل وعاء من أرز إوزوجا من الميدان التي يأكلون بها ، فأطبق الطفلان عليها بلهفة معللين النفس بقرب مجيء الطعام . وهكذا شرعوا جميعاً يسيرون مخترقين الحقول في موكب حزين يتحرك ببطء يلوح لفرط بطئه أنـــه لن يقدر لهم أن يصلوا إلى سور المدينة على الإطلاق .

ووصلوا بعد لأي إلى بوابة السور ، وهم لا يكفون عن الاستراحة بعد كل مرحلة قصيرة . وبعد أن كان وانغ لنغ يبتهج لبرودتها ورطوبتها ، أخذ الآن يصر على أسنانه لقوة هبوب الرياح الغاضبة داخل القبو وكأنها ماء مثلج يندفع بين التلال . وكان الطين سميكاً تحت أقـــدامهم تتحلله قطع من الجليد أشبه بالأشواك ، فلم يقو الولدان على المضي في السير ، وكانت أولان تحمل الطفلةوتنوء تحت ثقل جسمها هي . وأخذ وانغ لنغ يترنح في مشيته وهو يحمل أباه حتى مر به من القبو ، ثم وضعه على الأرض ، وعاد فحمل الطفلين بالتناوب ، حتى إذا انتهت المسافة الموحلة ، أخذ العرق يتصبب من جسمه كالمطر ، مستنفداً معه كل قواه ، حتى اضطر إلى الاستناد إلى الحائط الرطب طويلاً ، وقد انطبقت عيناه ، وتلاحقت أنفاسه ، وأسرته واقفة من حوله ، ترتجف وتنتظره .وكانوا قد اقتربوا من بوابة البيت الكبير ، ولكنها كانت محكمة الإغلاق ، وقـــد انطبق مصراعاها الحديديان تماماً ، واستوى إلى جانبيها الأسدان المصنوعان من الحجر الأسمر وقد لوحتها الرياح ، وعلى الدرجات الخارجية للباب ، كانت تستلقي أشباح زرية من رجال ونساء ، يتطلعون إلى البوابة الموصدة والجوع

يفتك بهم . وعندما مر وانغ لنغ بالزمرة البائسة التي كانت معه ، سمع صوتاً متحشرجاً يصيح : « إن قلوب هؤلاء الأغنياء قاسية كقلوب الآلهة . فلا يزال لديهم أرز يأكلونه ، ولا يزالون يصنعون الخمر من الأرز الذي لا يأكلونه ، بينما نموت نحن جوعاً ! » . وزمجر آخر يقول : آه ! لو كانت لدى بقية من قوة في يدي هذه – ولو للحظة عابرة – لأشعلت النار في هذه الأبواب الموصدة وفي الدور والأبهاء التي وراءها ، حتى ولو رحنا في الحريق . ألا فلتحلّ ألف لعنة على الآباء الذين أنجبوا أبناء هوانغ ! »

ولكن وانغ لنغ لم يرد بشيء على هـذا ، ومضى بأسرته في صمت نحو الجنوب .

* * *

وإذ اخترقوا المدينة وخرجوا إلى طرفها الجنوبي – وكانوا قد أتموا ذلك ببطء شديد حتى إن المساء حل وأوشك الظلام أن يخيم – وجدوا حشداً كبيراً من الناس يتجه صوب الجنوب . وكان وانغ لنغ قد بدأ يتخير ركنا من السور يصلح لأن يبيتوا إلى جواره ، تكوموا كلهم معاً ، عندما وجد نفسه واسرته فجأة وسط جمع من النازحين فسأل أقرب واحد منهم : « إلى أين يذهب هذا الحشد كله ؟ » . فأجاب الرجل : « إننا قوم جياع ، ونحن ذاهبون .

وتعاونا في جر الشيخ والأطفال بعيداً عن طريق الحشد المندفع ، وراح كل منهما ينظر إلى الآخر في قلق وخوف . وفي تلك اللحظة تهالك الشيخ على الأرض ، ورقد الولدان على التراب غير عابئين بأقدام الناس التي كانت تدب حولهما من كل جانب .. وكانت « أولان » لا تزال تحمل الطفلة ، ولكن رأس الطفلة كان يتأرجح فوق ذراعها ، وعلى عينيها المغمضتين مسحة من الموت جعلت وانغ لنغ يصيح وقد نسي كل شيء : « هل ماتت الجارية الصغيرة ؟ » . فهزت أولان رأسها وقالت : « لم تمت بعد ، فلا يزال فيها نفس يتردد ولكنها ستموت الليلة وسنموت جميعاً ، ما لم .. » وأمسكت عن الكلام وكأنها لا تستطيع التفكير في كلمة أخرى . وركبوا جميعهم المركبة النارية .

الفصل الحادي عشر

دفع وانغ لنغ قطعتي الفضة اللتين كانتا معه للموظف ليتقاضى منهما أجر السفر لمسافة مائة ميل ، فأعاد له الموظف حفنة من العملة النحاسية ، فاشترى وانغ لنغ ببضع منها أربعة أرغفة صغيرة من الخبز ، ووعاء من عصيدة الأرز لطفلته ، من بائع دفع بصحفة كبيرة عليها بعض الأوعية خلال ثغرة في المركبة بمجرد أن وقف القطار ، وكان هذا القدر من الطعام أكثر مما حظوا به في وجبة واحدة منذ أيام كثيرة ، ومع أنهم كانوا يوشكون أن يموتوا جوعاً لافتقارهم إلى الطعام ، فإن القوت لم يكد يستقر في أفواههم حتى فارقهم اشتهاؤهم إياه ، فلم يقبل الولدان على ابتلاعه إلا بعد محايلة . أما الشيخ ، فأخذ يستحلب الخبز بدأب بين لثتيه الخاليتين من الأسنان ، وهو يردد بلهجة بالغة الود لكل من يصطدم به في أثناء سير المركبة النارية واهتزازها : « لا بد للإنسان من أن يأكل ، ولست أبالي بأن معدتي الحمقاء قد اعتادت الكسل بعد كل هذه الأيام التي لم تجد فيها ما تعمله . إذ لا بد من تغذيتها ، ولن أموت لأنها تأبى أن تعمل ! » .

وضحك الناس فجأة من هذا الشيخ الباسم النحيل الضئيل الجسم ، الذي تناثر شعر لحيته الأشيب الخفيف على ذقنه .

غير أن وانغ لنغ لم ينفق جميع العملة النحاسية على الطعام بل إنه استبقى منها كل ما أمكنه لشراء حصائر ليبني بها حظيرة يأوون إليها عندما يصلون إلى الجنوب .

وما ان وصلوا لدى وانغ لنغ خطة مكتملة . فأجلس الشيخ والأطفال عند جدار طويل قاتم لبيت هناك ، وطلب من المرأة أن تراقبهم . ثم ذهب لشراء الحصائر سائلاً من كان يصادفه من المارة عن مكان السوق . ولم يكد في أول الأمر أن يفهم ما كان يقال له ، فإن الصوت الذي كان يصدر عن هؤلاء الجنوبيين عندما يتكلمون كان حاداً متكسراً وفي عدة مرات ، عندما كان يسألهم فلا يفهمون قوله كانوا يضيقون به ، فتعلم كيف يختار من يسأله ، فينتقي الأرق وجها ، لأن أهل الجنوب كانوا سريعي الغضب ، يسهل استفزازهم .

وأخيراً وجد محل بيع الحصائر في طرف المدينة ، فوضع بنساته على طاولة البائع شأن من يعرف ثمن السلع ، ثم حمل لفة حصائر . وعندما وصل إلى المكان الذي ترك فيه أهله وجدهم واقفين في انتظاره ، وإن كان الولدان قد صاحا معربين عن الاطمئنان عندما لحاه ، فتبين أن قلبيهما كانا مفعمين رعباً من هذا المكان الغريب .. أما الشيخ ، فكان وحده هو الذي يراقب كل شيء في سرور واستغراب ، فدمدم قائلاً لوانغ لنغ : « انظر .. ألا ترى ما هم جميعاً عليه من البدانة ، هؤلاء الجنوبيين ، ومدى شحوب بشرتهم وطراوتها ورقتها ! . لا شك أنهم يأكلون لحم الخنزير كل يوم » . ولكن أحداً من المارة لم يلتفت إلى وانغ لنغ وأسرته .

كان الرجال يأتون ويروحون في الطريق إلى المدينة المرصوف بالأحجار ، مشغولين ، منصرفين إلى شئونهم لا يلتفتون قط إلى المتسولين . وبين الفينة والفينة ، كانت تمر قافلة من الحمير تدق الأرض بسنابكها ، وتنقل أقدامها الصغيرة بعناية بين الأحجار التي رصفت بها الطريق ، وهي محملة بسلال الطوب لبناء المنازل أو بأكياس كبيرة من الحبوب تتدلى على جانبي ظهورها . وخلف كل قافلة كان ثمة سائق يمتطي الحمار الأخير ، وبيده سوط كبير ، وبهذا السوط كان يهوى على ظهور الحيوانات بقرقعة مرعبة ، وهو يصيح فيها مستحثاً .

وكان كل سائق يمر بوانغ لنغ يرمقه بنظرة ازدراء واستعلاء ، ولم يكن أي أمير يستطيع ان يبدو اشد تعالياً من هؤلاء المكاريين في ثياب عملهم الخشنة ،. وهم يمرون بهذه الأسرة الصغيرة التي وقف أفرادها حيارى على حافة الطريق. وكان يحلو لكل سائق – إذ يرى غرابة منظر وانغ لنغ وأسرته – ان يفرقع سوطه وهو يمر بهم ، فكانت الفرقعة الحادة التي تشق الهواء ، تجعلهم يقفزون جزعاً . وما إن كان المكاريون يرونهم يقفزون حتى كانوا يقهقهون . فلم يلبث وانغ لنغ ان غضب إذ تكرر هذا مرتين وثلاثاً ، فتحول ليبحث عن مكان يقيم عليه كوخه . وكانت هناك بالفعل أكواخ اخرى ملتصقة بالسور وراءهم ، أما ما وراء السور فلم يكن احد يعرف عنه شيئاً ، ولم تكن ثمة سبيل إلى معرفته ، فقد كان يمتد قائماً عالياً جداً. وقد أقيمت بجوار قاعدته الأكواخ الصغيرة المصنوعة من الحصائر ، ملتصقة به التصاق البراغيث بظهر كلب . وتأمل وانغ لنغ هذه الاكواخ ليشكل حصائره على غرارها ، ولكنه وجدها صلبة مستعصية لانها مصنوعة من غاب مشقوق. وكاد ييأس ، عندما قالت أولان فجأة : « أستطيع ان اصنع هذا ، فأنا أتذكره منذ طفولتي » . ووضعت طفلتها على الارض ، وأخذت تشد الحصر بهذه الطريقه وتلك حتى شكلت سقفاً مستديراً تتدلى أطرافه إلى الأرض ويرتفع عنها بحيث يستطيع المرء أن يجلس تحته دون ان يصطدم بقمته .

واستقروا هكذا في جلستهم ، ينظر بعضهم إلى بعض ، وقد بدا لهم من المستحيل أن يكونوا قد تركوا بيتهم وأرضهم في اليوم السابق ، وأن يكونوا قد أصبحوا على بعد مائة ميل منها الآن.. كانت مسافة شاسعة إلى درجة كبيرة وكانت خليقة بأن تستغرق منهم أسابيع من المشي ، وبأن تقضي عليهم أو على البعض منهم ، قبل أن تنتهي . ولم يلبث أن غمرهم الشعور العام بالرخاء في هذه الأرض الغنية ، التي لم يكن يبدو فيها أحد جائعاً .

وقال وانغ لنغ : « هيا بنا نبحث عن المطاعم الشعبية !! فهبوا جميعاً وقد

استخفهم البشر ، وخرجوا ثانية . وفي هذه المرة أخذ الولدان ينقران ـ في أثناء سيرهما ـ بالعصي التي يأكلان بها ، على وعائي الأرز الفارغين ، إذ كانا مطمئنين إلى أنهما لن يلبثا أن يحصلا على ما يملأهما . وسرعان ما اكتشفوا السبب في إقامة الأكواخ على امتداد هذا السور الطويل ، وعلى طول هذا الشارع كان كثيرون من الناس يسيرون .. ومن ثم فقد اختلط وانغ لنغ وأسرته بهؤلاء الاخرين ، وانتهوا معهم ـ أخيراً ـ إلى كوخين كبيرين من الحصر فتزاحم الجميع على الجانب المفتوح من هذين الكوخين .

وكان في مؤخرة كل كوخ أفران من الطين ، ولكنها كانت أكبر من أي فرن رآه وانغ لنغ من قبل .. وكانت عليها قدور حديدية كبيرة كأنها برك صغيرة . وعندما رفعت الأغطية الخشبية الضخمة عنها ، ظهر الأرز الأبيض الطيب وهو يغلي ويفور ، وتتصاعد منه سحب من البخار ذات أريج مستحب. فلما شم الناس رائحة الأرز بدت لأنوفهم كأحلى عبير في العالم ، وتدافعوا جميعاً في كتلة حاشدة ، وأخذوا يتصايحون ، وأخذت الأمهات تصرخ في غضب وخوف لئلا يطأ الناس أطفالهن ، وتعالى بكاء الأطفال الصغار ، وزمجر الرجال الذين كشفوا القدور الكبيرة : « لدينا ما يكفي كل إنسان ، فلينتظر كل منكم دوره ! » .

ولكن شيئاً لم يكن ليوقف هذا الحشد من الرجال والنساء الجائعين ، فأخذوا يتصارعون كالوحوش حتى حصلوا جميعاً على الطعام . ولم يكن بوسع لنغ ـ وقد حشر وسطهم ـ سوى أن يتشبث بأبيه وابنيه ، حتى إذا انساق تحت ضغط الزحام نحو القدر الكبير مد يده بوعائه . وعندما امتلأ هذا ألقي إليهم بنفسه . واضطر إلى استخدام كل قوته حتى يصمد فلا يزاح عن مكانه قبل أن يحصل على نصيبه .

وعندما وصلوا إلى الشارع مرة أخرى ، ووقفوا يأكلون الأرز ، أكل حتى شبع ، وتبقت فضلة في الوعاء . فقال : « سآخذ هذا معي إلى البيت لاكله في

المساء » . ولكن رجلاً كان يقف بجواره ـ ويظهر أنه كان حارساً للمكان إذ كان يرتدي زياً خاصاً من اللونين الأزرق والأحمر ـ قال بحدة : لا ، ليس لك أن تأخذ معك شيئاً غير ما في بطنك ! » فتعجب وانغ لنغ من ذلك القول وقال : « ما دمت قد دفعت بنسي ، فما شأنك أنت إذا حملت الأرز في جوفي أو خارجه ؟ » . وإذا ذاك قال الرجل : لا بد لنا من تطبيق هذه القاعدة ، لأن هناك من قست قلوبهم إلى حد أنهم يأتون ويشترون هذا الأرز المخصص للفقراء ـ فإن ما يباع ببنس عادة لا يكفي لأن يغذي رجلاً بهذه الدرجة ـ وهم يحملون الأرز بعد ذلك إلى بيوتهم ليطعموا به خنازيرهم .. وهذا الأرز معد للناس لا للخنازير » .

وأصغي وانغ لنغ لهذا في دهشة ، ثم صاح : « أهناك من بلغت بهم القسوة هذا الحد ؟ » . ثم أردف : « ولكن لماذا يوهب شيء كهذا للفقراء ، ومن الذي يهبه ؟ » . وهنا أجابه الرجل : « إنهم أغنياء المدينة وسراتها ، وبعضهم يفعل هذا كحسنة يدخرها للمستقبل ، ليلقي ثواباً في السماء بإنقاذه أرواح الناس . . وبعضهم يفعل لكي يبدو طيباً فيمتدحه الناس ! » . فقال وانغ لنغ : « ومع هذا فهو عمل طيب ، أياً كان السبب ، ولا بد ان البعض يصدرون فيه عن طيبة قلب » . وإذ رأى الرجل لا يجيب ، أضاف معززاً رأيه : « هناك بضعة أفراد ـ على الأقل ـ من هذا النوع . أليس كذلك ؟ » .

ولكن الرجل كان قد مل الكلام معه ، فأشاح عنه ، وأخذ يدندن لحناً شارداً . وتعلق الولدان بوانغ لنغ إذ ذاك ، فقاد الجميع إلى الكوخ الذي صنعوه وهناك ، استلقوا على الأرض وناموا إلى صباح اليوم التالي . فقد كانت هذه أول مرة – منذ الصيف – تمتلىء بطونهم بالطعام ، فاستولى عليهم النوم تماماً .

وفي الصباح التالي ، كان من الضروري تدبير نقود أخرى ، إذ كانوا قد أنفقوا آخر عملة نحاسية في شراء أرز الصباح . ونظر وانغ لنغ إلى « أولان »

وهو في شك مما ينبغي ان يعمل ، ولكن نظراته خلت من اليأس الذي كان يشوبها وهما في حقولها الجدباء الخاوية . ذلك لأنه لم يكن من المحتمل لرجل أن يموت هو وأطفاله جوعاً هنا ، حيث الناس يروحون ويغدون في الشوارع وعليهم أمارات الشبع ، وحيث يتوافر اللحم والخضر في الأسواق ، والأسماك تسبح في أوعية سوق السمك . كان الحال هنا غير الحال في بلدهم ، حيث لم تكن الفضة ذاتها تجدي في شراء الطعام ، لأنه لم يكن هناك طعام يشترى .

واجابته أولان في هدوء وثبات ، وكأنما هذه هي الحياة التي عهدتها على الدوام . « استطيع أنا والطفلان ان نستجدي الناس . وهذا ما يستطيعه الشيخ كذلك . إن شعره الأشيب سيحرك إشفاق بعض من لا يجودون على » . ونادت الولدين ، وكانا — شأن الأطفال — قد نسيا كل شيء اللهم إلا انهما وجدا الطعام مرة أخرى ، وأنهما كانا في مكان غريب ، ومن ثم هرعا إلى الشارع ووقفا يحملقان في كل ما كان يمر بهما وقالت لهما أمهما : « فليأخذ كل منكما وعاء ويمسكه هكذا ، ويصيح هكذا .. » . وتناولت وعاءها الفارغ ، وبسطت به يدها ، ونادت بطريقة تقطع نياط القلوب : شفقة يا سيدي الطيب ، رحمة يا سيدتي الطيبة ليلن قلبك لي.. افعل خيراً تلقه في السماء !.. إن الصدقة الضئيلة — العملة النحاسية التي تجود بها — تطعم طفلاً يموت جوعاً ! »

وحملق الغلامان فيها ، وكذلك فعل وانغ لنغ .. اين تعلمت أن تقول هذا ؟ ما أكثر ما كان يجهله عن هذه المرأة .. وأجابت نظرته بقولها : كنت أصيح هكذا وانا طفلة ، وهكذا كنت اجد قوتي . ففي عام كهذا باعوني جارية ! ثم استيقظ الشيخ — الذي كان نائماً — فناولاه وعاءه . وانطلق الأربعة إلى الطريق ليستجدوا وشرعت المرأة تنادي وتهز وعاءها لكل مار وكانت قد ألقت طفلتها على صدرها العاري . فنامت الطفلة واخذ رأسها يتأرجح من جانب إلى آخر كلما تحركت الأم وهي تجري هنا وهناك والوعاء ممدود أمامها . وكانت تشير إلى الطفلة وهي تستجدي ، وترفع صوتها قائلة : إن لم تجد علي يا

سيدي الطبيب – او يا سيدتي الطيبة – فستموت هذه الطفلة . إننا نتضور جوعاً .. والواقع ان الطفلة كانت تبدو كالميتة ، ورأسها يتأرجح من هنا إلى هناك ، فألقى نفر قليل من المارة ببعض العملات الصغيرة إليها ، وهم كارهون ولكن الولدين لم يلبثا بعد وهلة قصيرة ان وجدا في الاستجداء نوعاً من اللعب. وكان الطفل اكبر مستحيياً ، يبتسم في ارتباك وهو يستجدي . فما إن لمحتهما امهما ، حتى جرتهما إلى الكوخ ، وانهالت بالصفعات الشديدة على وجهيهما ، وانبتهما بغضب شديد : اتزعمان للناس انكما تموتان جوعاً ، ثم تضحكان في في الوقت ذاته !.. يا لكما من غبيين ! .. إذن موتا من الجوع بحق .. واخذت تلطمهما من جديد ، حتى تورمت يداها ، وحتى انسابت الدموع مدرارة على وجهيهما ، حتى تورمت يداها ، وحتى انسابت الدموع مدرارة على وجهيهما ، وراحا يشهقان فأعادتهما إلى الخارج قائلة . الآن تصلحان للتسول . وستلقيان هذا واكثر منه ، إذا عدتما إلى الضحك !

اما وانغ لنغ فقد انطلق في الشوارع ، يسأل هنا وهناك ، حتى اهتدى الى إلى مكان تؤجر فيه عربات « الريكشا » فاستأجر واحدة ليوم واحد ، لقاء نصف قطعة من العملة الفضية المستديرة ، تدفع عند الليل ، ثم جر المركبة خلفه إلى الطريق .

وخيل إليه وهو يجر هذه المركبة الخشبية ذات العجلتين وراءه ، أن كل إنسان كان يتأمله كما لو كان احمق . كان مرتبكاً بين ذراعيها كثور يشد للمرة الأولى إلى المحراث ، لا يكاد يقوي على السير . ومع ذلك فقد كان لزاماً عليه أن يجري إذا اراد ان يكسب عيشه ، إذ كان ثمة رجال يعدون هنا وهناك وفي كل شوارع هذه المدينة ، وهم يجرون آخرين في مركبات كهذه . واتجه إلى شارع جانبي ضيق ، لم تكن فيه حوانيت ، وإنما كل ما فيه ابواب منازل خاصة مغلقة. وأخذ يذرعه ليتدرب على الجر . وفي اللحظة التي قال فيها لنفسه – في قنوط – إنه من الخير له أن يستجدي ، فتح باب إحدى الدور وبرز شيخ يضع منظاراً

على عينيه ، بثياب توحي بأنه مدرس فناداه .

وشرع وانغ لنغ – في بادىء الأمر – يذكر للرجل أنه كان جديداً في هذه المهنة ولا يستطيـع ان يعدو به ، ولكن الشيخ كان أصم ، لأنه لم يسمع شيئاً مما قاله وانغ لنغ ، بل أكتفى بأن أشار إليه ليخفض ذراعي المركبة حتى يستقلها. فأطاع وانغ لنغ ، وهو لا يدري ماذا يفعل غير هذا ، شاعر بأنـه مضطر الى هذا بحكم صمم الشيخ ، ومظهره المهندم الناطق بحسن الثقافة . وما لبث الشيخ أن استوى في المقعد ، وقال له ، خذني الى معبد كونفوشيروس ! . وكان يجلس منتصب القامة وفي هدوء ما لم يدع سبيلاً لسؤال . ومن ثم اندفع وانغ لنغ قدماً – كما رأى غيره يفعل – برغم انه لم تكن لديه أتفه معرفة بموقع معبد كونفوشيوس. ولكنه راح يسأل وهو منطلق . ولما كانت طريقه تتخلل شوارع مزدحمـة ، تغص بالباعة الرائحين الغادين بسلالهم ، والنسوة الذاهبات الى السوق ، والمركبات التي تجرها الخيول ، وكثير من المركبات الأخرى كتلك التي كان يجرها ، وكل شيء يكاد يلتصق بالآخر ، فلا سبيل الى الجري ، فقد سار وانغ لنغ بأسرع ما استطاع ، وهو يشعر دائما برجرجة الحمل الجاثم خلفه . وكان معتاداً على حمل الأثقال على ظهره وليس جرها خلفه ، فلم تلبث ذراعاه أن نضحتا بالألم ، ويداه أن تقرحتا قبل أن تلوح جدران المعبد لناظريه . ذلك ان ذراعي المركبة كانا يحتكان بأجزاء من راحتيه لم تكن الفأس تمسها .

وترجل المدرس المسن من « الريكشا » ، عندما خفضها وانغ لنغ – إذ بلغ أبواب المعبد – ودس يده عميقاً في صدره ، ثم أخرج قطعة عملة فضية صغيرة أعطاها لوانغ لنغ قائلاً : « لن أدفع أكثر من هذه ، ولا فائدة من الشكوى » واستدار بعد هذا ودخل الى المعبد .

الفصل الثاني عشر

لما هدأت سورة الجوع الأولى لدى وانغ لنغ ، ورأى أولاده يحصلون يومياً على ما يأكلون ، وأدرك ان ثمة ارزاً يمكن الحصول عليه في كل صباح ، وأن عمله اليومي واستجداء « أولان » كانا كافيين لدفع ثمن هذا الأرز تبددت غرابة حياته الجديدة ، وبدأ يلم بهذه المدينة التي تعلق بأهدابها . وتعلم من جريـه في الشوارع كل يوم طوال النهار ، أن يتعرف على المدينـــة بشكل من الأشكال ، ورأى هذا وذاك من أرجائها الخفية ، وعرف ان الناس الذين يجرهم في مركبته في الصباح يقصدون ـ إذا كانوا من النساء ـ إلى السوق ، وإذا كانوا رجالاً فإنهم يذهبون إلى المدارس وإلى دور الأعمال . ولكنه لم يؤت سبيلاً إلى معرفة أي نوع من المدارس كانت تلك ، سوى أنها كانت تدعى بأسماء من قبيل : «المدرسة الكبرى للتعليم الغربي » أو « مدرسة الصين الكبرى » ذلك لأنه لم يذهب إلى أبعد من أبوابها ، ولو أنه دخلها فقد كان يدرك أنه لابد من ان يأتيه من يسأله عما يفعله في غير المكان اللائق به . كما لم يكن يعرف أي نوع من دور الأعمال كانت تلك التي ينقل إليها الرجال ، فقد كان ما يعنيه هو ان يتقاضى أجره .

وعرف أنه كان ينقل ـ الرجال في المساء ـ إلى مشارب الشاي الكبيرة وأماكن اللهو ،اللهو المكشوف الذي ينساب إلى الشوارع ممثلاً في صوت الموسيقى وارتطام قطع العاج والقاب بموائد القمار الخشبية في أثناء اللعب ،واللهو السري ، الصامت ، المستتر وراء الجدران . ولكن وانغ لنغ لم يختبر أي نوع من هـــذه الملاهي بنفسه ، إذ لم تكن قدماه تتخطيان عتبة غير عتبة كوخه ، وكان طريقه ينتهي دائماً إلى خارج بوابة او أخرى . كان يعيش في المدينة الغنية غريباً كفأر.

ولم يكن وانغ لنغ قد فكر في الشكوى ، إذ لم يكن قد سبق له ان رأى هذه العملة ، فلم يكن يعرف بكم « بنس » يمكن استبدالها فذهب إلى محل للأرز قريب ، تصرف فيه النقود، فأعطاه الصراف ستة وعشرين بنساً، وعجب وانغ لنغ للسهولة التي يحصل بها المرء على المال في الجنوب . ولكن سائق « ريكشا » آخر وقف بجواره وهو يعد النقود ، وقال له: ستة وعشرين فقط؟. ما مدى المسافة التي جررت فيها هذا الكهل ؟ وعندما أخبره وانغ لنغ ، صاح الرجل : « ياله من كهل قاسي القلب !.. إنـــه لم يعطك سوى نصف الأجر المناسب . على كم ساومته قبل ان تجره ؟ » فأجـــاب وانغ لنغ : « إنني لم أساومه . لقد قال لي : تعال ، فذهبت إليه ! » فنظر الرجل الاخر إليه في إشفاق ، وصاح للواقفين حوله : « هاكم جلفاً ريفياً . بضفيرته ، وكل شيء!. يقول له شخص ما تعال ، فيذهب ، ولا يسأل هذا الغبي ابن الأغبياء أبداً : « كم ستدفع لي إذا لبيت نداءك ؟ » . ألا فاعلم أيها الأبله ان الأجانب البيض وحدهم هم الذين يؤخذون بغير مساومة ! إن طباعهم كالجير غير المطفأ ، ولكنهم إذا قالوا تعال ! كان لك ان تذهب مطمئناً إليهم، لأنهم من البلاهة بحيث لا يعرفون الثمن الحقيقي لأي شيء ، بل يتركون الفضة تسيل من جيوبهم كالماء » . وضحك لهذا الكلام كل الواقفين .

ولم يقل وانغ لنغ شيئاً ، فقد شعر في الواقع بأنه حقير وجاهل وسط هذا الحشد من اهل المدينة ، فجذب مركبته مبتعداً ، دون ان يرد بكلمة . وإنما قال لنفسه بعناد : « إن هذه النقود رغم كل شيء ستطعم اطفالي غداً » ، ولكنه تذكر ان عليه ان يدفع أجر المركبة بالليل ، وأن المبلغ لم يكن يعدو نصف هذا الأجر .

ونقل راكباً آخر في الصباح ، وقد ساوم هـــذا الراكب واتفق معه على الأجر ، وبعد الظهر نقل راكبين آخرين ، ولكنه عندما أحصى – في الليل – كل ما حصل عليه من نقود لم يجد سوى بنس واحد فوق أجر المركبة ، فعاد

إلى كوخه في غم كبير ، وهو يقول لنفسه : « إنه مقابل جهد أشد من عمل يوم كامل في الحقل ـ في موسم الحصاد ـ لم يكسب سوى درهم نحاسي واحد !.. » وإذ ذاك ، طغت عليه ذكرى أرضه . لم يكن قد تذكرها مرة واحدة طيلة هذا اليوم العجيب ، أما الان ، فإن التفكير فيها ـ وفي أنها ، وإن كانت بعيدة ، لا تزال باقية في انتظاره ملكاً له ـ ملأ نفسه هدوءاً وسكينة وهكذا عاد إلى كوخه .

وعندما دخل وجد أن « أولان » قد حصلت من الاستجداء في يومها على أربعين قطعة من العملة الصغيرة تنقص قيمتها عن خمسة بنسات . أما الولدان فقد جمع الابن الأكبر ثماني قطع من العملة ، والأصغر ثلاث عشرة قطعة . ويجمع هذه القطع توافر ما يكفي لشراء أرز الصباح ولكنهم عندما ضموا النقود التي جمعها الإبن الأصغر إلى جملة النقود ، راح يبكي من أجل ماله ، إذ أنه أحب النقود التي استجداها . ونام في هذه الليلة ونقوده في يده ، فلم يستطيعوا أخذها منه حتى قدمها بنفسه ليحصل على أرزه .

أما الشيخ فلم يكسب شيئاً على الإطلاق : وكان قد جلس طيلة يومه إلى جانب الطريق منصاعاً ، ولكنه لم يكن يستجدي ، وإنما راح ينام ليستيقظ ويحملق في كل ما يمر به ، حتى إذا تعب نام من جديد . ولم يستطع أحد ان يوجه إليه لوماً لكبر سنه . ولما رأى يديه خاليتين ، اكتفى بأن : « طالما حرثت الأرض ، وبذرت البذور ، وجنيت المحصول ، وهكذا ملأت قدري أرزاً . ثم إنني فضلاً عن ذلك قد أنجبت ولداً وأحفاداً » وبهذا القول كان مطمئناً إلى أنه جدير بأن يطعم ، ما دام له ابن وأحفاد .

على أن القرية الصغيرة المؤلفة من الحظائر الملاصقة للسور ، لم تصبح قط جزاء من المدينة ، ولا من الريف الممتد وراءها . وقد حدث ذات مرة ان سمع وانغ لنغ شاباً يخطب في حشد من الناس عند ركن معبد كونفوشيوس ، حيث كان لأي إنسان ان يخطب إذا أوتي الشجاعة على الكلام . وقد قال الشاب

إنه لابد للصين من الثورة ومن أن تقوم ضد الأجانب المكروهين فذعر وانغ لنغ وتسلل مبتعداً ، وهو يشعر بأنه هو الأجنبي الذي كان الشاب يتحدث عنه بهذه الحرارة وعندما سمع في يوم آخر شاباً آخر يخطب - إذ اكانت هذه المدينة ملأى بالشبان الخطباء - ويقول وهو متخذ مكانه على ناصية شارع وانغ لنغ إن على اهل الصين ان يتحدوا وأن يثقفوا أنفسهم في هذا العصر ، لم يخطر لوانغ ولنغ أنه ممن كان الحديث موجه إليهم .

ولم يقدر له ان يعرف - خيراً مما كان يعرف - إن في المدينة أجانب يفوقونه غربة ، إلا عندما كان ذات يوم في شارع أسواق الحرير ينشد راكباً فقد حدث - في ذلك اليوم - ان مر بباب متجر كانت السيدات يخرجن منه من وقت إلى آخر ، بعد شراء الأقمشة الحريرية ، فكان يظفر أحياناً من بينهم براكبة تدفع له أجر أكبر مما يدفع أي شخص آخر . وفي هذا اليوم خرج عليه فجأة شخص لم ير له مثيلاً من قبل . ولم يدر أهو ذكر أم أنثى ؛ ولكنه كان طويل القامة ، في ثوب أسود سابغ من قماش خشن سميك ، وحول عنقه جلد حيوان ميت . وعندما مر به الشخص - ذكر كان أم أنثى - أشار إليه بجدة ان يخفض ذراعي المركبة ، ففعل . وعندما انتصب ثانية ، وهو مبهوت لما جرى له ، طلب إليه الشخص بلكنة مكسرة ان يتوجه إلى شارع الجسور ، فشرع يعدو مسرعاً ، وهو لا يكاد يدري ما كان يفعل ، وصادف زميلاً له كان قد تعرف به في سباق العمل ، فنـــاداه متسائلاً : « انظر .. ما هذا الذي أجره ؟ » فأجابه الرجل صائحاً « أجنبية .. إنها أنثي من امريكا .. يا لك من ثري » .

ولكن وانغ لنغ راح يجري بأسرع ما استطاع ، خوفاً من المخلوق الغريب القابع وراءه . وعندما وصل إلى شارع الجسور ، كان منهوكاً ، يتصبب جسمه عرقاً . وآنذاك ترجلت الأنثى ، وقالت له بنفس اللكنة المكسرة : « ما كانت هناك حاجة لأن تجري حتى تميت نفسك » . وتركته وفي كفه قطعتان من

الفضة ، كانتا ضعف الأجر المعتاد . وإذ ذاك عرف وانغ لنغ أنها أجنبية فعلا بل أنها أجنبية أكثر منه في هذه المدينة، كما أدرك ان الناس ذوى الشعر الأسود والعيون السوداء ينتمون إلى جنس واحد مهما يكن من أمر ، وأن الناس ذوى الشعر الفاتح والعيون الفاتحة ينتمون إلى جنس آخر ، فلم يعد يشعر أنه اجنبي تماماً عن هذه المدينة . وعندما عاد إلى الكوخ في تلك الليلة ، ومعه العملة الفضية التي تلقاها لم تمس ، روى لأولان ما حدث ، فقالت : « لقد شاهدت هؤلاء الأجانب ، وكنت أستجديهم دائماً، فهم الوحيدون الذين يلقون فيوعائي عملة فضية وليست نحاسية .

ولكن وانغ لنغ وزوجته ـ على السواء ـ لم يشعرا بأن الأجنبي يجود بالنقود الفضية عن طيبة قلب ، وإنما هو يصدر عن جهل وقلة دراية بأن العملةالنحاسية أنسب من الفضية لكي توهب للمتسولين .

على ان وانغ لنغ تعلم من هذه التجربة ما لم يعلمه إياه الخطباء الشبان تعلم انه واحد من بني قومه ذوى الشعر الأسود والعيون السوداء .

وبدا أنه على الأقل لن يكون هناك خوف من نضوب الغذاء ، ما داموا مقيمين في مشارف هذه المدينة العظيمة الممتدة المبسطة . كان وانغ لنغ وأسرته قد أقبلوا من بلاد إذا مات الناس فيها جوعاً ، فما ذلك إلا لعدم وجود الغذاء، إذ ان الأرض لا يمكن ان تثمر تحت سماء قاسية ، ومن ثم فلم تكن للفضة قيمة تذكر لأنها لم تكن تستطيع شراء شيء في بلاد لا يوجد فيها شيء .

اما في المدينة ، فقد كان الطعام في كل مكان . كانت الشوارع المرصوفة بالأحجار ـ في سوق السمك ـ تزخر بسلال كبيرة صفت على جانبيها ، مملوءة بالسمك الفضي الكبير ، الذي يصاد في الليل من النهر المكتظ بالاسماك، وبأوعية خشبية حافلة بسمك صغير لامع ـ صيد بالشباك من البرك ـ وبأكوام من السرطان البحري الأصفر اللون تتلوى وترقص في دهشة واحتداد وثعابين الماء الدسمة للشرهين في الولائم . وفي أسواق الحبوب كانت ثمة سلال مملوءة بالحبوب

إلى درجة يستطيع معها الإنسان ان يغوص فيها ويختنق دون ان يدري بـه إلا من يراه .

كذلك الحال في المتاجر التي كانت تبيع الأوز والديوك وكل أنواع الدواجن. وما تشتهيه نفس الإنسان إلا وكان موجوداً في شوارع أسواق المدينة .

أجل ، كان من حق المرء ان يقول إنه لا سبيل إلى ان يموت إنسان مـن الجوع في هذه المدينة . ومع ذلك ، فقد ظل وانغ لنغ واسرته يغادرون كوخهم بعد فجر كل يوم بقليل – ومعهم أوعية الأرز وعيدان الأكل ، فيؤلفون جمعية صغيرة في موكب طويل من الناس، خرج كل منهم من كوخه وهو يرتعد تحت ثيابه الخفيفة التي لم تكن تصد رطوبة ضباب النهر ، وكانوا يمشون منحنين – في مواجهة رياح الصباح الباردة – إلى المطابخ الشعبية ، حيث يستطيع المرء يشتري ببنس ملء وعاء من عصيدة الأرز الخفيفة. وبرغم كل ما كان وانغ لنغ يبذله في جر المركبة والعدو أمامها ، وبرغم كل استجداء أولان ، لم يستطيعا قط ان يكسبا ما يكفي لطهو الأرز يومياً في كوخهم . ولو توفر بنس فوق ثمن الأرز في المطاعم الشعبية ، فإنهما كانا يبتاعان بـه قطعة من الكرنب ، ولكن الكرنب كان يعتبر غالياً على أية حال . إذ كان على الولدين ان ينطلقا باحثين عن الوقود لطهوه بين قالبي الطوب اللذين اعدتهما « أولان » بمثابة فرن .ولكي يحصل الولدان عل الوقود كان عليهما ان يختطفاه من الفلاحين الذين كانوا يحملون الغاب والحشائش إلى أسواق الوقود في المدينة ، وكان أمرهما ينكشف أحياناً فتكال لهما الصفعات والضربات . وقد حدث ذات ليلة ان الصبي الأكبر – وكان أكثر جبنا وخجلا من أعماله من أخيه الأصغر عاد إلى الكوخ وإحدى عينيه متورمة ومقفلة من لكمة من يـد احد الفلاحين . ولكن الصبي الأصغر برع في السرقات الصغيرة ، بل اصبح أكثر براعة فيها منـه في الاستجداء .

ولم تكن أولان تكترث لهذا ، فإذا لم يستطع الغلامان الاستجداء دون

أن يضحكا وأن يلعبا – فليسرقا ليشبعا معدتيهما . ولكن وانغ لنغ – وإن لم يجد ما يرد به على حجتها هذه شعر بحلقه يغص لإقدام ولديه على هذة السرقة ولم يكن يعتب على الأكبر بطأه في هذه المهنة . ولم تكن هذه الحياة المشبوهة في ظل السور الكبير بالحياة التي يحبها وانغ لنغ ، فقد كانت أرضه في انتظاره !

وعاد ذات ليلة متأخراً فإذا في حساء الكرنب قطعة كبيرة مستديرة من لحم الخنزير وكانت هذه اول مرة يحظون فيها بلحم في الطعام منذ ذبحوا ثورهم فاتسعت حدقتا وانغ لنغ دهشة ، وقال لأولان : « لابد أنك استجديت احد الأجانب اليوم ! » . ولكنها كعادتها، لم تقل شيئاً . وعندئذ انبرى الطفل الأصغر – وكان اصغر من ان يكون حكيماً ، كما كان مزهوا ببراعته –فقال: « انا الذي أخذتها .. إن هذا اللحم ملكي ... عندما حول القصاب نظره إلى الجهة الأخرى، بعد ان قطع هذه الشريحة من القطعة الكبيرة التي امامه تسللت من تحت ذراع امرأة عجوز جاءت لتشتريها ، واختطفتها ، ثم عدوت إلى إحدى الحارات ، واختبأت في قدر جف منها الماء وراء إحدى البوابات حتى جاء أخي الأكبر » . فصاح وانغ لنغ في غضب : « إذن فلن آكل هذا اللحم لن نأكل سوى اللحم الذي نستطيع ان نشتريه او نتسوله ، لا الذي نسرقه .. فنحن نكون متسولين ولكننا لن نكون لصوصاً ! » .

وتناول قطعة اللحم من الوعاء بأصبعين ، وألقاها على الأرض غير مكترث لبكاء الصبي الصغير .

وعندئذ تقدمت أولان بخطواتها المتزنة المعهودة ، والتقطت قطعة اللحم ، وغسلتها بقليل من الماء ، ثم ألقتها ثانية إلى القدر التي كان الماء يغلي فيها وقالت بهدوء : « إن اللحم هو اللحم ! » . ولم يقل وانغ لنغ شيئا إذ ذاك ، ولكنه كان غاضباً ، وخائفا في قرارة نفسه لأن ابنيه كانا يشبان على اللصوصية في هذه المدينة . ومع انه لم يقل شيئاعندما قطعت اولان اللحم الطري الناضج بعيدان

الأكل ، ولا عندما اعطت قطعا كبيرة منه إلى الشيخ والولدين ، بل وملأت فم الطفلة الصغيرة به ، واكلت منه هي الأخرى .. إلا انه ابى ان يأخذ منه شيئا ،قانعا بالكرنب الذي اشتراه .ثم اخذ ابنه الأصغر ،بعد انتهاء الوجبة إلى الشارع ،بعيداً عن سمع المراة .. وخلف بيت هناك ، طوى راس الصبي تحت ذراعه ، واخذ يصفعه بشدة على الخدين ،غير مكترث لصراخه وعويله .وكان يصيح به قائلا : « خذ هذه ، وهذه ، وهذه .. هذا جزاء اللص ! » .ولكنه قال لنفسه عندما اطلق الصبي باكيا ليعود للمنزل :

« خير لنا ان نعود إلى الأرض » .

الفصل الثالث عشر

وعاش وانغ لنغ يوماً بعد يوم تحت سماء هذه المدينة الثرية ، جزءاً من أسس الفقر التي قامت عليها . ومع الطعام الذي كان يفيض من الأسواق ، ومع شوارع حوانيت الحرير ـ تتطاير فيها الأعلام الزاهية من الحرير الأسود والأحمر والبرتقالي للإعلان عن سلعها ـ ومع الأثرياء المسربلين بالستان والقطنية ، الأثرياء ذوي الأجسام الناعمة التي تكسوها الملابس الحريرية والأيدي التي تشبه الزهور في رقتها وأريجها وجمالها الناشيء عن البطالة والخمول .. مع توفر كل معالم الجمال الملوكي في هذه المدينة ، لم يكن في ذلك الجزء ـ الذي كان وانغ لنغ يعيش فيه من الطعام ما يسد غائلة الجوع الضاري ، ولا من الملابس ما يكفي لستر العظام ..

وكان الرجال يكدحون طول اليوم في خبز الفطائر والخبز لولائم الأثرياء ، والأطفال يجدون في الفجر حتى منتصف الليل ، ثم ينامون كما هم وكلهم شحم وقذارة فوق حشيات خشنة على الأرض ؛ ثم ينهضون مترنحين الى الأفران في اليوم التالي .. ومع ذلك فلم تكن تعطى لهم نقود تكفي لشراء قطعة من أنواع الخبز الفاخرة التي كانوا يصنعونها للغير. وكان الرجال والنساء على السواء يعملون في تفصيل وإعداد الفراء الثقيلة للشتاء ، والفراء الخفيفة الناعمة للربيع ، وانواع الحرير الثقيل الموشى ليقصوها ويشكلوها ثياباً فاخرة لأولئك الذين كانوا يأكلون من وفرة الأسواق . أما هم ، فكانوا يختطفون لأنفسهم قطعاً من القماش الأزرق الخشن ، يخيطون أطرافها بعجلة ليستروا اجسامهم العارية ..

وكان وانغ لنغ ـ وهو يعيش بين اولئك الذين يكدحون لينعم سواهم ـ

قد سمع كثيراً من الغرائب لم يكترث لها كثيراً ، والحق ان المسنين من الرجال والنساء لم يكونوا يقولون شيئاً لأحد .. كان ذوو اللحى الشيباء يجرون مركبات « الريكشا » ، ويدفعون عربات الفحم والخشب إلى المخابز والقصور ، ويشدون ظهورهم حتى تطفر عضلاتهم بارزة كالحبال ، وهم يدفعون العربات الثقيلة المحملة بالسلع فوق أرض الشوارع المرصوفة بالأحجار ، ويقتصدون في استهلاك طعامهم القليل ، وينامون في العراء أغلب لياليهم .. وهم مع ذلك صامتون ! ..وكانت وجوههم كوجه « أولان » بليدة لا تعبر عن شيء . فلا أحد يعرف ما يجري في عقولهم . وإذا قدر لهم أن يتكلموا ، انحصر كلامهم في الطعام أو البنسات ، ونادراً ما كانت كلمة الفضة تنطلق من شفـــاههم ، لأن الفضة نادراً ما كانت تصل إلى أيديهم ..

كانت وجوههم في استرخائها ملتوية كأنها في غضب ، ولكنه لم يكن غضباً ، وأنما كان أعواماً من العناء في حمل أثقال تفوق قوتهم ، مما جعل شفاههم العليا ترتفع فتكشف عن أسنانهم فيما يشبه الزمجرة ، كما حفر هذا الكدح غضوناً غائرة في اللحم المحيط بعيونهم وأفواههم .. حتى هم أنفسهم ، لم تكن لديهم ، أية فكرة عن أنفسهم ، أي نوع من الناس كانوا . وقد صاح أحدهم يوماً ، إذ رأى صورته في مرآة كانت في مركبة تنقل بعض الأمتعة المنزلية : « ذلكم فتى قبيح الوجه ! » وعندما قهقه الآخرون منه ، جهد حتى ابتسم ، دون أن يعرف البتة ما الذي أضحكهم . وتلفت حوله بسرعة ليرى إن كان قد أساء لأحد ما ..

وكان الشيوخ والعجائز يرتضون الحياة التي أتيحت لهم ، ولكن الغلمان كانوا لا يلبثون أن ينموا ويصلوا إلى سن معينة ، قبل اكتهـــالهم ، وبعد أن يودعوا الطفولة ، فإذا بهم إذ ذاك مفعمون بالسخط والتبرم .. وبين الشباب كان يدور حـــديث غاضب مزمجر . فإذا ما اكتملت رجولتهم ـ بعد ذلك ـ وتزوجوا ، كان الاستياء من تزايد أعدادهم باضطراد يملأ قلوبهم . وكان شتات الغضب الذي خامرهم في شبابهم يتحول إلى يأس جامح وإلى ثورة أعمق من أن

يعبر عنها بمجرد كلمات . ذلك لأنهم برحوا طول حياتهم يكدحون أكثر من البهائم ، دون أن يربو أجرهم عن مجرد حفنة من النفايات يملأون بها بطونهم ..

وإذا أنصت وانغ لنغ ذات مساء إلى حديث من هـذا القبيل ، سمع للمرة الأولى عما كان يجري في الجـانب الآخر من السور العظيم الذي التصقت به صفوف أكواخهم .

كان ذلك في نهاية يوم من الأيام الأخيرة في الشتاء ، عندما يلوح -لأول مرة- أن الربيـع محتمل القدوم . وكانت الأرض حول الأكواخ لا تزال موحلة من جراء الثلج الذائب ، والمياه تنساب إلى داخل الأكواخ ، مما حمل كل أسرة على البحث هنا وهناك عن بضع أحجار لتنام عليها . ولكن مضايقة الأرض المبتلة اقترنت في تلك الليلة بجو معتدل لطيف ، فإذا اعتداله يثير قلقاً بالغاً في نفس وانغ لنغ ، فلم يتمكن من النوم في الحال ، كما كانت عادته بعد الأكل ، ومن ثم فقد خرج إلى حافة الشارع ، ووقف في تكاسل ..

وكان والده قد اعتاد أن يجلس القرفصاء في هـذا المكان ، مستنداً إلى السور . وكان في تلك الليلة جالساً هناك ، وقد اصطحب وعاء أكله ليتناول عشاءه ، بعد أن أصبح الكوخ يضيق بالأولاد وقد اشتد صخبهم . وكان الشيخ يمسك في إحدى يديه بالطرف غير المعقود لحبل من قماش قطعته « أولان » من حزامها .. وفي داخل العقدة عند الطرف الآخر ، كانت الطفلة تمشي متعثرة جيئة وذهاباً دون أن تقع .. وهكذا اعتاد الشيخ أن يقضي أوقاته يرعى هذه الطفلة التي كانت قد نمت وأصبحت تتمرد على البقاء في حضن امها وهي تستجدي. هذا بالإضافة إلى ان « اولان » كانت حبلى مرة اخرى واصبح ضغط الطفلة الكبيرة عليها من الخارج أكثر إيلاماً من ان تطيقه .

وأخذ وانغ لنغ يرقب الطفلة وهي تسقط وتتحامل ثم تسقط من جديد ، والشيخ يجذب طرف الحبل . وشعر في وقفته هذه بلطف ريح المساء فثار في

نفسه حنين طاغ الى حقوله . وقال لوالده بصوت عال : « في يوم كهذا ينبغي تقليب ارض الحقول وزراعة القمح » . فأجاب الشيخ بهدوء : « آه ، كنت اعرف ما يجول بخاطرك . لقد اضطررت مرتين ، ثم مرتين أخريين ، فيما مر بي من السنين ، الى أن افعل ما فعلنا في العام الحالي ، وان اهجر الحقول ، وان ادرك انه ليس فيها بذور لمحاصيل جديدة » .

فقال وانغ لنغ : « ولكنك كنت تعود إليهــا على الدوام يا أبي . » فقال الشيخ ببساطة : « لأن الأرض كانت موجودة يا بني » .

وقال وانغ لنغ في نفسه انه لا بد لهم هم الآخرون من ان يعودوا ، إن لم يكن هذا العام ففي العام القادم ، ما دامت الأرض باقية .. وإذا فكرة بقائها في انتظاره ، وقد اخصبت بفضل إمطار الربيـع ، تملأه رغبة .فعاد إلى الكوخ وقال لزوجته في خشونة : « لو كان لدي ما يباع لبعته وعدت إلى الأرض .. ولولا الرأس العجوز لسرنا على الأقدام عائدين ولو متنا جوعاً ، ولكن كيف يتسنى له وللطفلة الصغيرة أن يسيرا مائة ميل ؟ وكذلك انت بحملك الجديد » . وكانت اولان تشطف اواني الارز بقليل من الماء ، ثم وضعتها كومة واحدة في ركن الكوخ ، ونظرت الى زوجها من البقعة التي اقعت فيها ، وقالت ببطء : « ليس لدينا ما يباع غير الطفلة ! » . وامسك وانغ لنغ انفــاسه . ثم هتف بصوت مرتفع : « لا.. لن ابيع طفلة .. » فأجابت بلهجة اكثر بطئاً : « لقد تعرضت انا للبيــع .. باعوني لبيت كبير ، لكي يتمكن والداي من العودة الى بلدهما فسألها وانغ لنغ : »

– وهل تبيعين الطفلة لهذا ؟

قالت : « لو كان الأمر بيدي وحدي ، انا التي كنت جارية الجواري ، لفضلت ان اقتلها قبل ان ابيعها . ولكن طفلة ميتة لن تأتينــا بشيء ، واني لأوثر ان ابيــع هذه البنت من اجلك انت لأردك الى ارضك .. »

فقال وانغ لنغ في خشونة :

ـ اما انا فلن اقبل ابداً ، ولو قضيت حياتي كلها في هذه المجاهل ..

ولكنه عندما خرج من الكوخ مرة اخرى ، عاودته الفكرة التي ما كانت لتواتيه قط من تلقاء نفسه ، وراحت تغريه على الرغم منه وأخذ يتأمل الطفلة وهي تترنح عند طرف الحبل الذي كان جدها يمسكه ، كانت قد نمت كثيراً بفضل الطعام الذي كان يقدم لها يومياً . ومع أنها لم تكن نطقت بعد بكلمة واحدة ، إلا انها كانت ممتلئة الجسم كأي طفل يظفر بشيء من العناية ، وقد اصبحت شفتاها ـ اللتان كانتا كشفتي العجوز ـ حمراوين مبتسمتين .. وكما كان شأنها في الماضي ازدادت مرحاً عندما نظر إليها ، وابتسمت فقال يحدث نفسه : « لعلي كنت ابيعها لو لم تكن قد رقدت على صدري وابتسمت لي كما تفعل الآن » .

ولكنه عاد يفكر في ارضه . فصاح في وجد : « ألن يقدر لي ان اراها مرة اخرى ؟ .. برغم كل هذا العمل الشاق والاستجداء ، لا يتوفر لنا قط أكثر من ثمن طعامنا اليومي » . وهنا رد عليه من جوف الظلام صوت عميق يقول : « لست الوحيد في هذا ، بل هناك مئات من امثالك في هذه المدينة » .

واقترب صاحب الصوت وهو يدخن غليوناً صغيراً من الغاب ، فإذا به رب الأسرة التي تقطن الكوخ الذي يفصله عن كوخ وانغ لنغ كوخان. وكان نادراً ما يشاهد في ضوء النهار ، إذ كان ينام طول النهار ، ويعمل في الليل في جر مركبات البضائع الثقيلة التي كانت اضخم من ان تجري في الطرقات بالنهار حين يتحتم على المركبات الأخرى ان تمر باستمرار بجوار بعضها ولكن وانغ لنغ كان احياناً يراه وهو يزحف إلى كوخه في الفجر لاهثاً ، منهوك القوى ، وقد تهدلت كتفاه العريضتان البارزتان العظام فكان وانغ لنغ يمر به هكذا عند الغسق ـ قبيل موعد عمله الليلي ـ ويقف مع الآخرين الذين يتأهبون للدخول إلى اكواخهم للنوم.

وتساءل وانغ لنغ بمرارة : « اتستمر الحال هكذا الى الأبد؟ . فجذب الرجل ثلاثة انفاس من غليونه ، ثم بصق على الأرض . وما لبث ان قال : « لا ، ليس الى الأبد .. فعندما يبلغ الأغنياء من الثراء اكثر مما ينبغي ، تكون هناك طرق ..

وعندما يبلغ الفقراء من الفقر أكثر مما ينبغي ، تكون هناك طرق أخرى .وقد بعنا في الشتاء الماضي ابنتين وتحملنا المأساة. وفي هذا الشتاء إذا كان الجنين الذي تحمله امرأتي أنثى ، فسنبيعها أيضاً . لم استبق سوى جارية واحدة هي الأولى . أما الأخريات فكان من الأفضل ان نبيعهن بدلاً من أن نقتلهن ، وإن كان هناك من يفضل قتلهن قبل أن تدب فيهن أنفاس الحياة . وهذه هي إحدى الطرق التي يسلكها الفقراء إذا اشتد بهم الفقر . أما عندما يزداد الأغنياء ثراء أكثر مما ينبغي ، فهناك طريقة أخرى ، وستأتي عاجلاً إذا لم أكن مخطئاً في حسباني، وأومأ برأسه . واشار بساق غليونه الى السور القائم وراءهما ، وقال : « هل رأيت ما وراء ذاك السور؟» . فهز وانغ لنغ رأسه محلقاً.واستطرد الرجل قائلاً: لقد أخذت إحدى جواري الى هناك لأبيعها فرأيت ما وراءه ولن تصدقني إذا قلت لك كيف يأتي المال ويذهب في ذلك البيت ، ولكني اكتفي بأن أقول لك إن الجميع ، حتى الخدم ، يأكلون بعيدان مصنوعة من العاج ومموهة بالفضة ، إن الجواري يحلين آذانهم باللآليء وأقراط اليشب ، ويخطن اللآليء في أحذيتهن. فإذا علقت قطعة من الطين بالحذاء أو اصابه فتق بسيط مما يعتبره امثالي وامثالك فتقاً يلقين بالحذاء بلألئه بحاله ! » .

واجتذب الرجل انفاساً عميقة من غليونه . وكان وانغ لنغ يصغي إليه فاغراً فاه . إذن فخلف السور امور كهذه حقاً ؟ .. وقال الرجل . « هناك طريقة عندما يبلغ الغني اكثر مما ينبغي. وسكت بعض الوقت . ثم اضاف بغير اكتراث وكأنه لم يقل شيئاً على الإطلاق : « حسناً . اعمل من جديد » . ثم غاب في طيات الليل ..

ولكن وانغ لنغ لم يستطع النوم في تلك الليلة ، لتفكيره في الفضة والذهب واللآليء فيما وراء السور الذي كان جسده يستند إليه ..جسده الذي كان متشحاً بعين الثوب الذي يرتديه اليوم تلو اليوم لأنه لم يؤت ملحفة يتغطى بها ولم يؤت أكثر من حصيرة واحدة تحته موضوعة على قوالب من الطوب . وعاوده إغراء

أن يبيع الطفلة ، ولهذا قال لنفسه : « قد يكون من الأفضل أن تباع لأهل بيت ثري حتى تستطيع أن تأكل الطعام الشهي وتتزين بالجواهر ، إذا قدر لها أن تكبر وتصبح جميلة وتلقى حظوة لدى أحد السادة » . ولكنه رد على نفسه – على الرغم من ارادته – وهو يفكر : « وهبني فعلت .. انها لا تستحق ثقلها ذهباً وياقوتاً . واذا عادت علي بما يمكننا من العودة الى ارضنا فمن اين لنا بما يكفي لشراء بخور ومائدة وفراش ومقاعد مرة اخرى ؟ . أفأبيع الطفلة لنموت جوعاً هناك ، بدلاً من ان نموت جوعاً هنا ؟ .. اننا لا نملك حتى الحبوب لنزرعها في الأرض . ولم يستطع أن يتصور شيئاً عن الطريقة التي كان الرجل يشير اليها عندما قال :

« عندما يبلغ الأغنياء من الغنى اكثر مما ينبغي .. » .

الفصل الرابع عشر

طاب الربيع في قرية الأكواخ ، وأصبح في ميسور أولئك الذين كانوا يستجدون أن يخرجوا الى التلال وأراضي المقابر ، للبحث عن الأعشاب الصغيرة الخضراء والهندباء البرية وغيرها مما أخذ ينبت اوراقاً جديدة ضعيفة ، ولم يعد من الضروري اختطاف الخضر من هنا وهناك ، كما كانت الحال من قبل . فكانت النساء والأطفال ، في أسمالهم البالية ، ينطلقون من الأكواخ أسراباً في كل يوم وفي أيديهم قطع من الصفيح او الأحجار المدببة او السكاكين القديمة ، ومعهم سلال مصنوعة من أغصان الغاب المجدولة ، او من عيدانه المشقوقة ، ليبحثوا في جنبات الريف والطرقات عن الطعام الذي يمكن الحصول عليه بغير الاستجداء وبدون نقود . وفي كل يوم كانت « أولان » والولدان يخرجون مع الجماعات .

أما الرجال فكان لزاماً عليهم ان يظلوا يعملون ، فراح وانغ لنغ يعمل كعادته من قبل وإن كان النهار الدافيء الذي أخذ يزداد طولاً ، وأشعة الشمس ، والأمطار المفاجئة ، قد أشاعت في الجميع شعوراً بالحنين وعدم الرضى . ولقد كانوا يعملون في صمت – إبان الشتاء – متحملين بجلد الثلوج والجليد تحت أقدامهم العارية إلا من نعال من القش ، ثم يعودون الى أكواخهم عندما يحل الظلام ، فيتناولون وهم ساكتين ما يتيحه لهم العمل اليومي الشاق والاستجداء من طعام ، ثم يغطون في النوم – رجالاً ونساء واطفالاً على السواء – ليكتسبوا لأجسامهم ما كان الطعام أتفه وأهزل من ان يوفره لها وهكذا كانت الحال في

كوخ وانغ لنغ . وكان يدرك تمام الإدراك أنها بالتأكيد عين الحال في الأكواخ الأخرى .

ولكن مع قدوم الربيع بدأ الكلام يفيض من قلوبهم فينطلق الى الاسماع من بين شفاهم . وفي المساء عندما كان ضوء الشفق يتباطأ في الانحسار ، كانوا يجتمعون خارج أكواخهم ويتبادلون الحديث سويا . ورأى وانغ لنغ هذا وذاك من الرجال الذين كانوا يقطنون بالقرب منه ولم يتعرف بهم خلال الشتاء ولو ان « أولان » كانت من الثرثارات لبات محتملا ان يكون قد سمع – مثلا – عن هذا الذي يضرب زوجته وعن ذاك الذي أصيب بجذام يأكل خديه ، وذاك الذي كان زعيما لعصابة من اللصوص . ولكنها كانت صامتة أبداً فيما خلا الأسئله المتباعدة التي كانت توجهها ، والإجابات المقتضبة التي كانت ترد بها . ولهذا كان وانغ لنغ يقف متهيبا عند طرف الحلقة التي تضم القوم ، يسمع للأحاديث .

وكان اكثر الرجال الذين يرتدون الأسمال البالية ، لا يملك سوى ما يكسب من العمل اليومي والأستجداء ولهذا كان يشعر دائماً بأنه ليس في الواقع واحداً منهم .

فقد كان يملك أرضه في انتظاره . اما الاخرون فكان تفكيرهم ينصرف إلى كيف يأكلون في غدهم قطعة من سمك ، او الى كيف يقضون ساعة من اللهو ، بل وكيف يقامرون قليلا ببنس او بنسين . إذ كانت ايامهم كلها سواء ملؤهاالشر والإعواز ، وكان الواحد منهم يريد أن يلهو احياناً برغم بأسه . اما وانغ لنغ ، فكان تفكيره منصرفاً الى ارضه . وكان يتدبر – بقلب يراوده الأمل – كيف السبيل إلى العودة إليها .. كان ينتمي ، لا إلى هذه الطغمة المتشبثة بأسوار بيت ثري ، ولا الى بيت الثري ذاته ، وإنما كان ينتمي الى الأرض ، ولا سبيل إلى ان يحيا حياة مكتملة إلا إذا شعر بالأرض تحت قدميه وسار وراء المحراث في الربيع ، وحمل منجلا في يده خلال وقت الحصاد ولهذا

كان يصغي الى احاديثهم وهو يقف على معبده ، لأنه كان في قرارة نفسه موقنا بامتلاك ارضه ، ارض القمح الطيبة التي آلت إليه عن آبائه ، وارض الأرز السخية التي اشتراها من البيت الكبير .

وكان (وانغ انغ) إذا أصغى الى كل ما يودون ان يعملوه لو توافرت لهم هذه الأشياء لم يسمع غير ما كانوا يتصورنه من أكل وافر والنوم طول اليوم وما سيتناولون من أطايب الغذاء التي لم يسبق لهم أن ذاقوه . وكيف سيقامرون في واحد آخر من مشارب الشاي الكبيرة . واي النساء الجميلات كانوا يريدون شراءهن لإشباع شهواتهن ، وأهم من ذلك كله كيف لن يعودوا الى العمل قط مثل الرجل القاطن وراء السور الذي لا يشتغل يوماً. وعند هذا صاح (وانغ لنغ): « لو انني ظفرت بذهب وفضة وجواهر لاشتريت بها أرضاً طيبة ، ولأنتجت المحصولات من هذه الأرض » : وهنا تحولوا إليه جميعا واخذوا يؤنبونه ويقرعونه قائلين : ها هوذا فلاح بضفيرة كذيل الخنزير ، ولا يفهم شيئاً من حياة المدينة ، ولا ما ينبغي عمله بالمال ، يريد ان يظل يكدح في العمل كالعبيد وراء ثور او حمار وشعر كل منهم بأنه احق من (وانغ لنغ) بالثراء لأنهم يعرفون خيراً منه كيف ينفقون المال .

ولكن هذا الازدراء لم يتغير من تفكير (وانغ لنغ) ، وإنما حمله على ان يقول لنفسه ، بدلا من الكلام بصوت عال يسمعه الاخرون : « إنني افضل — رغم ذلك — ان احيل الذهب والفضة والجواهر الى ارض طيبة وفيرة الخصوبة » وبهذا التفكير كان صبره يتناقص يوماً بعد يوم ، شوقاً إلى الأرض التي كانت ملكه . وإذ تسلط عليه هذا التفكير في أرضه ، اصبح (وانغ لنغ) يرى ما يحدث حوله كل يوم في المدينة وكأنه في حلم فارتضى كل شيء على علاته ، لا يسأل تفسيراً ولا إيضاحا عن شيء ، وكل ما يعنيه هو يومه فقط . كان هناك مثلا ذلك المنشور الذي كان الرجال يوزعونه هنا وهناك ، بل ويعطونه هو الاخر منه احياناً .

ولم يكن قد سبق (لوانغ لنغ) ان يتعلم في شبابه ، ولا في أي وقت آخر ، معني الحروف التي تكتب على الورق . ولهذا لم يستطع ان يستخلص شيئا من الأوراق التي كانت مغطاة بعلامات سوداء وملصقة على بوابات المدينة او على الجدران أو تباع بالحفنة او تمنح بغير مقابل ، فقد منح مثلها مرتين .

وكان الذي أعطاه إياها في المرة الأولى أجنبياً مثل تلك السيدة الأجنبية التي جرها بالمصادفة في مركبته ذات يوم .. ولكن هذا الذي أعطاه الورقة كان رجلا ، فارع الطول ، نحيفاً كشجرة جردتها الريح العاصفة من أوراقها . وكان لهذا الرجل عينان في زرقة الثلج ، ووجه كث الشعر وعندما قدم الورقة (لوانغ لنغ) بدت يداه ، فإذا بهما حمروان ومكسوتان بالشعر هما الأخريان . وكان له – فوق ذلك – أنف كبير بارز عن خديه كأنه مقدم سفينة بارز عن جانبيها . ومع أن (وانغ لنغ) خشى أن يأخذ شيئاً منه ، إلا ان خوفه من أن يرفض كان أشد ، وهو يرى عينيه الغريبتين وأنفه المخيف ، لذلك أخذ ما قدم إليه ، وعندما أتته الشجاعة لأن يلقي نظرة على الورقة ، بعد أن ابتعد الأجنبي رأى عليها صورة رجل أبيض البشرة قد علق على صليب من خشب . وكان الرجل مجرداً من الثياب اللهم إلا من قطعة ملفوفة حول خاصرتيه وتوحي جميع البوادر بأنه ميت ، لأن رأسه كان مدلى على صدره ، وعيناه كانتا مغلقتين أعلى شفتيه الحاطتين بشارب ولحية . ولقد تأمل (وانغ لنغ) الرجل في الصورة – في فزع واهتمام متزايد . وكانت ثمة حروف في أدنى الصورة ، ولكنه لم يفهم منها شيئاً .

وحمل الصورة معه إلى البيت في الليل ، واطلع الشيخ عليها ، ولكنه بدوره لم يكن يعرف القراءة ، فأخذ وانغ لنغ والشيخ والصبيان يتناقشون فيما يمكن ان يكون لها من معنى . وصاح الصبيان في سرور يخالطه الجزع : « انظروا كيف يسيل الدم من جنبه » . فقال الشيخ : « لا بد أنه كان رجلا شريراً للغاية حتى يعلق هكذا » . ولكن وانغ لنغ كان خائف من الصورة ، وأخذ يسائل

نفسه عن السبب الذي دعا أجنبياً إلى إعطائه إياها ، وعما إذا كان لهذا الأجنبي أخ عومل بهذه المعاملة فأخذ إخوته الآخرون يسعون إلى الانتقام ؟ .. ولهذا تجنب السير في الشارع الذي قابل فيه الرجل . وبعد أيام قلائل ، عندما نسي الجميع الورقة ، أخذتها أولان وخاطتها في نعل حذاء مع قصاصات أخرى من الورق التقطتها من هنا وهناك لتقوية النعل .

ولكن في المرة التالية التي قدم فيها شخص ورقة إلى وانغ لنغ دون مقابل كان ذلك الشخص شاباً من أهل المدينة ، حسن الهندام ، راح يتكلم بصوت عال وهو يوزع هذه الأوراق على حشود الناس الذين يتجمعون حول كل شيء جديد او غريب في الشارع.وكانت هذه الورقة تحمل أيضاً صورة دماء وموت، ولكن الشخص الميت في هذه المرة لم يكن أبيض البشرة كث الشعر ، بل كان رجلا على شاكلة وانغ لنغ نفسه : من عامة الناس ، أصفر اللون ، خفيف الشعر أسوده ، أسود العينين ، يرتدي ثياباً مهلهلة زرقاء . ووقف على هذه الجثة شخص بدين ضخم الجسم ، أخذ يطعن الجثة بلا هوادة طويل في يده ، فكان منظراً يدعو إلى الشفقة . وأخذ وانغ لنغ يحملق في الصورة وهو يود لو استطاع أن يفهم شيئاً من الحروف المكتوبة تحتها ، ثم سأل الشخص الواقف بجواره : « ألا تعرف حرفاً او حرفين فتنبئني بمعنى هذا الشيء الرهيب ؟ » . فقال الرجل : « اصمت واستمع إلى المعلم الشاب ، فهو ينبئنا بكل شيء » . ومن ثم أصغى وانغ لنغ ، وكان ما سمعي شيء لم يسبق له أن سمعه قط .

كان المعلم الشاب يقول : « إن الرجل الميت يمثلكم أنتم ، والقاتل الذي يطعنكم – وأنتم موتى لا تشعرون– يمثل الأغنياء والرأسماليين الذين يطعنونكم حتى بعد موتكم .. إنكم فقراء توطئون بالأقدام لأن الأغنياء يستولون على كل شيء » وإذ كان وانغ لنغ فقيراً ، فقد عرف تماماً معنى هذا الكلام ، ولكنه كان الى هذا اليوم يلقي التبعة على السماء متي تمسك المطر في موسمه او اذا أمطرت تستمر في الأمطار ، وكأن المطر أصبح عادة قبيحة لها . أما عندما

يحدث تناسب بين المطر والشمس يسمح للبذور بأن تنبت في الأرض والسيقان بأن تحمل الحبوب فإنه لم يكن يعد نفسه فقيراً . ولهـــذا أخذ يصغي باهتمام ليسمع مزيداً يبين له علاقة هؤلاء الاغنياء بعدم هطول المطر في موسمه .

وفي النهاية ـ بعد أن تكلم الشاب وأسهب ، دون ان يذكر شيئاً عن هذه المسألة التي انحصر فيها اهتمام وانغ لنغ وسأله . « سيدي ، هل هناك من سبيل يتمكن به هؤلاء الأغنياء الذين يظلموننا من أن يجعلوا المطر يهطل حتى استطيع مواصلة العمل في الأرض ؟ » . فالتفت إليه الشاب بازدراء وقال : « ما أجهلك أنت الذي لا تزال تحمل شعرك مرسلاً في ضفيرة خلفك ! .. ما من إنسان يستطيع أن يجعل المطر يهطل إذا لم يكن هناك مطر ، ولكن ما شأننا بهذا ؟. لو كان الأغنياء يشاطروننا ما لديهم ، لمـــا اهتم احد سواء أمطرت السماء أم لم تمطر ، لأننا جميعاً في هذه الحالة نجد المال والطعام » .

وإلى جانب السخط الذي غشيهم في الربيع زاد السخط الجديد الذي راح هذا الشاب وأمثاله يبثونه على أوسع نطاق في نفس سكان الأكواخ وهو سخط يتمثل في الشعور بعدم عـــدالة امتلاك الآخرين لأشياء لا يملكونها هم . وكانوا كلما فكروا يوماً بعد يوم في هذه المسائل وتحدثوا عنها في ضوء الغسق ، وكلما مر يوم وراء يوم دون ان يظفروا من وراء كدهم بالمزيد من الأجر ، انبثق في قلوب الشباب والأقوياء منهم تيـــار جائح كتيار النهر إذا ذخر بميـــاه ثلوج الشتاء ... تيار احتداد الرغبة الوحشية الجامحة . ورغم ان وانغ لنغ كان يرى كل هذا ويسمع الأحاديث ويشعر بالغضب الذي استبد بنفوسهم فيحس له بعدم ارتياح غريب ، إلا أنـــه لم يكن يصبو إلى شيء سوى أن يحس بأرضه تحت قدميه مرة أخرى .

ثم رأى وانغ لنغ شيئاً آخر جديداً لم يفهمه ، في هذه المدينة التي كانت تفاجئه كل يوم بشيء جديد . ففي أحد الأيام ـ بينما كان يجر عربة « الريكشا »

خالية في أحد الشوارع ينشد راكباً ـ رأى بعض الجنود المسلحين يقبضون على شخص في أثناء وقوفه . فلما احتد الرجل على هـــذا العمل أشهروا في وجهه الخناجر . وبينما كان وانغ لنغ يرقب ما يجري ويدهش له ، إذا به يرى الجنود يقبضون على شخص آخر ، ثم على غيره . وخطر له ان المعتقلين كانوا أناساً عاديين يعملون بأيديهم . وبينما كان يحملق ، اعتقل شخص آخر ، وكان هذا رجلاً يقيم في اقرب كوخ من الاكواخ الملتصقة بالسور إلى كوخه .

ووسط دهشته ، تبين وانغ لنغ فجأة ان جميـع هؤلاء المعتقلين كانوا مثله يجهلون سبب القبض عليهم هكذا رغم أنوفهم ، راضين كانوا ام كارهين، فدفع مركبته إلى زقاق جانبي ، وتركها واندفع إلى حانوت للماء الساخن خوفاً من ان يأتي دوره . وهناك اختبأ ، مقعياً وراء القدور الضخمة ، حتى مر الجنود ، ثم سأل صاحب حانوت الماء الساخن عن معنى ما شاهده ، فاجاب الرجل في غير اكتراث وكان متقدماً في السن مجعد الوجه من تأثير البخار الذي يتصاعد عليه باستمرار من القدور النحاسية التي تحوي تجارته : « ليست سوى حرب اخرى نشبت في مكان ما .. من ذا الذي يدري علام كل هذا القتال الذي يروح ويجيء ؟ .. ولكن هذه هي الحال منذ ان كنت صبياً ، وستبقى كذلك حتى بعد مماتي . إني لاعرف هذا حق المعرفة ! » . فتساءل وانغ لنغ في حيرة شديدة: « حسناً ، ولكن لماذا قبضوا على جاري وهو بريء مثلي انا الذي لم اسمع قط عن هـــذه الحرب الجديدة » فصك الشيخ اغطية القدور وهو يقول : « إن هؤلاء الجنود ذاهبون إلى القتال في مكان مـــا ، وهم بحاجة إلى من يحمل لهم فراشهم وبنادقهم وذخيرتهم ، ولهذا يرغمون العمال من امثالك على ان يؤدوا لهم هذه الأعمال ولكن من اي إقليم انت ؟ فهذا ليس بالمنظر الغريب في هذه المدينة » . فقال وانغ لنغ مستحثاً : وكان ذلك الرجل العجوز عجوزاً جـداً « ولكن ماذا يحدث بعد ذلك ؟ اي اجر يعطون أو أي جزاء ينالون ؟ » .

ولم يكن له امل كبير في اي شيء ، ولا عاد يهتم بأي شيء غير قدوره ،

فاجاب بغير اكتراث : إنهم لا يعطون اجراً ، اكثر من مجرد كسرتين من الخبز اليابس في اليوم ، ورشفة ماء من بركة ويكون من حقك ان تعود إلى دارك عندما يبلغ الجند مقصدهم ، إذا استطاعت قدماك ان تحمل ثقلك ، ا فتساءل وانغ لنغ مبهوتاً : « ولكن اسرة الرجل ... ؟ فاجاب الرجل بازدراء وهو ينظر من خلال الغطاء الخشبي لاقرب قدر ليرى ما إذا كان الماء قد غلى بعد : وماذا يعرفون عن ذلك ، وفيم يعنيهم ؟ » . واكتنفته سحابة من البخار فلم يعد وجهه المغضن يرى إلا بصعوبة وهو يحملق في داخل القدر . على انه كان طيب القلب ، لأنه عندما برز من سحب البخار ثانية ، شاهد ما لم يكن وانغ لنغ يستطيع أن يراه من مكمنه المنخفض وراء القدور - شاهد الجنود يقتربون مرة اخرى ويبحثون في الشوارع التي كان كل عامل قوي الجسم قد هرب منها - فقال لوانغ لنغ : « ازدد انحناء في مخبئك ، فقد عادوا ثانية ! » فانبطح وانغ لنغ وراء القدور . واتجه وقع اقدام الجنود على الارض المرصوفة صوب الغرب ، وعندما اختفى صوت احذيتهم الجلدية ، خرج ، وامسك بعربته « الريكشا » واسرع يعدو بها - وهي خالية - متجهاً إلى الكوخ .

وكانت « أولان » قد عادت لتوها من الطرقات لتطهو القليل من الخضر التي جمعتها . فروى لها ما حدث بكلمات متلعثمة لاهثة ، وذكر لها كيف كاد يعجز عن الإفلات من الجنود . وفيما كان يتكلم استبد به هذا الرعب الجديد ، الرعب من أن يجر إلى ميادين القتال فلا يبقى والده واسرته وحيدين فيموتون جوعاً فحسب ، بل ويموت وهو في ميدان القتال ويهرق دمه ، ولا يعود بوسعه ان يرى ارضه مرة اخرى .

ونظر إلى اولان بحزن وقال : « لقد اصبحت الآن اميل بحق إلى بيع الجارية الصغيرة لنرحل إلى الشمال ، إلى أرضنا ! » ولكنها بعد ان اصغت اليه، اخذت تفكر قليلاً ، ثم قالت بطريقتها الصريحة الخالية من اية عواطف : « انتظر بضعة ايام ، فثمة احاديث غريبة تدور حولنا » .

ولكن وانغ لنغ لم يعد يخرج من الكوخ في وضح النهار ، وإنما ارسل ابنه الأكبر ليعيد المركبة إلى المكان الذي استأجرها منه . وكان ينتظر إلى حلول الليل ثم يذهب إلى البيوت التجارية ، ولقاء نصف ما كان يكسبه من قبل ، اصبح يعمل طـــول الليل في جر عربات ضخمة محملة بالصناديق . وكانت كل عربة منهـــا يجرها اثنا عشر رجلاً ، يجهدون انفسهم وهم يئنون . وكـانت الصناديق مملوءة بالأقمشة الحريرية والقطنية ، والتبغ ذي الرائحة الذكية ، التي يبلغ من تضوعها انهـا كانت تفوح من خـلال الخشب . كما كانت هنـاك ايضاً جرار كبيرة مملوة زيوتاً وخموراً .

وكان طوال الليالي ، وخلال الشوارع المظلمة ، يكد ويكدح في شد الحبال وجسده عار يتصبب منه العرق ، وقدماه الحافيتان تنزلقان فوق الاحجار التي رصف بها الطريق .. وقد تبللت وتوحلت برطوبة الليل . وكان يجري أمـام الجميـع صبي يحمل مشعلاً .. وعلى ضوء هــذا المشعل كانت أجسام الرجـال ووجوههم والأحجار المبتلة ، تلمع على السواء .

وكان وانغ لنغ يعود إلى الكوخ قبيل الفجر لاهث الأنفاس ، منهوكـاً إلى درجة لا يقوى معها على تناول الطعام إلا بعد ان يصيب قسطا من النوم . اما خلال النهار الوضاح ، عندمـا كان الجنود يذرعون الطرقات والشوارع بحثا عن عمال ، فإنـه كان ينام آمناً في اقصى اركان الكوخ ، وراء كومـة من القش جمعتها « اولان » لتكون حجابا له . ولم يدر وانغ لنغ ما هي المعارك التي كانت تدور ، ولا من الذي كان يقاتــل من ، ولكن المدينة اخذت تزداد امتلاء بقلق الخوف ، كلما ازداد اقترب الربيع وكانت المركبات التي تجرهـا الخيول تسير في الطرقات طول النهار تنقل الأثرياء وامتعتهم من الملابس واغطية الاسرة الحريرية ، والنساء الجميلات بحليهن وجواهرهن ، قاصدين إلى حافة النهر حيث كانوا يستقلون سفناً إلى اماكن اخرى . وكان بعضهم يقصد إلى ذلك البناء حيث تأتي العربات النارية وتذهب .

ولم يكن وانغ لنغ يخرج قط إلى الشوارع في أثناء النهار ، ولكن ولديه كانا يعودان وقد اتسعت أعينهما دهشة ، وهما يصيحان : « لقـــد شاهدنا شخصا وصفه كذا ، وآخر وصفه كذا ، وثالثاً مترهلاً ضخم الجسم كأنه إله في معبد ، تغطي جسمه أقدام كثيرة من الحرير الأصفر ، وقد لبس في أصبعه خاتماً كبيراً من الذهب يتوسطه حجر أخضر كأنه قطعة من الزجاج .. وكان لحمه يلمع بفضل الزيت والأطعمة التي يتناولها » . أو يصيح الابن الاكبر : « وقد رأينا صناديق وصناديق ، وعندما سألت عن محتوياتها ، أجابني شخص : إنها تحوي ذهبا وفضة ، ولكن الأغنياء لا يستطيعون أن يأخذوا معهم كل ما يملكون ، وسوف تصبح جميعها ملكاً لنا في يوم من الأيام » .. « فما معنى هـــذا القول يا أبتي ؟ » . وكان الصبي يحملق في والده متسائلا ، فإذا ما أجابه وانغ لنغ في اقتضاب : « أنّى لي أن أعرف ما يعنيه شخص كسول من أهل هذه المدينة ؟» كان الصبي يصيح في إصرار : « وددت لو أننا ذهبنا الآن لنحصل على هذه الأشياء ، ما دامت ملكنا . لـكم أود أن أتذوق كعكة ! .. لم يسبق لي قط أن ذقت في حياتي كعكة بالسكر والسمسم منثور على وجهها » .

وعندما سمع الشيخ هذا الحديث رفع نظره ، وكأنه يفيق من حلم ، وقال وكأنما يحدث نفسه : « عندما كنا نظفر بمحصول جيد ، كنا نأكل كعكا كهذا في عيد الخريف وكنا عندما ندرس السمسم نحتفظ بجزء منه قبـــل بيعه لنصنع منه كعكات كهذه ! » .

وتذكر وانغ لنغ الكعكات التي صنعتها « أولان » مرة في عيد رأس السنة كعكات مصنوعة من دقيق الارز ودهن الخنزير والسكر ، فسال لعابه وتألم قلبه حنينا إلى الماضي ، وتمتم يقول : ليتنا نعود إلى أرضنا ! »

وخيل إليه فجأة أنه لم يعد يستطيع أن ينام يوماً آخر في هـــذا الكوخ التعس الذي لم يكن من السعة بالحد الذي يسمح له بمد جسمه وراء كومة القش وأنه لم يعد يستطيع أن يبقى ليلة أخرى يتحمل مضي الساعات وجسمه منحن

والحبل يمزق لحمه ، وهو يجر الاحمال على الارض المرصوفة بالاحجار . لقد بات يرى في كل حجر منها عدواً له قائماً بذاته ، كما كان يعرف كل شق يمكنه من أن يتجنب حجراً ، وبهذا يخفف من استنفاد طاقة حياته .

وكان يحدث أحيانا في الليالي المظلمة ـ وبخاصة عندما يهطل المطر وتبتل الشوارع ، وتغدو أكثر ابتلالاً من المألوف ـ أن يصب كل ما في قلبه من كراهية على هذه الأحجار التي تحت قدميه ، هذه الاحجار التي كان يخال أنها تلتصق وتتعلق بعجلات أثقاله التي ينوء بها البشر .

وصاح فجأة : « آه ، لهفي على الارض الجميلة ! » . وانكفأ يبكي حتى خاف الأطفال ، ونظر الشيخ إليه واجما وأخـــذ وجهه يختلج تحت لحيته المتناثرة الشعر ، كما يختلج وجه الطفل عندما يرى أمه تبكي .

وهنا أيضاً ، تدخلت « أولان » قائلة بصوتها الواضح الصريح . « لن يطول بنا الوقت حتى نرى شيئاً ما .. إن الكلام يدور الآن في كل مكان ! » .

ومن كوخه ـ حيث كان وانغ لنغ مختبئاً ـ يسمع من ساعة إلى أخرى وقع أقدام .. اقدام الجنود وهم يسيرون إلى ارض المعركة . وكان احيانا يرفع طرف الحصير الذي يفصل بينه وبينهم ، ويضع عينه على شق في الحصير ، فيرى هذه الأقدام وهي تمر من أمامه ، ويشاهد الأحذية الجلدية والسيقان المغطاة بالأقمشة تسير الواحدة تلو الأخرى ،وزوجا بعد زوج ، وعشرات في إثر عشرات وألوفا وراء ألوف ،وكان في الليل يراهم وهو ينقل أحماله يمرون أمامه، فيرى وجوههم وسط الظلام في لمحة خاطفــة على ضوء المشعل الذي يتقدمه . ولم يجد في نفسه الجرأة ليسأل شيئا عنهم ، وإنما ظل يجر اثقاله في إذعان ، ويأكل ارزه بسرعة ، وينام نوماً متقطعا في النهار مختبئا في كوخه وراء كومة القش ، ولم يعـد احد يتحدث إلى الآخر في تلك الأيام ، إذا كانت المدينة ترتجف مـن الخوف ، وكل إنسان يسرع بأداء اعماله ثم يهرع إلى داره ويغلق الباب وراءه .

لم تعدتدورتلك الأحاديث التي كانت تجري في فترة الغروب حول الأكواخ.

وخلت الحال في الأسواق مما كان فيها من طعام ، وطوت حوانيت الأقمشة الحريرية أعلامها اللامعة ، وأغلقت واجهاتها الضخمة بالواح سميكة يرتبط بعضها إلى بعض بإحكام ، حتى لقد كان يخيل لمن يسير في المدينة عند الظهيرة أن الناس نيام .

وترددت الشائعات في كل مكان بان العدو يقترب ، فشعر كل من كان يمتلك شيئا بالفزع ، ولكن وانغ لنغ لم يكن خائفاً ، شأنه في هذا شأن ساكني الأكواخ ، ولم يكونوا يعرفون من هو ذلك العدو ، ولم يكن لديهم ما يخشون ان يفقدوه .. بل إن حياتهم ذاتها لم تكن تعد خسارة كبيرة ، فليقترب العدو إذن كما يشاء ، لأن حالهم لن تكون اسوأ مما كانت عليه ! .. ولكن كل فرد منهم استمر في تأدية اعماله ، دون ان يتجاسر أحد على التحدث جهاراً مع اي شخص آخر .

ثم ابلغ اصحاب البيوت التجارية العمال — الذين كانوا ينقلون لهم صناديق السلع من النهر واليه — انهم لم يعودوا في حاجة اليهم ، لأنه لم يعد هناك من يشتري او يبيع ، فقبع وانغ لنغ لذلك في كوخه ليلاً ونهارا متعطلا ، وكان في بداية الأمر مغتبطاً ، إذ كان يخال أن جسمه المكدود في حاجة ماسة إلى الراحة ، فكان ينام نوماً عميقا وكأنه ميت . ولكن .. إذا كان لا يعمل ، فهو كذلك لا يكسب .. ولم تكد تنقضي بضعة أيام حتى كانوا قد انفقوا كل ما بقي لديهم من بنسات فائضة . واخذ يتلفت حوله في حيرة عما يمكن ان يعمل . وكأنما لم تكفه المصائب التي حلت بهم ، فقد اغلقت ايضاً المطابخ الشعبية ابوابها ، ولجأ الموسرون الذين كانوا يساعدون الفقراء من هذا الطريق إلى دورهم وأوصدوا من دونهم ابوابها ، وهكذا لم يعد في المدينة طعام ولاعمل ، واقفرت الشوارع من المارة الذين كانوا يحتمل استجداؤهم .

واخيراً حمل وانغ لنغ طفلته بين ذراعيه ، وجلس بها في الكوخ ، واخذ يتفرس فيها ويقول بحنان ! « اتحبين ابنتهـا الحمقاء الصغيرة ان تذهبي الى بيت

كبير ، حيث يتوافر الطعام والشراب ، وحيث يمكن ان تجدي معطفا طويلاً يغطي جسمك ؟ » .

فابتسمت الطفلة دون ان تعي شيئاً مما قاله، ورفعت يدها الصغيرة لتحسس عينيه المحلقتين ، فلم يطق احتمالا ، وصاح بامرأته يقول : « خبريني ، هل كنت تتعرضين للضرب في ذلك البيت الكبير ؟ » فأجابته بصراحة وجمود : « كنت اضرب كل يوم ! » . فعاد يصيح من جديد قائلاً : « ولكن اكنت تضربين بمجرد حزام من القماش ، أم بقطعة من الغاب ، أم بحبل ؟ » . فأجابته بعين اللهجة الجامدة : « كنت اضرب بسوط من الجلد ، كان في الأصل لجاما لأحد البغال ، وكان معلقا في جدار المطبخ » .

وكان يعلم انها تفهم ما كان يدور بخلده ، ولكنه القى بآخر امل له ، إذ قال : « ان طفلتنا هذه فتاة حلوة ، حتى من الآن . الا خبريني : هل كانت الجواري الحسان يضربن كذلك ؟ » فأجابت بغير اكتراث ، كأن الأمر لم يكن يعنيها في شيء : « اجل ، كن يضربن او يحملن إلى فراش رجل ، حسبما يكون مزاج السادة .. وليس الى فراش رجل واحد فقط ، وانما الى فراش أي رجل قد يشتهيها في تلك الليلة !.. وكان السادة الشبان يتجادلون ويتساومون على هذه الجارية او تلك ، فيقول أحدهم للآخر : « اذا اخذتها الليلة فليكن دوري غدا » .. وعندما يسأمونها جميعا ، يبدا العبيد بدورهم في التنازع والمساومة على التي نبذها السادة الشبان. وكل هذا قبل ان تتعدى الجارية مرحلة الطفولة.. اذا كانت جميلة ! » .

فزمجر وانغ لنغ ، وضم الطفلة الى صدره ، وراح يردد في صوت خافت : « آه ، ايتها الحمقاء الصغيرة .. آه ، ايتها الحمقاء الصغيرة المسكينة ! » . ولكنه كان في قرارة نفسه يصرخ كما يصرخ الشخص عندما يجرفه الفيضان، فلا يستطيع التريث للتفكير : « ما من سبيل اخرى .. ما من منفذ آخر ! » .

وفجأة، وبينما كان جالسا، دوى صوت كالرعد، وسقط الجميع على الأرض

بغير وعي ، واخفوا وجوههم ، اذ خيل اليهم ان هذا الزئير الشيطاني سيصيبهم جميعا ويسحقهم ، وغطى وانغ لنغ وجه الطفلة بيده ، دون ان يعرف اي هول سيتكشف لهم عقب هذه الضجة الرهيبة . وصاح الشيخ في أذن وانغ لنغ : « هذا شيء لم يسبق لي أن سمعته في سني عمري كلها ! » وصرخ الصبيان من الخوف ، غير أن « اولان » رفعت رأسها — عندما ساد السكون فجأة كما تمزق فجأة — وقالت : « ها قد حدث ما سمعت أنه قد يحدث .. لقد اقتحم العدو ابواب المدينة ! »

وقبل أن يستطيع احد الرد ، دوت صيحة في المدينة .. صيحة متعالية لأصوات آدمية ، بدأت خافتة ، كما يسمع المرء ريح العاصفة وهي تقترب .. وما لبثت ان تجمعت في هزيم قاصف ، وازدادت ارتفاعاً حتى ملأت الشوارع ، وإذ ذاك استوى وانغ لنغ جالساً على أرض كوخه ، وسرت في جسده قشعريرة خوف غريب ، حتى انه شعر بها تتصاعد في جذور شعر رأسه .

وانتصب الجميع في جلستهم ، وأخذوا يحملقون مدهوشين بعضهم في بعض ، يترقبون ما لا يعرفونه . على أنه لم يكن هناك غير صوت تجمع بعض الرجال ، وكل منهم يصيح في ضراوة .

ثم سمعوا من وراء السور ، وعلى مسافة ليست بالبعيدة ، صوت باب ضخم يدور على محاوره في صرير ، ويصطك وهو ينفتح عنوة . وفجأة ، أطل داخل الكوخ ذلك الرجل الذي حدثه وانغ لنغ ذات مرة عند الغسق — والذي كان يدخن غليونا قصيراً مصنوعاً من الغاب — وهتف : « أمـا تزالون بعد جالسين هنا ؟ لقد دقت الساعة ، وانفتحت أمامنا أبواب الرجل الغني » وفجأة اختفت « أولان » بسرعة سحرية ، بأن مرقت زاحفة من تحت ذراع الرجل وهو يتكلم . وإذ ذاك نهض وانغ لنغ ببطء وهو شارد ، ووضع الطفلة على الأرض وخرج .

وأمام الأبواب الحديدية لبيت الرجل الغني ، كان ثمة حشد كبير من الغوغاء ، يتدافعون وهم يعوون معاً بتلك الصيحة المزمجرة المتنمرة التي كان قد سمعها

تتصاعد وتملأ الشوارع ، فأدرك أن أمام بيوت الأغنياء جميعا كانت تتدافع هذه الحشود المزمجرة من الرجال والنساء الجـائعين ، الذي كانوا جائعين ومحبوسين ، فأصبحوا الآن طلقاء يفعلون مـا يشاءون . وكانت الأبواب الكبيرة مواربة ، والقوم يتدافعون خلالهـــا متلاصقين محشورين ، إلى درجة أن أقدامهم كانت متراكبة فوق بعضها البعض ، وأجسامهم مضغوطة في بعضها البعض ، حتى كان الحشد كله يتحرك في كتلة واحدة . وجرف الآخرون المسرعون من الخلف وانغ لنغ ، فاضطروه إلى الاندماج في الزحام ، فانساق إلى الأمام سواء كان راضيا أم غير راض وإن لم يعرف هو نفسه كنه إرادته ، لأنه كان في دهشة مما جرى .

وجرفوه معهم عبر عتبات البوابات الكبيرة ، وقدماه لا تكادان تطآن الأرض في زحمة القوم ، وعواؤهم ينطلق من كل جانب حوله كأنه زئير مستمر ينبعث من وحوش غاضبة . وأجتاحـه الزحام من ردهة إلى أخرى حتى وصل إلى قلب الردهات الداخلية ، دون أن يرى أحدا من أولئك الرجال والنساء الذين كانوا يعيشون في الدار . وخيل إليه أنه في قصر مات أهله منذ زمن بعيد، لولا أن بواكير الزنابق كانت متفتحة بين صخور الحديقـــة ، والأزهار الذهبية التي تنبت على أشجار أوائل الربيع متفتحة على الأغصان العارية . ولكنه رأى في الغرف الأطعمة على الموائد ، وفي المطـابخ كانت النار لا تزال موقدة . ولاح أن هذه الحشود تعرف قصور الأغنياء خير معرفة، لأنها مرت بالردهات الأمامية – حيث كان الخدم والجوارى يعيشون، وحيث كانت توجد المطابخ – وقصدت إلى الردهات الداخلية ، حيث سرر السادة والسيدات الفاخرة ، وحيث توجد صناديقهم ذوات الطلاء الأسود والأحمر والذهبي التي يضعون فيها ثيابهم الحريرية، وحيث توجد المقـــاعد والموائد المزدانة بالنقوش المحفورة ، والصور الملونة على الجدران . وانقضت الجموع على هذه الكنوز تتخاطف وتتنازع على ما كان يكشف عنـــه كل صندوق أو صوان يفتح . وهكذا أخذت الأقمشة واغطية الأسرة والستائر والأطباق تتنقل من يد إلى اخرى ، وكل يد تخطف ما في اليد الأخرى ، دون أن يتوقف أحد ليرى ما حصل عليه .

وكان وانغ لنغ هو الوحيد وسط هذه الفوضى الذي لم يأخذ شيئاً، فلم يكن قد سبق له في حياته كلها أن اخذ شيئاً يملكه غيره ، وما كان ليقوى على هذا العمل بغتة . لذلك وقف وسط الجماهير – في البداية - وهم يدفعونه هناوهناك. ثم أخذ يستفيق شيئاً فشيئاً ، فمضى يشق طريقه بإصرار ، ليخرج من هذه الحشود ، حتى وجد نفسه أخيراً في اطرافها. وهناك وقف وهو يتلقى الدفعات الخفيفة من الحشد، كما لو كان دوامة صغيرة على حافة بركة هائجة . ولكنه رغم ذلك كان قادراً على تبين المكان الذي يقف فيه .. كان في مؤخرة الجناح الداخلي الذي في أقصى الدار ، حيث تسكن سيدات الأغنياء ، وكانت البوابة الخلفية مفتوحة على مصراعيها .. تلك البوابة التي كان الأغنياء قد أعدوها من قرون لكي يهبوا خلالها في اوقات كهذه،ولهذا اطلقواعليها اسم«بوابة الأمان» .. ولا بد أنهم جميعا هربوا خلال هذه البوابة في هذا اليوم ، واختبأوا هنا وهناك وهناك في الشوارع ، يستمعون الى الصخب في أبهائهم . ولكن شخصاً واحداً منهم أخفق في الهرب ، إما لبدانته وإما لاستغراقه مخموراً في النوم . وقد فاجأه وانغ لنغ في غرفة داخلية خالية ، كان الغوغاء قد اجتاحوها ،ثم خرجوا منها ، حتى إن الرجل – الذي كان مختبئاً في مكان سري ولم يكتشف أمره– بدأ يزحف لينشد النجاة ، وهو يظن أنه وحيد بمفرده . ولما كان وانغ لنغ بدوره قد حرض على الابتعاد عن الآخرين ، فإنه كان وحيداً عندما باغته .

وكان الرجل بديناً ، ضخم الجسم ، ليس بالشاب ولا هو بالشيخ . وقد كان نائماً في فراشه عاريا ، مع حسناء بلا شك ، لأن جسمه العاري كان يبدو تحت الثوب الحريري القرمزي الذي كان يضعه حول نفسه . وكانت طيات اللحم الأصفر الضخمة تتهدل فوق ثدييه وفوق بطنه، وقد بدت عيناه صغيرتين غائرتين – كعيني الخنزير– فوق خديه اللذين كانا كجبلين من اللحم.وعندما رأى وانغ لنغ ارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وصرخ كأنه طعن بسكين ، حتى إن وانغ لنغ – وهو الأعزل من السلاح – عجب ، وكاد يضحك من هذا المنظر . ولكن الرجل البدين خر ساجداً على ركبتيه وخبط

رأسه بالأرض وصاح . « انقذ حيـاتي .. انقذ حياتي .. لا تقتلني ! .. عندي مال وفير .. »

وكانت كلمة « المال » هذه هي التي نبهت ذهن وانغ لنغ فجأة فأخذ يفكر في وضوح .. « المال » ! .. أجل ، ما كانت أشد حاجته إليه ! .. ومرة أخرى ، عاد فكره يعمل بسرعة ، وكأنه كان يصيح : « المال .. لقد نجت الطفلة .. الأرض ! » . وصاح فجأة بالرجل بصوت أجش لم يكن يعتقد أنـه يمكن أن يصدر عنه : « أعطني المال إذن ! » . فنهض الرجل وهـو لا يزال يبكي وينتحب . وتحسس جيب الثوب ، ثم أخرج يديه الصفراوين مملوءتين بالذهب ، وبسط وانغ لنغ طرف ثوبه وتلقى فيه الذهب ، ثم صاح مرة أخرى بذلك الصوت الغريب الذي كان أشبه بصوت شخص آخر : « أعطني مزيداً منه » . وأمتدت يد الرجل مرة أخرى مملوءتين بالذهب ، وهو يتمتم : « هذا آخر مـا عندي منه . لم يبق لي غير حياتي التعسة ! »

وبكى ، وتحدرت الدموع كالزيت على خديه المترهلين . وتأمله وانغ لنغ وهو يرتعش ويبكي ، فشعر نحوه ببغض لم يسبق له في حياته أن شعر به لأي شيء آخر ، وصاح به وهو يهتز من عنف موجة هذا البغض: « أغرب عن وجهي وإلا قتلتك كدودة ثمينة ! » صاح وانغ لنغ بهذه العبارة برغم أنه كان رجلاً رقيق القلب لا يستطيـع أن يذبح ثوراً ، فعدا الرجل كالجرو الحقير ، وغاب عن الأنظار . وبقي وانغ لنغ وحده ومعه الذهب ، ولم يتوقف ليحصيه ، بل دسه في صدره وخرج من الباب المفتوح .. « باب الأمان » . واجتاز الشوارع عائداً إلى كوخه وهو يحتضن في صدره الذهب الذي ظل دافئاً من حرارة جسم الرجل الآخر . واخذ يردد لنفسه : « سنعود إلى الأرض .. غدا نعود إلى الأرض ! »

الفصل الخامس عشر

قبل ان تنقضي أيام بعدد أصابع اليد، خيل لوانغ لنغ أنه لم يكن قد ابتعد ألبتة عن أرضه . والواقع انه لم يشعر قط في قلبه بأنه كان بعيداً عنها . وقد اشترى بثلاث قطع من الذهب بذوراً جيدة من الجنوب ، حبوباً ممتلئة من القمح والأرز والأذرة . . وبتفريط الرجل الغني ، اشترى بذوراً لم يسبق له أن زرع مثلها كالكرفس واللونس – لبركته – والفجل الأحمر الكبير الذي يسلق مع لحم الخنزير ويقدم في الولائم والأعياد ! وفولاً أحمر ذكي الرائحة . واشترى بخمس قطع ذهبية ثوراً من مزارع كان يحرث في الحقل وكان هذا قبل ان يصل إلى إرضه . فقد رأى الرجل وهو يحرث ، فتوقف عن السير ووقف الاخرون جميعاً – الشيخ والمرأة والأطفال – برغم شدة شوقهم الى الوصول إلى الدار والأرض ، وأخذوا ينظرون إلى الثور . وأعجب وانغ لنغ بعنقه القوي ، ولاحظ من فوره قوة كتفيه المشدود إليهما الرسن ، فصاح : « يا له من ثور لا يقدر بثمن ! كم تود ان تأخذ في مقابله من قطع الفضة او الذهب ؟ فليس لدي ثور حالياً ، وأنا في مسيس الحاجة إليه ، ولهذا فإني على استعداد لأخذ اي شيء ! » . فأجاب المزارع : « إني افضل ان ابيع زوجتي عن ان ابيع هذا الثور الذي لا يزيد عمره على ثلاث سنوات ، فهو في عنفوان قوته » . ومضى المزارع يحرث الأرض دون ان يعبأ بوانغ لنغ .

وهنا خيل لوانغ لنغ انه يجب ان يحصل على هذا الثور بالذات من بين ثيران العالم اجمع ، فقال لأولان ووالده : « ما رأيكما في هذا الثور ؟ » . فتفرس الشيخ قليلا ، وقال : « يبدو أنه حيوانه قد اجيد خصبه » ، وقالت أولان :

« إنه أكبر بعام مما قال الرجل » . ولكن وانغ لنغ لم يجب بشيء ، إذ كان قد صمم على الحصول على هذا الثور لقوته في جر المحراث ، ولنعومة جلده الأصفر ، ودكنة سواد عينيه .. فبهذا الثور يستطيع أن يحرث حقوله ويزرعها .. وبهذا الثور - إذا ربط الى طاحونته - يستطيع أن يطحن الحبوب . ومن ثم سعى الى المزارع ، وقال : « سأعطيك ما يكفي لشراء ثور آخر ويزيد ، ولكن لا بد لي من هذا الثور » .

وبعد مساومة ومجادلة وتظاهر بالعدول عن الصفقة ، رضي المزارع أن يبيع الثور بما يعادل قيمة الثور في تلك الأصقاع مرة ونصف المرة . غير ان الذهب فقد قيمته فجأة في نظر وانغ لنغ عندما نظر الى هذا الثور ، فبادر بدفع الثمن الى المزارع .. وأخذ يراقبه وهو يفك رباط الثور ، ثم اخذه منه واقتاده بحبل ممرر خلال منخريه ، والدنيا لا تكاد تسعه من فرط الاغتباط ..

وعندما وصلوا الى الدار ، وجدوا الباب منزوعاً من مكانه ، والأحطاب التي تكون السقف قد اختفت ، كما ضاعت الفئوس والمناجل التي تركوها في البيت فلم تبق سوى دعائم السقف الخشبية والجدران .. بل حتى الجدران المشيدة من الطين كان قد أبلاها الجليد المتأخر والشتاء وأوائل الربيع ولكن كل شيء لم يلبث أن بدا بعد الدهشة الأولى لوانغ لنغ غير ذي بال. فذهب إلى المدينة واشترى محراثاً جديداً من الخشب المتين ومنجلين وفأسين ، وبعض الحصر لتغطية السقف ، ريثما يتسنى لهم ما يلزم من قش وعيدان من المحصول ، حتى إذا كان المساء وقف عند باب بيته ، وألقى بنظره صوب الأرض .. أرضه ، المنبسطة المستوية ، المتجددة بعد أن تحررت من جليد الشتاء وأصبحت مهيأة للزراعة .. كان الربيع قد اكتمل والضفادع في البحيرة الضحلة ترسل نقيقها في نعاس ، وأعواد الغاب عند ركن البيت تتمايل ببطء في مهب ريح الليل الرقيقة . وأمكنه أن يرى على ضوء الغسق ستار الأشجار القائمة عند طرف الحقل القريب . كانت أشجار خوخ ، وقد نمت براعمها ذوات اللون الوردي الخفيف ، وأشجار

صفصاف تشهر أوراقا خضراء رقيقة. ومن الأرض الساكنة المرتقبة ، كان يتصاعد ضباب واهن ، فضي اللون كضوء القمر ، ويتعلق بجذوع الأشجار ..

وبدا لوانغ لنغ – في بداية الأمر ، ولفترة طويلة ، أنه لم يكن يود أن يرى أحداً من البشر ، بل أن يظل وحيداً على ارضه ، فلم يذهب إلى اي من أسرات القرية . ولما أتوا إليه – أو بالأحرى لما جاءه من بقوا منهم أحياء بعد مجاعة الشتاء – أبدى الإعراض لهم ، وصرخ في وجوههم : « من منكم انتزع باب بيتي ، ومن أخذ منجلي وفأسي ، ومن منكم أوقد بسقفي فرنه ؟ » . وهزوا رؤوسهم في إخلاص ونزاهة وقال قائلهم : « عمك هو الذي فعل هذا » . وقال آخر : « وي ! .. كيف يمكن القول بأن هذا الشخص أو ذاك سرق شيئاً ، مع وجود عصابات اللصوص والأشقياء الذين ظلوا يرتادون هذه المنطقة ويعيشون فيها فساداً خلال أيام السوء التي سادت فيها المجاعة ونشبت الحرب ؟ .. إن الجوع يجعل من أي إنسان لصاً ! . وعندئذ أقبل جاره تشينغ يدب من بيته ليرى وانغ لنغ ، وقال له :

« ان عصابة من اللصوص كانت تقيم في بيتك خلال الشتاء ، وراحت تسطو على القرية والمدينة كلما استطاعت ، ويقال ان عمك يعرف عن اعضائها أكثر مما ينبغي لرجل شريف . ولكن من الذي يعرف الحق من الباطل في هذه الأيام ؟ إنني لا أجرؤ على اتهام أي رجل . »

وكان الرجل قد أصبح شبحاً في الواقع ، إذ التصق جلده بعظامه ، وشاب شعره وتساقط معظمه ، بالرغم من انه لم يكن قد بلغ الخامسة والأربعين ، فحملق وانغ لنغ فيه برهة ، ثم قال فجأة في عطف : « الظاهر انك قاسيت أشد مما قاسينا فماذا كنت تأكل في تلك الأيام ؟» . فتأوه الرجل واجاب فيما يشبه الهمس : « بل سلني عما لم آكله .. لقد اكلنا فضلات الشوارع كالكلاب .. عندما كنا نستجدي في المدينة .. وأكلنا الكلاب الميتة وحدث مرة – قبل أن تموت زوجتي – ان طهت حساء بلحم لم أجرأ ان أسألها عن نوعه ، كنت واثقاً

فحسب من أنها لم تؤت الشجاعة الكافية لتقتل أحداً ، فإذا كنا قد أكلنا من شيء عثرت عليه . ثم ماتت ، لأنها كانت أقل احتمالاً مني ، وبعد أن ماتت أعطيت ابنتي لجندي ، لأنني لم استطع أن أراها تموت جوعاً هي الأخرى » . وأمسك برهة وقد ران عليه الصمت ، ثم قال : « لو كان لدي بعض البذور لبدأت الزراعة مرة أخرى ، ولكن لا حبوب لدي » . فصاح وانغ لنغ بخشونة ، وهو يجره من يده إلى البيت : « تعال معي ! » .وسأله أن يرفع ذيل ثوبه المهلهل ، ثم أفرغ فيه بعضا من البذور التي جاء بها معه من الجنوب . فأعطاه قمحا وأرزاً وبذور كرنب ، ثم قال : « سآتي غداً فأحرث لك أرضك بثوري القوي ! » . وشرع تشينغ فجأة في البكاء ، ففرك وانغ لنغ عينيه ، وصاح وكأنه غاضب : « أتظنني نسيت أنك اعطيتني تلك الحفنة من الفول ؟ » .ولكن تشينغ لم يستطع أن يرد بشيء ، وإنما خرج وهو يبكي ويواصل النحيب بغير توقف .

واغتبط وانغ لنغ عندما علم ان عمه لم يعد في القرية ، وان احداً لم يكن يعرف بالتأكيد اين هو ، فقال بعضهم انه رحل إلى احدى المدن ، وقال البعض الآخر إنه هاجر إلى بلاد نائية مع زوجته وابنه . ولكن لم يبق في بيته في القرية أحد ، فإن البنات ــ وقد سمع وانغ لنم هذا في حنق شديد ــ كن قد بعن واجملهن اولاهن ، في مقابل ما امكن يأتين به من ثمن ، حتى الأخيرة ــ ذات الوجه المشوه ببثور الجدري ــ بيعت هي الأخرى بحفنة من البنسات لجندي كان ماراً في طريقه إلى ميدان القتال .

ولم يلبث وانغ لنغ ان انهمك في عمله في الأرض ، وكان يكره حتى الساعات التي لم يكن ثمة بد من ان يقضيها في البيت للأكل والنوم . بل إنه كان يستطيب ان يأخذ معه رغيفا وبعض الثوم إلى الحقل ، ويأكل هنــاك وهو واقف يدبر ويفكر : «هنا ساضع الفاصوليا ذات العين السوداء ، وهنا احواض الأرز . فإذا اشتد به الإرهاق خلال النهار ، استلقى في إحدى الجعدات ــ مستشعراً دفء ارضه الطيبة لصق لحمه ــ ونام . ولم تكن اولان عاطــلة في المنزل ،

بل إنها ربطت بيديها الحصائر بأخشاب السقف بدقة وإحكام ، وأحضرت طيناً من الحقول فمزجته بالماء وأصلحت جدران البيت ، وأعادت بناء الفرن، وملأت الحفر التي أحدثها ماء المطر في الأرض .

ثم ذهبت في أحد الأيام إلى المدينة مع وانغ لنغ ، واشتريا سرراً ومائدة وستة مقاعد وقدراً حديدية كبيرة الحجم . ثم ابتاعا – من قبيل الرفاهية – ابريق شاي من الخزف الأحمر ، رسمت عليه بالحبر زهرة سوداء ، وست أقداح تتمشى معه ، وفي النهاية ذهبا إلى حانوت لبيع البخور واشتريا منه تمثالاً من الورق لرب الثروة ، ليعلقاه على الجدار فوق المائدة في الردهة الوسطى ، كما اشتريا شمعدانين من الزنك ، ومبخرة من الزنك ، وشمعتين حمراوين سميكتين من دهن البقر ، يتوسط كل منهما عود رفيع من الغاب بمثابة الفتيل .

وإذ ابتاعا هذا فكر وانغ لنغ في الإلهين الصغيرين في المعبد – إلهي الأرض – فعرج عليه في طريقه إلى البيت، ونظر إليهما ، فإذا بهما في حالة تدعو إلى الشفقة ، إذ محا المطر معالم وجهيهما ، ونال من طين جسديهما اللذين تعريا وبانت أجزاء منهما من خلال ثيابهما الورقية المهلهلة . فلم يكن أحد قد عني بهما خلال ذلك العام الرهيب . وتفرس وانغ لنغ فيهما بمزيج من القسوة والسرور ، وقال بصوت عال ، وكأنه يخاطب طفلاً استحق العقاب : « هذا جزاء الآلهة التي تصيب الإنسان بالشر ! » .

وإذ راح وانغ لنغ يتطلع إلى السماء فوقه ، والسحب البيضاء تجتازها في نشاط ، وشعر على جلده شخصياً وفوق حقوله المحروثة بالشمس والمطر وقد تناسبت مقاديرهما، فتمتم لنفسه وهو كاره : « لا بد من أن أضع قدراً من البخور أمام الإلهين في المعبد الصغير ، فإن لهما على أية حال سلطاناً على الأرض ! ».

الفصل السادس عشر

وبينما كان وانغ لنغ راقداً بجوار زوجته ذات ليلة ، شعر بجسم صلب – بحجم قبضة يد الإنسان – بين ثدييها ، فسألها : « وما هذا الآن الذي تضمين فوق جسمك ؟ » . ومد يده فوجد حزمة ملتفة في قطعة من القماش ، كانت صلبة ، ولكنها تحركت وهو يتحسسها . وتراجعت زوجتـــه بعنف في بداية الأمر ، ولكنه عندما قبض على اللفافة لينتزعها منها، استسلمت قائلة : حسناً ، اطلع عليها إذن ، إذا لم يكن ثمة بد ! ».

وأمسكت الخيط الذي يربطها إلى عنقها فقطعته ، ثم أعطته الشيء الملفوف. كان ملفوفاً في قطعة رثة من القماش فمزقها ، وإذ ذاك سقطت في يده فجأة كمية من الجواهر ، فحملق فيها وانغ لنغ مذهولاً .. كانت ثمة كمية من الجواهر لا يحلم إنسان باجتماعها في مكان واحد .. جواهر حمراء بلون قلب البطيخ، وذهبية بلون القمح ، وخضراء كأوراق الشجر الغضة في الربيـــع ، صافية كالماء المنبثق من الأرض . وما كان وانغ لنغ ليعرف لها أسماء ، فلم يسبق له أن سمع أسماء جواهر ، بل لم يسبق له أن رأى جواهر بهذه الكمية في وقت واحد . ولكن عندما أمسك بها بيده وحملها في تجويف كفه القوي الأسمر ، أدرك من بريقهـــا وتلألئها في الغرفة – التي كاد الظلام أن يسودها – أنه يمسك بثروة . وظـــل قابضاً عليها دون أن يبدي حراكاً وقد انتشى بلونها وشكلها . وعقدت الدهشة لسانه ، وظل هو والمرأة يحملقان فيما كان يحمل . وأخيراً همس لزوجته وهو يلهث : « من أين ... من أين ؟ » . فهمست بدورها في خفوت : « من دار الرجل الغني، لا بد أن هذا كان كنز محظية .. لقد رأيت حجراً مقلقلاً في الجدار،

فتسللت نحوه متظاهرة بعدم الاكتراث ، لكيلا يراه أحد فيطالبني بنصيب منه. ثم انتزعت الحجر ، وأخذت الجواهر البراقة وأخفيتها في كمي » .

فعاد يهمس لها وهو ممتلىء إعجاباً بهـا : « ولكن ، كيف عرفت ؟ » . فأجابت في ابتسامة ارتسمت على شفتيها ، ولم تظهر قط في عينيها : « أتظن أنني لم أعش في دار رجل غني ؟. إن الأثرياء جميعاً في خوف مقعد مقيم ، وقد رأيت لصوصاً في إحدى السنوات السيئة يندفعون من باب البيت الكبير ، فأخذت الجواري والمحظيات ـ بل والسيدة الكبيرة هي الأخرى ـ يعدون هنا وهناك ، وكل منهم تحمل ثروة تدسها في مكان سري سبق إعداده . ولهذا عرفت معنى الحجر المقلقل » .

وران عليهما الصمت مرة أخرى ، وهما يحملقان في الجواهر العجيبة . وما لبث وانغ لنغ أن تمالك نفسه ـ بعد فترة طويلة ـ وقال في حزم : « إن كنزاً كهذا لا يمكن الاحتفاظ به ، بل يجب أن يباع ، ويوضع ثمنه في مأمن بأن يحول إلى أرض ، إذ ليس هناك ما هو مضمون أكثر منها ، ولو أن احداً عرف بهذا فسنموت في اليوم التالي ، ويحمل لص هذه الجواهر .. ويجب أن نحولهـا إلى أرض في يومنا هذا بالذات ، وإلا فلن أنام الليل » .

ولف الجواهر في قطعة القماش من جديد وهـو يتكلم ، ثم ربطها بالخيط بإحكام ، وبينما كان يفتح ثوبه ليضعها في صدره ، لمح وجه المرأة مصادفة .. كانت تتربع على الفراش ـ في طرفه الادنى ـ ووجهها الجامد ، الذي لم يكن ألبتة يعبر عن شيء ، يعبر عن رغبة مبهمة وحنين يتمثلان في شفتين منفرجتين وعنق مشرئب إلى الأمام .

وسألها وهو في عجب من أمرها : « وبعد ، ماذا هنالك ؟ » . وأجاب وهو مندهش : « ولم لا ؟ .. لماذا نحتفظ بجواهر كهذه في بيت من طين ؟ » فقالت في يأس العاجز الذي لا يتوقع شيئاً ، « ليتني أحتفظ باثنتين لنفسي ! » .

وتأثر من هذه اللهجة كما يتأثر عندما يجد أحد أطفاله مشتاقاً إلى لعبة أو قطعة من الحلوى ، فصاح في دهشة يقول : «وبعد؟ » فمضت تقول في انكسار: « لو قدر لي أن احتفظ باثنتين منها .. باثنتين صغيرتين فقط !. ولو اللؤلؤتان البيضاوان الصغيرتان ! » .. فردد في دهشة ! « اللؤلؤتان ! » . فقالت : « سأحتفظ بها ، لن أتزين بها ، وإنما سأحتفظ بها فقط » . وغضت بصرها وأخذت تلوي طرفاً من فراش السرير كان الخيط فيه محلولاً ، وهي تنتظر في صبر ، كمن لا يكاد يتوقع إجابة عن سؤاله . وإذ ذاك استشف وانغ لنغ في لحظة – دون أن يدري – قلب هذه الأنثى المتبلدة المخلصة ، التي عملت كل حياتها في مهام لم تنل عنها جزاء ، والتي كانت ترى الأخريات – في البيت الكبير – يتزين بجوهرات لم تنعم مرة ولو بلمسها في يدها . وأضافت تقول ، وكأنها تحدث نفسها : « وأمسك بها أحياناً في يدي ! » .

وتأثر وانغ لنغ بشكل لم يفهمه ، فأخرج الجواهر من صدره ، وفض اللفافة وأسلمها إياها في صمت ، راجع بين ألوانها البراقة ، ويدها السمراء الصلبة تقلب الأحجار برفق وحنو ، حتى وجدت اللؤلؤتين الناعمتين ، فأخذتها وحزمت الجواهر الأخرى وأعادتها إلى زوجها . ثم أخذت اللؤلؤتين ، ومزقت قطعة من طرف ثوبها فلفتها فيه ، وأخفتها بين نهديها . وارتاحت لذلك نفسها .

غير أن وانغ لنغ كان يرقبها في دهشة ، دون أن يفهم من أمرها كثيراً ، حتى إنه وجد نفسه خلال ذلك اليوم – والأيام الأخرى – يقف أحياناً ليتفرس فيها ويحدث نفسه قائلاً : « أحسب أن امرأتي هذه لا تزال تحتفظ باللؤلؤتين في صدرها » . ولكنه لم يرها قط تخرجها أو تلقي نظرة عليها .. ولم يتحدث معها ثانية عنها على الإطلاق .

أما الجواهر الأخرى فقد أخذ يقلب وجوه الرأي في كيفية تصريفها ، واستقر رأيه أخيراً على أن يذهب بها إلى البيت الكبير ليرى هل لديهم المزيد من

الأرض للبيع . ومن ثم فقد قصد إلى البيت الكبير ، ولم يكن هناك في تلك الأيام حارس يقف على بابه ، ويفتل شعيرات شامته الطويلة ، وهو ينظر شزراً إلى الذين لا يستطيعون الدخول إلى بيت آل هوانغ إلا بعد استئذانه . على أن الأبواب الضخمة كانت مغلقة ، فأخذ يقرعها بشدة بقبضتيه كلتيهما ، دون أن يخف إليه أحد . وكان المارة ينظرون إليه ويصيحون فيه : « تستطيع أن تقرع كيفما شئت ، فإذا كان السيد الكبير مستيقظاً فقد يأتي لك ، وإذا كانت هناك جارية من أولئك الجواري الكلاب قريبة من الباب ، فقد تفتح لك.. إذا كانت لها رغبة في الفتح ! » .

ولكنه سمع أخيراً صوت وقع أقدام بطيئة الحركة تتقدم نحو عتبة الباب . خطوات بطيئة مترنحة كانت تتوقف من حين إلى آخر . ثم تواصل تقدمها .وما لبث أن سمع صوت سحب الرتاج الحديدي الذي يغلق الباب ، وسمع بعد هذا صرير الباب ثم صوتاً ضعيفاً يتساءل في همس : « من هذا ؟ » . إذ ذاك أجاب وانغ لنغ بصوت عال ، وإن كان قد تملكته الدهشة :« إنه أنا .. وانغ لنغ!». فقال الصوت في غير ترحاب :« ومن يكون هذا الوانغ لنغ الملعون؟ ». وأدرك وانغ لنغ من نوع السباب أن المتحدث هو السيد الكبير نفسه ، إذ كان يلعن بطريقة الشخص الذي اعتاد نهر الخدم والجواري ، فأجابه وانغ لنغ بخضوع أكثر من ذي قبل : « سيدي ومولاي : لقد أتيت في مهمة صغيرة ، لا لأزعج سيادتك ، وإنما لأفاوض الوكيل — الذي يتشرف بخدمتكم — في صفقة ! » . وهنا أجاب السيد الكبير ، دون أن يفتح الباب إلى أكثر من الشفرة التي ألصق بها شفتيه : « ألا عليه اللعنة !.. لقد غادرني هذا الكلب منذ عدة أشهر ، فهو غير موجود ».

ولم يعرف وانغ لنغ ماذا ينبغي أن يفعل بعد هذا الرد ، فقد كان من المستحيل التحدث عن شراء الأرض مع السيد الكبير مباشرة ، دون وسيط ، ولكن الجواهر كانت معلقة على صدره ، حامية كأنها النار ، فود التخلص

منها ، وكان – أكثر من هذا – راغبا في الأرض ، فالبذور التي كانت لديه ، كان بوسعه أن يزرع بها مساحة أخرى من الأرض تعادل مساحة أرضه ،ثم إنه كان راغبا في الأرض الطيبة التي يملكها آل هوانغ بالذات . فقال في تردد : « لقد أتيت بشأن قليل من النقود » . ودفع السيد الكبير الباب فأوصده لفوره ، وهو يقول بصوت أكثر ارتفاعا من الصوت الذي كان يتحدث به : «لم يعد في هذا البيت مال ، فإن ذلك الوكيل اللص السارق – لعن الله أمه وأم أمه – أخذ كل ما كنت أملك ، ولا سبيل إلى سدادين » . فصاح وانغ لنغ بسرعة : « لا . لا . لقد أتيت لأدفع ، لا لأحصل دينا » . إذ ذاك سمع وانغ لنغ صرخة رفيعة من صوت لم يكن قد سمعه حتى تلك اللحظة ، ثم دفعت امرأة وجهها فجأة بين فرجة الباب ، وقالت بحدة . « هذا شيء لم أسمع به منذ عهد بعيد ! » .

ورأى وانغ لنغ وجها جميلا ، بادي الدهاء ، متورداً ، يتطلع إليه ، وقالت المرأة لتوها : « تفضل ! » . وفتحت الباب إلى درجة تمكنه من المرور ، ثم أحكمت رتاج الباب خلفه ، بينما كان يقف في الفناء وقد تملكته الدهشة .

ووقف السيد الكبير يسعل ويحملق ، وقد التف في ثوب قذر من الساتان .

أما المرأة فكانت نظيفة إلى حد كبير ، ولها وجه صارم ، حاد المعالم ، جميل .. جمال الصقور .

ولم ير وانغ لنغ – بخلاف هذه المرأة والسيد الكبير – أحداً آخر في البهو الذي كان في الماضي يموج بالرجال والنساء والأطفال ، يجرون رائحين غادين في أعمال البيت . وقالت المرأة بحدة : « والان ، لنتكلم عن النقود ! » . ولكن وانغ لنغ تردد ، إذ لم يكن يستطيع الكلام بحرية امام السيد الكبير ، وهذا

ما لاحظته المرأة لفورها ، إذ كانت تلاحظ كل شيء بأسرع مما يستطيع الحديث أن يفصح عنه ، فالتفتت إلى السيد الكبير وقالت بجدة : « انصرف أنت ! » .

وجر الشيخ المسن نفسه ، دون ان ينطق بكلمة ، أما وانغ لنغ ، فلم يدر ما يقول أو يفعل ، إذ بقي وحيداً مع المرأة .

وقالت المرأة بحدة بالغة ، حتى إن وانغ لنغ قفز لصوتها الذي انبعث عالياً على غير توقع : « وبعد ياذا الرأس الخشبي !.. إذا كان لديك مال فدعني أره » .

فقال وانغ لنغ بحذر : «.. لم أقل إن لدي مالاً ، ولكن لدي صفقة » . فقالت المرأة : « الصفقة معناها نقود .. إما نقود وافدة وإما نقود خارجة ، وليست هناك نقود لتخرج من هذا البيت » .

فاعترض وانغ لنغ في تلطف ، قائلاً : « ولكن لا أستطيع التحدث في هذا الشأن مع امرأة » . ولم يدر كيف يتصرف في الموقف الذي وجد نفسه فيه وكان بعد ينظر حوله بذهول ، عندما صرخت المرأة في غضب ، « ولم لا ؟ » ثم عادت تصرخ فيه مرة اخرى ، « ألم تسمع أيها الأحمق ؟ إنه لا يوجد في هذا البيت أحد » .

فحملق فيها وانغ لنغ في ضعف وهو غير مصدق ،وصاحت فيه مرة أخرى « أنا والسيد الكبير لا يوجد أحد سوانا » .

فسألها وانغ لنغ ، وهو مذهول إلى درجة لم يبد معها لكلماته معنى : «أين هم إذن ؟ » فقالت المرأة « السيدة الكبيرة ماتت . الم تسمع في المدينة كيف داهمت عصابات اللصوص الدار وحملت معها كل ما امكنها حمله من جوار وسلع ؟. ولقد علقوا السيد الكبير من إبهامه ، وضربوه ، أما السيدة الكبيرة

فقد أوثقوها في مقعد ، وكموا فمهـــا ، وفر كل امرىء ، ولكني بقيت ، إذ اختفيت في قدر مملوءة بالماء إلى نصفها ، وعليها غطاء خشبي . وعندما خرجت كانوا قد تركوا البيت فوجدت السيدة الكبيرة ميتة في المقعـد لا من أية لمسة منهم ، وإنمـــا من الخوف . وكان جسمها كعشب متعفن بسبب الأفيون الذي كانت تتعاطاه ، فلم تحتمل الخوف ».

وقال وانغ لنغ لاهثاً : « والخدم والجواري ، والبواب ؟ » فأجابت بغير اكتراث : « آه ، هؤلاء ؟! لقد ذهبوا قبل ذلك بكثير .. رحل كل من كانت له قدمان تحملانه ، لأنه عندما انتصف الشتاء ، لم يبق هناك طعام ولا مال » . وخفت صوتها قليلاً حتى صار همساً ، وهي تقول . « كان بين اللصوص كثير من الخدم . لقد رأيت بنفسي ذلك البواب الكلب . وكان يتقدم الطريق،وإنه أشاح بوجهه في حضرة السيد الكبير ومع ذلك فقد عرفته من الشعيرات الطويلة الثلاث في شامته . وكان هناك غيره ، إذ كيف يتسنى لغير الخبير بهذه الدار ، أن يعرف أين كانت الجواهر مخبأة ، ومكامن الكنز السري الذي كان يتألف من أشياء لا تباع ؟ وإني لا أستبعد أن يكون الوكيل نفسه وراء كل هذا ، وإن كان خليقاً بأن يتعفف عن الظهور علناً في مسألة كهذه ، لأنه قريب بعيد للأسرة » .

وصمتت المرأة ، وكان السكون المخيم على ردهـات القصر وأبهائـه أشبه بالسكون الذي يعقب الموت . ثم قالت : على أن هذا لم يكن بالأمر المفاجىء ، فإن تدهور هذا البيت وسقوطه كان منتظراً طيلة عمر السيد الكبير وأبيه ، إذ كف السادة ــ في الجيل الماضي ــ عن رعاية الأرض ، وكانوا يأخذون الأموال التي يعطيهم الوكلاء إياها ، ويهدرونها كالماء ، وفي هذه الأجيال فقدت الأرض قوتها ، وبدأت تضيـع كذلك قطعة بعد قطعة .

وسألها وانغ لنغ وهو لا يزال يحملق فيما حوله ، فقد كان من المستحيل عليـه

أن يصدق هــذه الأمور : وأين السادة الصغار ؟ فـاجابت المرأة بغير اكتراث :

« هنا وهناك . كان من حسن الحظ أن تزوجت الفتاتان قبـل ان يحدث كل هذا » .

وعندما سمع الابن الاكبر للسيد بما حل بوالده ، ووالدته، أوفد رسولاً ليأخذ السيد الكبير ـ والده ـ ولكني أغريت الرأس العجوز بألا يذهب . . وقلت له : ومن يبقى في البيت هذا لن يليق بي ، فلست سوى امرأة » .

وزمت شفتيها المراوين في خفر وحشمة وهي تقول هذا ، ثم أسبلت عينيها الجريئتين وعادت تقول ، بعد أن سكتت برهة : « وفضلاً عن هــذا ، فإني كنت الجارية المخلصة لسيدي خلال هــذه السنوات الكثيرة ، وليس لي بيت آخر » .

فحدجها وانغ لنغ بنظرة ثاقبة ، ثم حول نظره بسرعة ، وقـد بدأ يتبين الأمر .... كانت امرأة تتعلق برجل أشرف على الموت ، من أجــل آخر ما يمكن أن تظفر به منه ، فقال في اشمئزاز : « أما وأنت مجرد جارية ، فكيف أعقد صفقة معك ؟ » .

وعند ذلك صاحت فيه : « لسوف يفعل أي شيء أشير به عليه . » ففكر وانغ لنغ في هذا الرد . كانت الأرض موجودة ، ولسوف يشتريها غيره بوساطة هذه المرأة ، إن لم يشترها هو . فسألها كارها : « ماذا بقي من الأرض ؟ » . وأدركت بسرعة مقصده، فبادرت تقول : إذا كنت قد أتيت لتشتري أرضا، فلدى الشيخ أرض للبيع .. لديه مائة فدان في الغرب ، ومائتان في الجنوب . يمكنه أن يبيعها ، إنها ليست قطعة واحدة ، ولكن مساحتها كبيرة ، ويمكن... شراؤها إلى آخر فدان فيها » .

وكانت تتحدث في يسر وثقة ، مما حمل وانغ لنغ على أن يدرك أنها تعرف

كل شيء تركه السيد الكبير ، حتى آخر شبر في الأرض ، ولكنه ظـل غير مصدق أنه يستطيع إجراء صفقة مع هذه المرأة ، وغير راغب في ذلك ، فقال : « ليس من المحتمل أن يستطيع الشيخ بيع أرض الأسرة دون موافقة أبنائه ». ولكن المرأة ردت على كلماته ملهوفة : « اما بهذا الصدد ، فقد اخبره الأبناء أن يبيع كلما استطاع البيع ، فالأرض في منطقة لا يريد احد من الأبناء أن يعيش فيها ، والبلاد تجتاحها عصابات اللصوص في ايام المجاعة هذه . وقد قالوا جميعاً . لا نستطيع العيش في مكان كهذا . فلنبع الأرض ونتقاسم المال » .

وسألها وانغ لنغ وهو لا يزال غير مصدق : « ولكن إلى يد من أسلم الثمن؟ ».

فأجابت المرأة في نعومة . « إلى يد السيد الكبير .. فمن غيره هناك ؟ » . ولكن وانغ لنغ ادرك أن يد الشيـخ كانت مفتوحة على يدها ، ولهذا لم يشأ مواصلة الحديث معها ، فتحول قائلاً : إلى يوم آخر . . إلى يوم آخر ، وسعى إلى البوابة فتبعته وهي تصيـح خلفه حتى بلغ الشارع : « تعـال غداً في مثل هذا الوقت .. أو بعد ظهر اليوم ، كل الأوقات سواء ! »

وانطلق في الشارع دون ان يجيب ، وهو في حيرة كبيرة ، وبحـاجة إلى التفكير فيما سمع . فذهب إلى مشرب الشاي الصغير ، وطلب من الصبي شايا . فلما وضعه امامه برشاقة ، وتناول منه البنس وطوح به في الهواء ثم تلقفه في وقاحة ، استسلم وانغ لنغ لنوبة من التفكير والتأمل ، وكان كلما ازداد استغراقا ، هاله أن تنهار وتتفرق هذه الأسرة العظيمة الغنية ، التي كانت خلال حياته كلهـا ، وطول أعمار أبيه وأجداده ، مثال القوة والمجد في المدينة .

وقال لنفسه في حسرة : « لقد ترتب هذا على تخليهم عن الأرض » . وفكر في ابنيه اللذين كانا ينموان بسرعة .

ولكن الجواهر كانت طيلة الوقت موجودة . . يستشعر جسده دفئهـا وثقلها . . وكان خائفاً باستمرار . فقد خيل إليه كما لو ان بريقهـا يشع من

خلال أسماله البالية ، وأن شخصا يصيح : « ها هو ذا رجل فقير يحمل معه كنز إمبراطور ! »

ما كان ليهدأ له بال حتى يتم تحويل هذه الجواهر إلى ارض . . . لهـذا مضى يترقب إلى أن سنحت فترة راحـة لصاحب المشرب ، فناداه قائلاً : « تعال واشرب قدحا على حسابي ، واخبرني بأنباء المدينـة ، إذ كنت غائباً عنها شتاء كاملاً »

وكان صاحب المشرب على استعداد دائماً لحديث كهذا ، لا سيا إذا شرب شايه على حساب الاخرين ، ولهذا بادر بالجلوس إلى مائدة وانغ ولنغ . وكان لا يفتأ يردد هذه العبارة : « هناك مثل يقول : ليس للطاهي المـاهر ثوب نظيف على الإطلاق » ولهذا كان يعتبر قذارتـه أمراً لا بد منه ، وله مـا يبرره . وجلس ، ثم بادر قائلاً : « إذا طرحنا جانباً حكاية موت الناس جوعا ـ وهذه ليست بالخبر الجديد ـ ليس هناك أهم من نبـأ السرقة التي حدثت في دار آل هوانغ » .

وكان هذا هو ما تمنى وانغ لنغ أن يسمعه .. ومضى الرجل يحدثه عـن السرقة في تلذذ ، ويصف له كيف كانت الجواري القلائـل – اللواتي تبقين في الدار – يصرخن ،وكيف حملهن اللصوص ، وكيف اغتصبت المحظيات الباقيات وطردن ، بل واختطفت بعضهن ، فلم يعد أحد يرغب في الإقامة في هذه الدار على الإطلاق .. واختتم الرجل حديثه قائلاً : لا أحد سوى السيد الكبير الذي أصبح الآن بكليته ملكا لجارية تدعى « كوكو » ، ظلت خليلة له عدة سنوات بينما كان غيرها يجئن ويذهبن – وذلك بفضل مهارتها » .

فسأله وانغ لنغ وهو يصيخ السمع : « وهل لهذه المرأة أي سلطان إذن ؟ » فأجاب : « بوسعها – في الوقت الحاضر – أن تفعل كل شيء ، ومـن ثم فهي تقبض – في الوقت الحاضر – على كل ما يمكن القبض عليه ،وتبتلع كل ما يمكن

ابتلاعه . ولكن سيأتي يوم ـ بطبيعة الحال ـ يعود فيه السادة الصغار ، بعد أن تتم تسوية شئونهم في الجهات الأخرى ، وإذ ذاك لن يمكنها أن تغرر بهم بادعائها أنها خادم أمينة جديرة بالجزاء ، بل سيطردونها على أنها دبرت معاشها ، ولو قدر لها أن تعيش مائة عام ! » .

وأخيراً سأله وانغ لنغ وهو يرتجف من التلهف : « والأرض ! » . ولم تكن الارض تعني صاحب المشرب على الإطلاق ، فتساءل في عجب ، « الارض ؟ .. ما شأنها ؟ » .

فسأله وانغ لنغ بصبر نافد : هل هي للبيع ؟ » : وأجاب الرجل بغير اكتراث : « آه ، الارض ! » .

وعند ذاك دخل عميل جديد إلى المشرب ، فقام الرجل . وقال وهو يسير : « لقد سمعت انها للبيع ، ما عدا القطعة التي يدفن فيها افراد الأسرة منذ ستة أجيال » . وانصرف الرجل الى عمله ، ونهض وانغ لنغ ايضاً بعد ان سمع ما جاء ليسمعه ، فخرج . ثم اقترب من الأبواب الضخمة ، وجاءت المرأة لتفتح له ، فوقف عند الباب دون ان يدخل ، وقال لها : « خبريني أولاً ، هل يوقع السيد الكبير بخاتمه عقود البيع ؟ » فردت بلهفة ، وعيناها مثبتتان على عينيه :«أجل سيوقع .. سيوقع .. اقسم لك على هذا بحياتي . »

وهنا قال وانـغ لنغ بصراحة : « أتبيعين الارض بالذهب أم بالفضة ، أم تؤثرين الجواهر ؟» . ولمعت عيناها وهي تقول : « أفضل بيعها لقاء جواهر !» .

الفصل السابع عشر

أصبح لوانغ لنغ أرض أكبر من أن يستطيع رجل واحد بثور واحد أن يحرثها وأن يحصدها ، ومحصول أكبر من أن يستطيع رجل واحد أن يدرسه ويختزنه. ولهذا بنى غرفة صغيرة أخرى في بيته ، واشترى حماراً ، وقال لجاره تشينغ : «بعني قطعة الأرض الصغيرة التي تملكها، ودع بيتك الموحش ، وانتقل إلى بيتنا ، وساعدني في العمل في أرضي ! » .

وفعل تشينغ هذا عن طيب خاطر . ثم أمطرت السماء في الموسم ، فنما الارز الصغير . وعندما تم جني القمح وحزمه في حزم كبيرة ، زرع الرجلان «شتلات» الارز الصغيرة في الحقول المغمورة بالمياه .

وقد زرع وانغ لنغ في هـــذا العام من الارز أكثر مما زرع في أي وقت آخر ، لان الامطار جاءت بمياه فياضة ، فإذا الارض التي كانت جافة من قبل ، تصبح في هذا العام صالحة للأرز . حتى إذا حان وقت الحصاد ، لم يستطع هو وتشينغ أن يحصدا المحصول وحدهما، لانه كان وفيرا إلى درجة كبيرة،فأستأجر وانغ لنغ رجلين آخرين ــ كانا يسكنان في القرية ــ وجنوا المحصول .

وبينما كان يعمل في الارض التي اشتراهـــا من آل هوانغ ، تذكر السادة الشبان الكسالى ــ من أبناء هذه الأسرة المنهارة ــ فأخذ يأمر ولديه ــ بصرامة ــ في كل صباح بأن يذهبا معه إلى الحقول ، وكان كلفهما من العمل بما كانت تستطيع أيديهما الصغيرة أن تؤديه ــ كقيــادة الثور والحمار ــ ويحملهما يألفــان حرارة الشمس على جسديهما على الأقل ، ما داما لم يكونا يستطيعان تأدية العمل ، ويعتادان

تعب المشي جيئة وذهابا على الأخاديد . أما « أولان » فلم يسمح لها بالعمل في الحقول لأنه لم يعد فقيراً ، وانما أصبح رجلا يستطيع استجار من يؤدي له أعماله إذا شاء .

ومن ثم راحت « أولان » تعمل في البيت ، وتصنع لكل فرد من الأسرة ملابس وأحذية جديدة . كما صنعت لكل فراش أغطية من قماش عليه رسوم أشجار محشوة بالقطن الجديد الدافيء . ولما تم هـذا ، أصبح لهم من الثياب والفراش مـا لم يظفروا به من قبل . ثم استلقت على فراشها ووضعت مرة أخرى . وقد ظلت تأبى أن يكون معها أحد ، برغم إنها تستطيع أن تستأجر من تختار .. ولكنها اختارت أن تكون وحدها .

ولقد طال بها المخاض في هذه المرة . وعندما عـاد وانغ لنغ الى البيت في المساء ، وجد والده واقفاً عند الباب ، وهو يضحك ويقول : إنها بيضة بصفارين في هذه المرة ! » . فلما دخل وانغ لنغ الغرفة الداخلية ، رأى أولان مستلقية على الفراش وبجوارها وليدان توأمان : ذكر وانثى ، في تشابه حبتين من الأزر وقهقه صاخباً لما فعلته زوجته ، ثم فكر في عبارة مرحة يقولها : « إذن ، فلهذا كنت تحملين اللؤلؤتين على صدرك ! » . وعاود الضحك مما فكر في ان يقوله . فلما رأت أولان مدى اغتباطه ابتسمت ابتسامتها البطيئة التي تكبدها عناء .

وعلى هذا ، لم يكن يكدر وانغ لنغ ـ في هذا الوقت ـ أسى من أي نوع ، اللهم إلا أساه لأن ابنته الكبرى لم تكن تتكلم ولا تقدر أن تعمل ما يناسب سنها من أعمال ، ولكنها ظلت تبتسم فقط ابتسامة الطفولة كلما التقى بصرها ببصر ابيها . وسواء أكان السبب هو تلك السنة التعسة الأولى من حياتها ، أم الجوع ، أم أي شيء آخر ، فقد راحت الشهور تتوالى ، ووانـغ لنغ يترقب الكلمات الأولى أن تنبعث من بين شفتيها ، ولو كانت هذه الكلمات هي اسمه ، الذي كان الاطفال ينطقونه هكذا « دادا ـ دا ـ دا » . ولكن ما من صوت انبعث .. لم تكن هناك سوى تلك الابتسامة الحلوة الفارغة . وعندما كان ينظر إليها ، كان يتأوه قائلا : « يا للبلهاء الصغيرة ! ... يا لابنتي البلهاء الصغيرة ! » .

وكان يصيح في أعماق قلبه : « لو أنني بعت هذه الفأرة الصغيرة، ووجدوها هكذا ، لكانوا قد قتلوها ! » .

وكأنما أراد أن يعوضها عما حرمت منه ، فأخذ يدللها ويسبغ عليها من عطفه ، وكان يصطحبها أحياناً إلى الحقل ، فتتبعه في صمت وسكون ، وتبتسم له كلما كلمها أو نظر إليها .

وفي تلك المناطق التي أقام وانغ لنغ فيها ووالده وأجداده طول حياتهم ، واعتمدوا فيها على الأرض ، كانت المجاعات تحدث مرة في كل خمس سنوات تقريباً ، او مرة كل سبع او ثمان او كل عشر سنوات إذا كانت الآلهة رحيمة. ذلك لأن الأمطار إما أن تتدفق سيولاً ، وإما أن تنعدم تماماً .. او لأن النهر الذي يجري في الشمال كان يمتلىء بالمياه الناشئة من الأمطار وجليد الشتاء في الجبال البعيدة ، فيفيض ويتدفق على الحقول ، متخطياً الجسور التي بناها الناس منذ قرون لتقف حائلاً ضد مياهه .

وكان الناس يفرون من الأرض مرة بعد أخرى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا إليها ، ولكن وانغ لنغ وطن نفسه على ان يبني ثروته على دعائم وطيدة ،حتى إذا ما مرت به سنون عجاف ، لم تكن به حاجة ألبتة إلى ان يهجر أرضه مرة أخرى ، بل يعيش على ثمار السنوات السمان ، وهكذا يصمد حتى يأتي عام آخر .. وطن نفسه على ذلك وساعدته الآلهة ، فكانت هناك محصولات وفيرة لسبع سنوات، وراح وانغ لنغ ورجاله يحصدون في كل عام فوق ما يستهلكون للأكل ، وصار يستأجر لحقوله مزيداً من العمال في كل عام ، إلى أن اصبح لديه ستة عمال . وبنى بيتاً جديداً خلف بيته القديم ، وانتقلوا اليه .

وكان وانغ لنغ — في تلك الأثناء —قد اختبر تشينغ اختباراً دقيقاً، فوجده أميناً ومخلصاً ، وأقامه رئيس عمال له يشرف على العمال والأرض ، وأجزل له العطاء ، فكان ينقده قطعتين من العملة الفضية في كل شهر ، إلى جانب طعامه .

على ان الرجل لم يكتسب أية زيادة في اللحم الذي على عظامه ، بالرغم من كل إلحاح وانغ لنغ عليه ليأكل ويأكل جيداً . فظل ضئيل الحجم ، هزيلاً ، نحيلاً وقوراً . ومع هذا فقد كان يعمل في اغتباط ، متنقلاً في صمت من الفجر حتى غروب الشمس ، يتكلم بصوته الضعيف الخافت إذا كان هناك ما يدعو إلى الكلام ، ولكنه كان أسعد حالاً وأكثر ارتياحاً إذا لم يكن هناك مثل هذا الداعي ، فكان يخلد إلى الصمت ، ويرفع فأسه ليهوي بها على الأرض ساعة بعد أخرى . ومع الفجر ، ثم عند الغروب كان يحمل إلى الحقول دلاء الماء او السماد لينشرها على صفوف نبتات الخضر .

ومع ذلك فإن وانغ لنغ كان يعلم أنه إذا كان بين العمال من ينام يومياً تحت النخيل أكثر مما ينبغي ، او يأكل أكثر من نصيبه في الطبق المشترك من عصيدة الفول ، او يأمر زوجته او طفله بالتسلل إلى الحقول – في زمن الحصاد – ليخطف حفنات من الحبوب وهي تتناثر في أثناء الدراس .. فإن هذا لم يكن يفوت تشينغ ، فكان يهمس في أذن وانغ لنغ في نهاية العام ، عندما يجتمع السيد والأجير حول مائدة واحدة بعد الحصاد : « لا تطلب من هذا الشخص او ذاك العودة للعمل في العام القادم ! » .. وكأنما حفنة البازلاء وحفنة البذور – اللتين تبودلتا بين الرجلين – جعلتها أشبه بأخوين ، فيما عدا ان وانغ لنغ – وهو الأصغر سناً – اتخذ مقام الأخ الأكبر ، فإن تشينغ لم ينس قط انه كان أجيراً وأنه يعيش في بيت يملكه سواه .

وفي نهاية العام الخامس قل عمل وانغ لنغ في حقوله ، إذ كان مضطراً – بسبب اتساع رقعة أراضيه لإنفاق وقته في الأعمال الإدارية وتسويق منتجاته وتوجيه عماله . وكان يضايقه إلى حد كبير – عدم إلمامه بالقراءة والكتابة ، فيضطر إلى أن يقول في اتضاع لتجار المدينة المترفعين : « سيدي ، هل تتكرم فتقرأ لي ما هو مكتوب ، لأني غبي إلى حد كبير ! » .

وفي يوم من أيام موسم الحصاد قفل راجعاً إلى دار عبر أراضيه الخاصة وهو مغضب ، بعد أن سمع قهقهة عالية صادرة من الكتبة في متجر الحبوب ، وهم في فترة الراحة عند الظهر متعطلون ومصغون لكل ما يدور حولهم ، وكلهم صبية لا يكادون يكبرون أولاده . وراح يقول لنفسه : ما من واحـــد بين هؤلاء الأغبياء من أهل المدينة يملك قدماً من الأرض ، ومع ذلك فهو يضحك كما تقاقىء الأوزة هزءاً بي ويجهلي القراءة والكتابة حتى إذا انفثأ غضبه لكرامته ، قال لنفسه « الحق أنه من العار لي ألا أستطيــع القراءة والكتابة ، سأسحب ابني الأكبر من الحقول ، ليذهب إلى مدرسة في المدينة فيتعلم حتى إذ ذهبت إلى أسواق الحبوب ، تولى القراءة والكتابة لي ، وبهذا أضع حـداً لذلك الضحك المكتوم علي ، وأنا من مالكي الأرض .

وبدا لهان هذا خير حل . وفي اليوم ذاته ، نادى ابنه الأكبر الذي كان قد أصبح صبياً فارغ القامة ، في الثانية عشرة من عمره ، شبيهاً بأمه في وجهه العريض العظام ، ويديه وقدميه الكبيرة ، ولكنه أوتي توقد عينيه وسرعتها . وعندما وقف الصبي أمامه ، قال له وانغ لنغ : « كف عن الذهاب إلى الحقول منذ اليوم وصاعداً ، لأني بحاجة إلى شخص متعلم في الأسرة ، ليقرأ لي العقود ويكتب اسمي ، فلا أشعر بالخجل في المدينة ! » .

فاكتسى وجه الصبي بحمرة قانية ، ولمعت عيناه ، وقال : « هذا ما كنت أتمناه يا ابي طول العامين الأخيرين ، ولكني لم أجرؤ على ان اطلب ذلك » . وما إن سمع الابن الأصغر بهذا الأمر حتى جاء باكياً شاكياً ، وهـو أمر لم يكن مستغرباً منه ، إذ كان ذلق اللسان ، كثير الضجيج ، منـــذ ان تعلم النطق . .

وقد انبرى في هذه المرة يقول لوالده معولاً : « وأنا كذلك لن أعمـــل في

الحقول فليس من العدل ان يجلس أخي مترفهاً في مقعـد مريـح ويتعلم ، بينما اضطر أنا إلى العمل كـكلب ، ومع اني ابنك مثله تماماً » .

ولم يطق وانغ لنغ ضوضاءه ، وكان على استعداد لإعطائه أي شيء إذا ما صاح يطلبه بصوته العالي ، فأسرع قائلاً : « حسناً ، حسناً . اذهبا إذن معاً فإذا أخذت السماء في ساعة نحس احدكما ، بقى الآخر على معرفة تمكنه مـن أداء أعمالي » .

واتخذ التدابير لإرسال الصبيين إلى مدرسة صغيرة بالقرب من باب المدينة ، يقوم على إدارتها كهل كان فيما مضى قد تقـدم لامتحانات شغـل الوظائف الحكومية ولكنه فشل . لذلك وضع مقاعد خشبية طويلة ومناضد في الغرفـة الرئيسية من داره ، واصبح يعلم الأولاد في مقابل مبلغ زهيد يدفعونه في كل عيد في السنة ، ويضربهم بمروحته الكبيرة وهي مطوية إذا تـكاسلوا ، او إذا عجزوا عن ان يرددوا على سمعه الصحائف التي يعكفون على استذكارها من الفجر إلى الغروب . ولم يكن التلاميذ يجدون راحة إلا في الأيام الدافئة في الربيـع والصيف ، لأن الشيـخ كان عندئذ يغفو وينام بعد تناول الغداء ، وتمتلىء الحجرة الصغيرة المظلمة بغطيطه . وعند ذاك كان الصبية يتهامسون ويرسمون صوراً يريها بعضهم لبعض تمثل هذا الشيء اللعين او ذاك ، ويبتسمون في صمت إذ يرون ذبابة تطن رتدور حول فك الكهل المتدلي المفتوح ، ويتراهنون عـلى ما إذا كانت الذبابة ستدخل في تجويف فم الكهل ام لا . ولكن ما إن يفتح عينيه فجأة ، وما كان احد ليعرف متى يفتحها ، اذ كان يفتحها بسرعة وخفية وكأنه لم ينم على الإطلاق ، حتى يراهم قبل ان يفطنوا ، واذ ذاك كان يأخذ المروحة ويقرع بها هذا الرأس وذلك وما ان يسمع جيرانه قرقعة المروحة الكبيرة وصراخ التلاميذ ، حتى يقولوا : « حقاً انه لمعلم قدير » ! ولهذا اختار وانغ لنغ هذه المدرسة ليتعلم فيها ولداه .

وفي اليوم الأول اخذ وانغ لنغ ولديه وذهب بهما إلى المدرسة وعند وصولهما أخذ وانغ لنغ يكلم المعلم بينما كان الولدان واقفين يتفرسان في الاولاد الآخرين الجالسين عـلى المقاعد وهؤلاء الاخرون يتفرسون فيهما . أما وانغ لنغ فكان يشعر اذ عاد الى بيته وحيداً ، بعد ان فارق الولدين بأن قلبه يكاد يطفر من صدره زهواً وكبرياء . وخيل اليه أنه لم يكن بين كل الصبية الذين كانوا في الغرفة من يداني ولديه في طولهما وقوتهما ونضارة وجهيهما الاسمرين ..

الفصل الثامن عشر

وهكذا بنى وانغ لنغ أقدار أسرته ، وعندما حلت السنة السابعة ، وفاض النهر العظيم الواقع في الشمال بوفرة من المياه من جراء غزارة الأمطار والثلوج في الناحية الشمالية الغربية — حيث كان منبعه — فطغى على الجسور ، واندمج مجتاحاً تلك المنطقة فأغرق أراضيها ، لم ينزعج وانغ لنغ ، أجل ، لم ينزعج مع أن خمس أرضه اصبح بحيرة يصل عمقها إلى كتف الإنسان أو أكثر .

وظل ماء النهر يرتفع طيلة أواخر فصل الربيع وأوائل فصل الصيف ، حتى أصبح — في النهاية — أشبه ببحر كبير ، بديع وهامد ، يعكس صور السحب والقمر وأشجار الصفصاف والغاب التي تغوص جذوعها في الماء . وهنا وهناك ، كان يقوم بيت من الطين ، هجره السكان ، ولا يلبث بعد أيام أن يتساقط ببطء في الماء والطين . وهكذا كانت حال جميع البيوت التي تشيد — كبيت وانغ لنغ — على التلال ، وقد أصبحت هذه التلال أشبه بالجزر . وأصبح الناس يذهبون إلى المدينة ويجيئون في القوارب وعلى العوامات ، وعانى بعض الناس الجوع كالعادة ..

ولكن وانغ لنغ لم ينزعج ، فقد كانت أسواق الحبوب مدينة له بالمـــال ، ومخازنه لا تزال مملوءة بمحصولات السنتين الأخيرتين ، وبيتاه قائمان على ربوة لا يرقى الماء أليهما ، فلم يكن ثمة ما يدعوه إلى الخوف ..

على أنه لما كان جزء كبير من الأرض لا سبيل الى زراعته ، فإن وانغ لنغ ، بات أكثر بطالة مما كان في أي وقت من حياته ، ومن جراء تعطله وامتلاء بطنه

بالأطعمة الطيبة ، أخذ يزداد ضيقاً كلما نام حتى لم يعد لديه سبيل إلى النوم ، وكلما عمل كل ما كان يمكن عمله ، ثم إن العمال الذين كان يستأجرهم لعام كامل كانوا هناك ..

ولا يسع أي إنسان أن يجلس طوال يومه ، ويحملق في بحيرة من الماء تغمر حقوله .. وليس بوسعه ان يأكل أكثر مما يملأ بطنه في أي وقت . وكان وانغ لنغ إذا نام لا يلبث أن يجد أن للنوم نهاية . وكان البيت إذا تجول في أرجائه وجده ساكنا إلى حد لا يتفق مع دمه المتوثب . ورأى أباه قد ازداد ضعفاً إلى درجة كبيرة الآن ، وقد أصبح شبه أعمى ، وكاد أن يكون مكتمل الصم ، فلم تكن ثمة حاجة إلى التحدث معه اللهم إلا لسؤاله عما إذا كان يشعر بالدفء والشبع ، أو إذا كان راغباً في أن يشرب الشاي ..

وكان وانغ لنغ يضيق بأن أباه لم يكن يرى مدى ثراء ابنه ، فكان يدمدم دائماً كسابق عهده إذا رأى أوراق الشاي في قدحه : « أن قدراً قليلاً من الماء يكفي . ثم إن الشاي كالفضة » . على أنه لم تكن هناك فائدة ترجى من أن يقال للشيخ شيء ، لأنه كان ينساه في الحال ، وكان يعيش مغرقاً في عالمه الخاص ، ويقضي شطراً كبيراً من الوقت يحلم بأنه عاد الى شبابه وعنفوانه ، ولم يكن يرى كثيراً مما يدور حوله الآن ..

ولم يكن لدى الشيخ ولا الإبنة الكبرى — التي لم تنطق إطلاقا ، وإنما كانت تجلس بجوار جدها ساعة بعد أخرى تلوي قطعة من القماش فتطويها وتفردها وتبتسم له — لم يكن لدى هذين الاثنين ما يقولانه لرجل مثر ، موفور النشاط..

وكان وانغ لنغ لا يملك سوى أن يصب الشاي للشيخ ، ويربت بيده على خد الفتاة فيتلقى ابتسامتها الحلوة الفارغة ، التي كانت تنحسر بسرعة مشوبة بالحزن عن وجهها ، مخلفة العينين الكالحتين الخابيتين خاليتين من أي تعبير . وكان يتحول عنها على الدوام بعد فترة سكون كانت بمثابة طابع الحزن الذي طبعته به هذه الإبنة ، ثم ينظر إلى ولديه اللذين يصفرانها سناً .. الى الطفل والطفلة

اللذين ولدتهما « أولان » معاً ، واللذين أصبحا يجريان في مرح حول عتبة الدار .

ولكن الإنسان لا يقنع بعبث الصغار ، فضلاً عن أن الصغيرين كانا لا يلبثان – بعد فترة قصيرة من الضحك والمداعبة – أن يتحولا إلى لعبهما فيبقى وانغ لنغ وحيداً ، ونفسه مفعمة بالقلق . وفي مثل هذه اللحظات كان وانغ لنغ ينظر إلى زوجته « أولان » نظرة الرجل إلى المرأة التي يعرف كل دقيقة من دقائق جسمها الى درجة الشبع ، والتي عاشت إلى جانبه وعن كثب منه بحيث لم يعد هناك ما لا يعرفه عنها ، ولا عاد هناك جديد ينتظره منها .

وخيل إلى وانغ لنغ انه ينظر إلى « أولان » للمرة الأولى في حياته ، ورأى للوهلة الأولى انها امرأة لا يمكن لإنسان أن يصفها بغير ما كانت عليه ، غبية تافهة ، تدب على الأرض في صمت ، دون ما تفكير في المظهر الذي تبدو فيه للغير . ورأى للمرة الأولى أن شعرها خشن وأسمر وغير مطري بالزيت ، وأن وجهها كان كبيراً وأفطس وخشن البشرة ، وأن قسماتها كانت كبيرة جداً في مجموعها ، وليس فيها أي نوع من الجمال أو الخفة ، وأن حاجبيها كانا متناثرين وشعرهما قليل .. وأن شفتيها كانتا واسعتين جداً ، ويداها وقدماها كبيرة ومفلطحة . وإذ رآها هكذا بهذه النظرة الغريبة ، صاح بها « إن من يراك هكذا لا بد أن يقول : إنك زوجة شخص من عامة الناس ، ولم تكوني يوماً زوجة رجل يملك أرضاً ويستأجر عمالاً للحراثة » .

وكانت المرة الأولى التي حدثها فيها عن مظهرها في نظره ، فردت عليه بنظرة بطيئة مفعمة بالألم . وكانت تجلس على مقعد خشبي ، تعمل إبرة طويلة في نعل حذاء ، فتوقفت ممسكة بإبرتها وفغرت فاها دهشة ، فكشفت عن أسنانها المسودة ، وما لبثت أن زحفت حمرة قانية على أعالي خديها الناتيء العظام ، وكأنما أدركت أخيراً أنه كان ينظر إليها نظرة الرجل للمرأة ، وغمغمت : « منذ مولد الطفلين الأخيرين معاً وأنا لست على ما يرام ، إذ أحس بالنار تسري في احشائي » .

ورأى أنها في سذاجتها ظننته يلومها لأنها لم تحمل منذ أكثر من سبع سنوات ،فأجابها بخشونة أكثر مما اراد : « إنما اقصد : أليس بوسعك أن تشتري قليلاً من الزيت لشعرك كما تفعل النساء الأخريات وتصنعي ثوباً جديداً لك من القماش الأسود ؟ .. وهذان الحذاءان اللذان ترتدينهما لا يليقان بزوجة صاحب أرض ، كما أصبحت الآن ! » .

ولكنها لم تجب بشيء وإنما نظرت إليه في ذلة وانكسار ، دون أن تدري ما تفعل ، ووضعت قدما فوق الأخرى لتخفيها تحت المقعد الذي كانت تجلس عليه . وإذ ذاك فعلى الرغم من أنه خجل في نفسه من أنه وبخ هذه المخلوقة التي تبعته في وفاء كل هذه الأعوام بطولها ، كالكلب الأمين ،وبالرغم من أنه تذكر انها — عندما كان فقيراً يعمل وحـــده في الحقول — كانت تترك فراشها ، ولو عقب الوضع مباشرة ، فتوافيه لتساعده في حقول الحصاد ، بالرغم من هـــذا وذاك لم يستطع أن يكظم الغيظ الذي اعتمل في صدره ، فمضى في قسوته غير حافل ، ولو انه كان في قرارة نفسه غير ذلك : « لقدناضلت وأصبحت غنياً ، وأفضل ان تكون زوجتي اقل شبهاً بخادم في مزرعة .. ثم إن قدميك هاتين .. » وامسك عن الكلام .. لقد بدت له إذ ذاك قبيحة الشكل في مجموعها ، ولكن كان ابشع ما فيها قدماها الكبيرتان في نعليها الواسعين المصنوعين من قماش قطني . وحملق فيها بغضب ، حتى انها ازدادت اخفاء لهما تحت مقعدهـــا . واخيراً ، قالت في همس : « ان امي لم تربطهما ، إذ ان اهلي باعوني صغيرة ، ولكني سأربط قدمي ابنتي .. سأربط قدمي البنت الصغرى ! » .

ولكنه ولى عنها ، إذ خجل من انه غضب عليها ، وغضب لأنها لم تغضب بدورها وانما جزعت فقط ، واحكم ثوبه الأسود الجـــديد حول جسمه ، وقال محنقاً : « سأذهب الى مشرب الشاي لعلي اسمع شيئاً جديداً ، فليس في بيتي غير حمقى ورجل مخرف وطفلين ! » .

واشتدت سورة غضبه وهو يسير الى المدينة لأنه تذكر فجأة انه ما كان

ليستطيع – في عمره بأكمله – شراء كل هذه الأراضي الجديدة التي اصبح يمتلكها لو لم تستولي « أولان » على تلك الحفنـة من الجواهر من دار الثري ، ولو لم تمنحه إياها عندما طلب منها ذلك . ولكنه عندمـا تذكر هذا ازداد غضبا ، وقال وكأنه يرد على ثورة نفسه : « ليكن، ولكنها لم تكن تدري ماذا فعلت، فقد استولت على الجواهر لمجرد المتعة ، كما يفعل الطفل عندمـا يستولي على حفنة من الحلوى الملونة بالأحمر والأخضر ، وكان من الممكن أن تخفيها في صدرهـا الأبد لو لم أكتشفها ! » .

وساءل نفسه عما إذا كانت لا تزال تخفي اللؤلؤتين في صدرها ، على أنـه بينما كان هذا الأمر في الماضي غريباً ، وجديراً بأن يفكر فيه أحيانا ويصوره في عقله ، فإنه اصبح يشعر باستهجان عندمـا يفكر فيه ، لأن ثدييها اصبحتا مترهلتين ومتدليتين من كثرة الأطفال اللذين ارضعتهم ، ولم يعد فيهما جمـال ، فاللؤلؤتان بينهما سخف ومضيعة .

غير ان هذا كله ما كان ليعد شيئاً لو أن وانغ لنغ ظل فقيراً ، او لو لم تكن المياه منتشرة في حقوله .

ولم يعد كل شيء يبدو له طيباً كما كان من قبل . فمشرب الشاي الذي اعتاد ان يدخله متهيباً لشعوره بأنه ليس سوى ريفي من عامة الشعب ، أصبح في نظره مشربا وضيعا ، زريا ولم يكن أحـــد ليعرفه هناك في الماضي ، وكان الصبية الذين يقومون على الخدمة يعاملونه بوقاحة ، أما الآن فإن القوم يلكز بعضهم بعضاً حين يدخـــل المشرب ، وأصبح بوسعه أن يسمع من يهمس لصاحبه : « ها هو ذا وانغ ، من قرية وانغ ، وهو الذي اشترى الأرض من آل هوانـغ . في ذلك الشتاء الذي مـــات فيه السيد الكبير وقت المجاعة الكبرى .. لقد أصبح غنياً الان » .

وكان وانغ لنغ . إذ يسمع هـذا يجلس متظاهراً بعدم الاكتراث .ولكن

قلبه كان يفعم بالزهو والخيلاء مما وصل إليه . أما في ذلك اليوم الذي وبخ فيه زوجته فإنه لم يشعر بأي اغتباط حتى بذلك الاحترام الذي قوبل به عند دخوله المشرب ، وإنما جلس يشرب الشاي مكتئباً ، وهو يشعر بأنه لم يكن في حياته شيء سار بالدرجة التي كان يتصورها من قبل . ثم تساءل فجأة : « لماذا أشرب الشاي في هذا المشرب الذي يملكه أحول تقل مكاسبه عما يكسب العمال في ارضي ، انا الذي أملك أرضاً ولي ولدان مثقفان ؟ » .

وكان في البلدة مشرب شاي كبير لم يفتتح إلا حديثاً ، وكان صاحبه من أهل الجنوب ، الذين يحذقون هذا النوع من العمل ، وقد سبق لوانغ لنغ أن مر بالمشرب وجزع إذ فكر في الأموال الوفيرة التي تنفق فيه على المقامرة واللعب والنساء الفاسدات ، ولكنه اتجه اليوم صوب هذا المحل مدفوعاً بضجره من الكسل ، وراغباً في النجاة من تقريع ضميره كلما تذكر أنه ظلم زوجته .. كان مسوقا تحت ضغط قلقه إلى ان يرى أو يسمع شيئاً جديداً . وهكذا اجتاز مدخل المشرب الجديد إلى قاعة فسيحة متألقة ، مملوءة بالموائد ومفتوحة على الشارع ، ودخل متجارئاً ، ومحاولا أن يكون أكثر جرأة لأنه كان في قرارة نفسه متهيباً ، وقد تذكر انه لم يزد إلا منذ سنوات قليلة فقط عن مجرد رجل فقير لم يدخر في وقت من الأوقات اكثر من قطعة او قطعتين من الفضة ، رجل وصل به البؤس إلى حد جر عربة « ريكشا » في شوارع إحدى مدن الجنوب .

ولم يتكلم للوهلة الأولى في ذلك المشرب العظيم ، وإنما ابتاع شايه بهدوء ، وشربه ، وأخذ يتطلع حوله في دهشة وعجب .. كان هذا المشرب قاعة كبيرة ، وكان السقف موشى بماء الذهب ، وقد علقت على الجدران رقائق من الحرير الأبيض رسمت عليها صور نساء ، وأخذ وانغ لنغ يسترق النظر إلى تلك النسوة متأملا ، فبدا له أنهن من نساء الأحلام إذ لم يسبق له ان رأى مثلهن على

الأرض . واكتفى في يومه الأول بالنظر إلى صورهن ، وشرب الشاي بسرعة ثم انصرف . ولكنه ظل يذهب إلى المشرب يوما بعد يوم في الوقت الذي ظلت فيه المياه تغرق أرضه . وكان يشتري الشاي ، ويجلس وحيداً يحتسيه وهو يحملق في صور النساء الحسان ، وأخذ يطيل جلسته يوما بعد يوم ، إذ لم يكن لديه ما يفعله في أرضه ولا في بيته ، ولعله كان سيستمر على هذا المنوال أياما كثيرة متتالية ، إذ كان ، رغم فضته المخبأة في عشرين مكاناً ، لا يزال يبدو ريفياً ، وكان الوحيد – في كل هذا المشرب الفاخر – الذي يرتدي ثوباً من القطن بدلا من الحرير ، والذي له ضفيرة من الشعر تتدلى على ظهره ، لا يحتفظ بمثلها رجل من أهل المدن . ولكن حدث ذات مساء وهو جالس يشرب الشاي ويحملق من مائدة قريبة في مؤخرة الصالة – ان هبط شخص من سلم ضيق ملاصق للحائط الأقصى ويؤدي إلى الطابق الأعلى .

وكان هذا المشرب هو المبنى الوحيد في تلك البلدة بأسرها ، المؤلف من أكثر من طابق واحد ، فيما عدا « الباجودا » الغربي وهو معبد صيني كان يتألف من خمسة طوابق خارج البوابة الغربية ، على ان «الباجودا » كان ضيقا، كلما ارتفع بناؤه ، في حين ان الطابق الثاني للمشرب كان فسيحاً كالطابق الأسفل . وفي الليل كان صوت النسوة يرتفع بالغناء ، وتنبعث ضحكات من نوافذ الطابق الأعلى مختلطة بأنغام حلوة صادرة من أعواد تداعبها أيدي الفتيات . وكان المرء يستطيع ان يسمع صوت الموسيقى تسبح على أمواج الأثير خارجة إلى الشوارع ، لا سيا بعد منتصف الليل ، وإن كانت قرقعه النرد الحادة ، وطقطقة قطع « الدومينو » ، وصخب الرجال وهم يشربون الشاي ، تطغي على كل هذا في البقعة التي جلس فيها وانغ لنغ .

ولذلك لم يسمع وانغ لنغ في هذه الليلة وقع قدمي امرأة تزقزق على درجات السلم وهي تهبط . ولهذا أجفل بعنف حين أحس بمن يمس كتفه ، فما كان يتوقع ان يعرفه احد في هذا المكان . وإذ تطلع ، وجد أمامه وجهاً نسائياً

نحيلاً ، جميلا ، وجه « كوكو » .. المرأة التي ألقى في يديها الجواهر في ذلك اليوم الذي اشترى فيه الارض ، وصاحبة اليد التي أمسكت بعزم وثبات يد السيد الكبير المرتعشه وساعدته على ان يطبع خاتمه على عقد بيع الأرض .. وضحكت عندما رأته ، وكانت ضحكتها أشبه بهمسة حادة ، وقالت له . « آه .. ها هو ذا وانغ المزارع ! » . وتلكأت بخبث وهي تنطق بكلمة « المزارع » ومضت تقول : « من كان يتوقع أن يراك هنا ؟ ! ».

وبدا لوانغ لنغ إذ ذاك ان عليه يثبت بأي ثمن لهذه المرأة انه اكثر من مجرد رجل ريفي ، فضحك وقال بصوت عال : « أليست نقودي صالحة للإنفاق كنقود أي شخص آخر ؟.. وما انا بمفتقر الى المال في هذه الايام ، فقد كونت ثروة طيبة ! » .

وأمسكت « كوكو » عن الكلام عند هذا ، وضاقت عيناها وبرقتا كعيني أفعى ، ثم انساب صوتها ناعماً كالزيت المنساب من إناء ، قائلة : ومن ذا الذي لم يسمع بهذا ؟ وهل ينفق الإنسان ما لديه من مال فائض عن مستلزمات عيشه إلا في مكان كهذا ، يستمتع فيه الاثرياء ، ويجتمع في أرجائه نخبة السادة في المناسبات لينعموا بالمتعة والملذات . ما من خمر في جودة خمرنا .. هل تذوقتها يا وانغ لنغ ؟ » . فاجاب وقد شعر بشيء من الخجل : « لم أشرب حتى الآن غير الشاي ، ولم أقرب الخمر ولا النرد » . فصاحت بصوت رفيع « شاي !؟. ولكن لدينا نبيذ عظام النمر ونبيذ الفجر ونبيذ الأرز المعطر ، فكيف تشرب شايا ؟ » .

وإذ طأطأ وانغ لنغ رأسه ، قالت بصوت ناعم كله إغراء : « أظنك لم تتطلع إلى أي شيء آخر ، أليس كذلك ؟.. ألم تر الايدي الصغيرة الجميلة والخدود ذات الرائحة الزكية ؟ » .

فخفض وانغ لنغ رأسه اكثر من ذي قبل ، وتدافع الدم إلى وجهه ، وشعر كأن كل شخص على مقربة منه ينظر إليه بسخرية ويستمع الى صوت المرأة .

ولكنه عندما تشجع ونظر حوله – من تحت أهدابه – لم يجد أحداً مهتما بهما، وسمع صوت قرقعة النرد من جديد فقال في ارتباك : « لا ، لا .. لم أر شيئاً غير الشاي .. » فقهقهت المرأة من جديد واشارت إلى اللوحات الحريرية المعلقة على الجدران وقالت : « ها هن أولاء هذه صورهن، فاختر من تود رؤيتها، وضع الفضة في يدي ، فأحضرها لك ! »

فقال وانغ لنغ في عجب « هؤلاء !. كنت اعتقد انها صور نساء الاحلام ، إلهات يعشن في جبل كوين لوين ، كاللائي يتحدث عنهن الرواة في القصص »

فردت كوكو في سخرية مرحة : « إنهن فعلا من نساء الاحلام ، ولكنها احلام يحولها قليل من الفضة إلى لحم ! » ثم انصرفت الى حال سبيلها وهي تومىء للخدم الواقفين حولها وتغمز مشيرة الى وانغ لنغ ، وكأنها تقول : « ها هوذا ريفي ساذج ! » . ولكن وانغ لنغ ظل جالساً يحملق في الصور باهتمام جديد . إذن ففي أعلى هذا السلم الضيق ، وفي الغرف التي تقوم فوقه ، كانت تلك النسوة بلحمهن ودمهن . وكان الرجال يصعدون إليهن . رجال آخرون غيره – طبعاً – ولكنهم رجال على أية حال !.. ولو لم يكن الرجل الذي كانه .. رجل طيب، مجتهد ، رجل له زوجة وأبناء ، لفكر في صورة يختارها ، وتظاهر كما يتظاهر الطفل بأنه مقدم على شيء معين .. فليتظاهر إذن ... ولكن أي هذه الصور سيتظاهر باختيارها ؟. وأخذ يتفرس بدقة في كل وجه مرسوم ويطيل التفرس. وكأن كلا منها كان وجهاً حقيقياً .. وكانت كلها قبل ذلك تبدو له كأنها متساوية في الجمال .. هذا قبل الآن ، عندما لم تكن هناك مسألة الاختيار . أما فمن الجلى أن بعض الوجوه كان أجمل من البعض الاخر .

ووضع ثمن ما شرب على المائدة وخرج الى الظلام الذي كان الآن قد بدأ يخيم على الكون واخذ طريقه الى بيته .

الفصل التاسع عشر

لو أن المياه انحسرت عن أرض وانغ لنغ — في ذلك الحين — تاركة إياها مبللة يتصاعد منها البخار تحت أشعة الشمس ، بحيث لا تلبث في حرارة الصيف أن تحتاج بعد بضعة أيام إلى الحرث والتقليب والبذر ، لكان من المحتمل ألا يعود وانغ لنغ أبداً إلى مشرب الشاي المظلم . أو لو أن طفلاً من أطفاله مرض أو أن أباه الشيخ بلغ نهاية أيامه فجأة ، لكان وانغ لنغ قد شغل بالأمر الجديد ، ولنسي الوجه الدقيق التقاطيع المرسوم على قطعة الحرير ، وجسم المرأة الممشوق كعود الغاب .

ولكن المياه ظلت كما هي ، لا تتحرك إلا بريح الصيف الخفيفة التي تهب عند الغروب . وظل الشيخ في غفواته والولدان يذهبان إلى المدرسة في الفجر ويغيبان عن البيت حتى المساء . وبات وانغ لنغ في بيته قلقاً يتحاشى عيني « أولان » التي كانت تنظر إليه في ذلة وتعاسة ، وهو يتنقل من مكان إلى آخر ويلقي بنفسه على مقعد ثم ينهض عنه دون أن يشرب الشاي الذي تكون قد صبته له ، ودون أن يدخن الغليون الذي يكون قد أشعله .

وفي نهاية يوم طويل — أطول من أي يوم آخر — في الشهر السابع ، عندما كان ضوء الشفق يتهادى في لطف متهامساً مع نسيم البحيرة ، وقف عند باب بيته ، ثم تحول بغتة — دون أن ينبس بكلمة — ودخل غرفته فارتدى معطفه الجديد ، المصنوع من قماش أسود لامع يكاد يشبه الحرير في لمعانه — والذي كانت « أولان » قد صنعته له لأيام الأعياد . ودون أن ينبس بكلمة لأحد ،

مضى في الدروب الضيقة على حافـــة المياه وخلال الحقول ، حتى وصل إلى الظلام الذي يملأ قبو بوابة المدينة ، ثم اجتازها ومضى في الشوارع إلى أن بلغ مشرب الشاي الجديد . وكان يتوهـــج بالأنوار .. بمصابيح زيت تشترى من المدن الأجنبيـــة على الساحل . وكان الرواد يجلسون تحت الأضواء يشربون ويتحدثون ، وقد فتحوا أثوابهم لـبرودة المساء المنعشة ، والمراوح تتحرك في كل مكان رائحة غادية ، والضحكات الخالية تنساب إلى الشارع كأنها الموسيقى.. كل المباهج التي لم يظفر بها وانغ لنغ قط من عمله في الأرض كانت تتجمع هنا ، بين جدران هذا المنزل ، حيث كان الرجـــال يلتقون ليلعبوا ، لا ليعملوا على الإطلاق .

وتردد وانغ لنغ عند مدخل الشرب ، ووقف تحت الضوء البراق المنساب من الأبواب المفتوحة . ولعله كان خليقاً بأن يقف هناك ثم ينصرف ، لأنه كان في قرارة نفسه خائفاً متهيباً ، وإن راح دمه يتدفق في شرايينه حتى كادت تنفجر به .. لولا أن برزت من الظلام عند حافة الضوء ، امرأة كانت تستند في تراخ إلى الباب .. وكانت هي كوكو . وتقدمت عندما رأت رجلاً ، إذ كانت مهمتها تحصيل الأجور لنساء الدار ، ولكنها حين رأت من كان هـــذا الرجل ، هزت كتفيها وقالت : « آه .. إنه ليس سوى الفلاح ! »

ووخزت وانغ رنة الإهمال التي بدت في صوتها ، فإذا غيظه الفجائي يبعث فيه شجاعة ما كانت لتواتيه لولا ذلك ، ومن ثم قال : « ليكن .. أليس لي أن أدخل البيت ، وهلا يجوز لي ان أفعل ما يفعله الآخرون ؟ » . فهزت كتفيها مرة أخرى وضحكت ، ثم قالت : « إذا كان لديك من الفضة ما لدى الآخرين جاز لك أن تفعل ما يفعلون » — وأراد أن يريها أنه سيد بلغ من الغنى الحد الذي يكفل له أن يفعل ما يحب فأدخل يده في حزامـــه وأخرجها مملوءة بالفضة ، وقال لها « ألا يكفي هذا ؟ . أم ترينه لا يكفي ؟» . فحملقت في الفضة ثم قالت بغير توان : تعال وقل لي أيهن تريد ! » . فدمدم وانغ لنغ وهو

لا يعرف ما يقوله : « لا أدري ما إذا كنت أريد شيئاً » . ولكن رغبتــه لم تلبث ان غلبته فقال همساً : « أريد هذه الصغيرة ذات الذقن المدببة والوجــه الصغير الذي يشبه زهرة السفرجل بلونيها الأبيض والوردي .. والتي تمسك في يدها برعم زهرة من اللوتس » .

فهزت المرأة رأسها موافقة ، وأشارت له ان يتبعها بين الموائد التي يزخر بها المكان ، فتبعها عن بعد . وخيل له للوهلة الأولى ان كل إنسان في المشرب كان يراقبه ، ولكنه عندما استجمع شجاعته ونظر حوله لم ير أحداً يحفل بـه على الإطلاق ، فيما عدا شخصاً أو اثنين ، صاحا : « هل تأخر الوقت إذن ، بحيث آن للرجال ان يصعدوا إلى النساء ؟ » . وقال آخر : « هاهــو ذا فتى شهواني يريد ان يبدأ مبكراً ! » ، ولكنهما في ذلك الوقت كانا يصعدان السلم الضيق ، ووانغ لنغ يرقى بصعوبة ، إذ كانت تلك أول مرة يصعد فيها درجات سلم في أي منزل على أنه لما وصل إلى آخر السلم وجد ان المكان لا يختلف عن أي بيت قائم على الأرض ،سوى أنه بدا مرتفعاً جداً عندما مر بنافذة ونظر خلالها إلى السماء . ومضت المرأة تقوده خلال دهليز مظلم .. وكانت تصيح وهــي سائرة : « هاهو ذا الرجل الأول في هذه الليلة ! » . وعلى طول الدهليز ،كانت الأبواب تفتح فجأة .. وهنا وهناك أطلت فتيات برؤسهن في رقع من الضوء ، وكأنهن أزهار تفتحت من بين براعمها تحت ضوء الشمس ، ولكن كوكو كانت تصيح في قسوة : « لا ، لست أنت .. ولا أنت ... لم يطلب أحــد واحــدة منكن ، وإنما جاء هذا العميل للقزمة الصغيرةالوردية الوجه القادمة من سوشو.. جاء في طلب لوتس ! » .

وجلجلت في البهو ضحكة عالية ، غير واضحة تماماً ، ولكنها ساخرة .. ثم سمع صوت فتاة وردية اللون كالرمانة تقول بصوت ضخم : « فلتهنأ لوتس بهذا الرجل . فرائحة الحقول والثوم تفوح منه ! » . وسمع وانغ لنغ هـــذا ،

ولكنه لم يستطع رداً – وإن طعنته الكلمات وكأنها خنجر – فقد خشى أن يكون مظهره ينم فعلاً عن أنه فلاح ، ولكنه سار مرفوع القامة عندما تذكر الفضة التي كانت في حزامه . وأخيراً قرعت المرأة باباً مغلقاً براحة كفها في غلظة ، ودخلت دون انتظار .. وعلى فراش مغطى بلحاف أحمر موشى بالأزهار ، كانت فتاة نحيلة تجلس .

لو ان إنساناً أبلغ وانغ لنغ ان هناك أيدياً صغيرة مثل يدي هذه الفتاة لما صدقه ..

وجلس على الفراش بجوارها جامداً ، يحملق فيها ، فرآهـا تشبه الصورة المرسومة لها وكأنه رأى الصورة .

وراح ينظر اليها كما كان ينظر الى الصورة ، فرأى ذلك الجسم النحيل الممشوق كعود الغاب ، في سترة قصيرة محكمة عليه .. وشاهد ذلك الوجه الصغير ذا الذقن المدببة في حسنه وجماله اللذين رآهما في الصورة، يعلو ياقة السترة المكسوة بالفرو الأبيض .. ورأى العينين المستديرتين وكأنهما مشمشتان ، حتى لقد فهم إذ ذاك ما يعنيه الرواة عندما يتغنون بالعيون المشمشية التي امتازت بها حسان الأزمان الغابرة .. وخيل اليه أنها ليست امرأة من لحم ودم ، بل هي صورة امرأة !

وما لبثت ان رفعت يدها الصغيرة البضة ووضعتها على كتفه ، ثم مرت بها ببطء شديد على ذراعه .. ومع أنه لم يشعر يوماً بمثل هذه اللمسة الخفيفة الناعمة، ومع أنه لم يكن ليعرف انها حدثت لو لم يرها بعينيه ، فقد راح ينظر الى ذراعه . ورأى اليد الصغيرة تتحرك عليها ، فكأنما كانت تشعل ناراً راحت تتغلغل تحت كمه وتشب في لحم ذراعه، وظل يرقب اليد حتى بلغت نهاية كمه، ثم سقطت في لحظة تردد تدربت عليها ، واستقرت على معصمه العاري ، ثم الى تجويف كفه الأسمر اليابس ، فبدأ يرتجف دون ان يدري ماذا يفعل بهذه اليد .

وعندئذ سمع ضحكة خفيفة ، مريعة ، ترن كجرس فضي تهزه الريح على معبد . وصوتاً رقيقاً كالضحكة يقول له : « أوه ، ما أجهلك ايها الفتى الكبير .. هل تقضي الليل كله هنا وأنت تحملق في ؟ »

وعند ذلك أخذ يدها بين يديه كلتيهما ، ولكن في حذر ، لأنها كانت كورقة شجرة يابسة هشة دافئة وجافة . وقال لها بتوسل وهو لا يعرف تماماً ماذا كان يقول : « إنني لا أعرف شيئاً فعلميني ! » .

وقد علمته بالفعل !

وهكذا أصيب وانغ لنغ بالمرض الذي يفوق تحمل أي رجل .. كان من قبل قد قاسى من مشقة العمل تحت الشمس الحارقة ، وتحمل الرياح الثلجية القارسة القادمة من الصحراء ، وعانى الجوع عندما اجدبت الحقول .. وتعذب بقنوط الجهد بلا امل في شوارع المدينة الجنوبية .. ولكنه لم يعان من اي من هذه الأشياء ما أصبح يعانيه تحت يد هذه الفتاة الصغيرة الجسم !

وصار يذهب كل يوم الى مشرب الشاي ، ويترقب كل مساء الساعة التي يتسنى للفتاة ان تستقبله فيها ، ويذهب كل بية إليها . كان كل ليلة يدخل إليها ، وكان في كل ليلة نفس الريفي الذي لا يفقه شيئاً ، فيقف على الباب مرتجفاً ، ويجلس بجوارها جامداً ينتظر إشارتها الضاحكة . وإذ ذاك تنتهبه الحمى ، ويستولي عليه جوع ممض ، ويتتبع في ذلة ما كانت تكشف له عنه شيئاً فشيئاً ، الى أن تحين اللحظة الحاسمة ، وتصبح راغبة في أن يستحوذ عليها استحواذاً تاماً ، كالزهرة التي طابت وحان قطافها .

ولكنه مع هذا لم يستطع أبداً ان يستحوذ عليها تماماً ، مما جعله دائم الحمى والظمأ ، ولو منحته كل ما كان يبتغيه منها . كانت « أولان » — عندما أتت إلى بيته — قد جاءت معها بالصحة الى جسده فكان يشتهيها كما يشتهي الحيوان

أليفته فيأخذها ويشبـع نفسه منها ، ثم ينساها ويؤدي عمله راضياً ، بيد أنه لم يكن في حبه لهذه الفتاة مثل هذه القناعة ، ولم يكن فيه صحة له ، ففي الليل عندما كانت تكتفي منه فتدفعه إلى الباب في تأفف بيديها الصغيرتين – اللتين تكتسبان القوة فجأة – على كتفيه ، ونقوده الفضية مندسة في صدرها ، كان ينصرف جائعاً كما كان حين أقبل وكان يخرج وكأنه رجـــل كاد يموت ظمأ فشرب من ماء البحر المالح ، الذي مع أنه ماء حقاً ، إلا أنه يجفف دمه، ويرده عطشان ، بل أشد عطشاً ، حتى يموت في النهاية، وقد جن من شربه ذاته..كان يدخل إليها ويظفر منها بكل ما يريد ، المرة بعد الأخرى ، ثم يخرج وهو غير راضي النفس .

وهكذا أحب وانغ لنغ هذه الفتاة طيلة ذلك الصيف الحار، ولم يكن يعرف عنها شيئاً . لم يكن يعرف من أين جاءت ولا من هي .

وكانت الأيام تبدو له غير ذات نهاية .. ولم يعد ينام في فراشه متعللا بحرارة الغرفة فكان يبسط حصيراً تحت أشجار الغاب ، وينام نوماً متقطعاً .. وطالما كان يستلقي مستيقظاً ليحملق في الظلال المدببة لأوراق شجر الغاب ، وصدره مفعم بألم حلو لم يكن يفهم كنهه .

وكان إذا تحدث إليه أحد – كزوجته أو أطفاله – أو جاءه تشينغ ليقول: « لن تلبث المياه أن تنحسر قريباً ، فماذا لدينا من البذور لنعده ؟ » صاح قائلاً: « لماذا تضايقونني ؟ » .

وكان يشعر على الدوام بأن قلبه يكاد ينفجر ، لأنه لم يكن يملك أن يشبع من الفتاة .

وهكذا مرت الأيام ، وهو لا يعيش إلا ليقضي النهـــار حتى يأتي المساء ، عازفاً عن النظر إلى الوجوه المكفهرة .. وجه « أولان » ووجوه الأولاد الذين كانوا يتوقفون فجأة عن لعبهم عند اقترابه .. بل لم يعد ينظر الى والده الشيخ،

الذي كان يتفرس فيه ويسأله : « ما هذا المرض الذي ألم بك فأحالك إلى شخص سيىء الطبع ، وجعل جلدك أصفر كالطين ؟ » .

ومع مرور كل نهار منساباً إلى الليل ، كانت الفتاة لوتس تفعل به ما تشاء فعندما سخرت من ضفيرة شعره – مع أنه كان يقضي شطراً من كل يوم في تمشيطها وعقصها – وقالت له : « ليس لرجال الجنوب مثل هذه الضفائر الشبيهة بذيول القردة ! » ، انصرف دون أن ينطق بكلمة وبادر الى قص الضفيرة ، مع أن أحداً لم يستطع في الماضي أن يحمله – سواء بالسخرية أو بالازدراء – على ذلك .

وعندما رأت أولان ما فعل بنفسه ، انفجرت تقول في جزع : « لقد قطعت حياتك ! » .. فصرخ فيها : « وهل سأظل أبدو إلى الأبـــد بمظهر الأحمق المتخلف عن العصر ؟ . إن جميع شبان المدينة يقصون شعورهم ! » ، ولكنه مع هذا كان – في قرارة نفسه – خائفاً مما فعل . ومع هذا فقد كان مستعداً لأن يقطع حياته كذلك لو أن الفتاة لوتس أمرته بأن يفعل ، أو أبدت رغبة في هذا ، لأنها أوتيت كل جمال خطر له يوماً أن يشتهيه في امرأة . وجسمه الأسمر الطيب الذي لم يكن يغسله إلا نادراً ، معتبراً العرق النظيف الذي يتفصد من كدحه غسيلاً كافياً في الأيام العادية .. جسمه هذا بدأ يفحصه كما لو كان جسم رجل آخر ، وراح يستحم كل يوم ؛ فتملك زوجته الاضطراب وقالت له : « ستموت من كل هذا الاستحمام ! » .

واشترى من الدكان صابوناً زكي الرائحة . كان قطعـــة حمراء من مادة معطرة مستوردة من أقطار أجنبية ، فراح يحك بها جسمه . وما عاد يقبل أن يأكل عرقا من الثوم مهما يكن الثمن ، مع أنه كان يحبه من قبل ، وذلك حتى لا يكون منفر الرائحة أمامها .

وعجز كل فرد في البيت عن تفسير هذه الأشياء . واشترى أيضا أقمشة

جديدة ، ومع أن « أولان » اعتادت أن تحيك له ثيابه ، وأن تجعلها فضفاضة وطويلة ليكون مقاسها جيداً ، وتحيكها عدت مرات لتكون متينـه ، إلا أنه اصبح يبرم بتفصيلها وحياكتها ، وأخذ الأقمشة إلى حائـك في المدينة فصنع له أثوابا كالتي يرتديها أهل المدينة ، من الحرير الرمادي اللون . وكان الثوب محكما على جسمه لا فائض فيه ، وفوقه عباءة من الساتان الأسود ليس لها أكام .

واشترى لأول مرة في حياته حذاءين لم تصنعهما امرأة ، وكانا من المخمـل الأسود كاللذين كان السيد الكبير ينتعلهما، وهما يتهدلان على الأرض عند كعبيه.

على أنه خجل من مباغتة أولان والأطفال بارتداء هذه الملابس الجميـلة ، فاحتفظ بها مطوية في لفائف من الورق الزيتي الأسمر ، وتركها في مشرب الشاي مع كاتب من كتبة المشرب كان قد تعرف بـه ، ودفع له بعض المال ليسمح له بالدخول سراً إلى الغرفة الداخلية ليرتدي هذه الملابس قبل أن يصعد درجات السلم . واشترى أيضاً خاتماً من الفضة مطليا بالذهب ووضعه في أصبعه . ولما كان الشعر قد نما في المكان الحليق فوق جبهته ، فإنه نعمه بزيت معطر مستورد مـن الخارج « ومعبأ في زجاجة صغيرة دفع ثمنا لها قطعة كاملة من الفضة .

وكانت أولان تنظر إليه في دهشة ، دون أن تعرف تفسيراً لكل هـــذا ، ولكنها في أحد الأيام قالت له في حزن ، بعد أن ظلت تحملق فيه فترة طويـلة وهما يأكلان أرزا عند الظهيرة : « تبدو فيك أشياء تجعلني أحسبك واحداً مع السادة الذين كانوا في البيت الكبير ! » .

فقهقه وانغ لنغ ، وقال : « أتودين أن أظهر دائماً بمظهر الفلاح ، مع أن لدينا مــالاً وفيراً يزيد على حاجتنا ؟ » ، ولكنه ابتهج كثيراً في قرارة نفسه ، وظل طوال ذلك اليوم يعاملها بلطف لم يظهره لها منذ أيام كثيرة .

وأخذ المال – تلك النقود الفضية الطيبة – يتدفق من بين يديه ، فلم يقتصر الأمر على الثمن الذي كان عليه أن يدفعه لقاء الساعات التي كان يقضيها مـــع الفتاة ، بل كان عليه أن يلبي رغباتهـــا التي تطلبها بعذوبة . وكانت تتنهد ،

وكان قلبها يكاد ينفطر لما تشتهي ، ثم تغمغم : « يا لهفي على نفسي ... يا لهفي على نفسي ! » .

وعندما يهمس في أذنها ، وقد تعلم أخيراً التحدث في حضورها : « ماذا تريدين الآن يا منية القلب ؟ » ، كانت تجيب قائلة : « لست مسرورة منك اليوم ، لأن « الجوهرة السوداء » — هذه الفتاة التي تشغل الغرفة المقابلة في القاعة — لها حبيب منحها دبوسا من الذهب لتثبت به شعرها، أما أنا فليس لدي غير ذلك الدبوس الفضي القديم الذي احتفظ به منذ الأزل » .

ولم يكن يسعه أمام ذلك إلا أن يهمس لها ، وهو يزيح خصلة الشعر الأسود الناعم ليتمتع بالنظر إلى اذنيها الصغيرتين : « إذن فسأشتري دبوساً من الذهب لشعر جوهرتي ! » .

وكانت قد علمته كل أسماء التدليل هذه كما يلقن الإنسان طفلا كلمات جديدة.. علمته أن يناديها بهـا ، ولكنه لم يستطع أن يرددها بالكثرة التي ترضي قلبه — حتى وهو ينطق بها متلعثما — فما كان حديثه طوال حياته يتعدى شئون الزراعة والمحصولات والشمس والأمطار .

وهكذا خرجت الفضة من مخبئها في الجدار ، ومن الكيس . أما « أولان » التي كانت تقول له في الماضي ببساطة تامة : « لماذا تأخذ المال من الجدار ؟ » فلم تعد تقول شيئاً ، بـل راحت تراقبه في تعاسة بالغة . وقد أيقنت أنه يعيش حياة أخرى بعيداً عنها وعن الأرض ، وإن لم تعرف أي نوع هذه الحياة كانت، غير أنها كانت قد أصبحت تخافه منذ ذلك اليوم الذي تبين فيه بوضوح أنهـا لم تؤت شيئاً من جمال الشعر أو الشخصية ، ورأى أن قدميهـا كانتا كبيرتين . وكانت تخشى أن تسأله عن أي شيء ، اتقاء غضبه الذي أصبح متحفزاً لهـا في هذه الأيام .

وعاد وانغ لنغ ذات يوم إلى بيته عبر الحقول ، واقترب منها وهي تغسل ملابسه في البركة . ووقف برهة صامتاً ،ثم قال لها بخشونة.. وما كانت خشونته

إلا لأنه كان خجلا ويأبى الاعتراف بخجله في قرارة نفسه : « أين تلكما اللؤلؤتان ؟» فأجابت بتردد وهي ترفع نظرها عن البركة وعن الملابس التي كانت قد نشرتها على حجر أملس مسطح، وراحت تضربها بعصا خشبية : «اللؤلؤتان؟.. إنهما عندي ! » فتمتم وهو لا ينظر إليها ، وإنما إلى يديهـا المفضنتين المبتلتين : « لا جدوى من الاحتفاظ بلآلىء لغير غرض » . فأجابت ببطء : « فكرت في أنني قد أضعهما يوما في قرطين ! » . وإذ خشيت من سخريته ، عادت تقول : « يمكن أن أحفظهما للبنت الصغرى عندما تتزوج » . فأجابها بصوت مرتفع ، مغلظاً قلبه : « وما الداعي لأن تتحـلى هذه البنت باللآلىء وجسمها أسود بلون الأرض ؟.. إنما اللآلىء لذوات البشرة البيضاء ! » .

وبعد برهة من السكوت ، صاح فجأة : أعطيني اللؤلؤتين .. فإني بحـاجة اليهما ! » . وإذ ذاك رفعت يدها المتفضنة المبتلة في بطء ، ودستها في صدرها ، وأخرجت لفافة صغيرة ناولته إياها، وأخذت تراقبه وهو يفضها ويضع اللؤلؤتين في يده .. وتألقتا ببريق خاطف عندما قابلتا أشعة الشمس ، فضحك .

ولكن « أولان » عادت ثانية إلى ضرب ثيابه ، وعندما تحدرت الدموع من مقلتيها في بطء وتثاقل ، لم يرفع يدها لتمسحها .. وإنما واصلت ضرب الملابس المنبسطة على الحجر بعصاها الخشبية في انتظام .

الفصل العشرون

ولعل الأمور كانت ستسير على هذا المنوال إلى أن تنفد الفضة كلها ، لولا أن ذلك الرجل – عم « وانغ لنغ » – عاد فجأة دون أن يوضح اين كان وماذا فعل . وإنما وقف بالباب وكأنه هبط من سحابة ، وثيابه المهلهلة غير مزررة ، ولا يشدها الحزام تماما حوله ، أما وجهه فكان على عهده السابق ، وإن تغضن ويبس قليلا من أثر الشمس والريح . وابتسم لهم جميعا ابتسامة عريضة وهم جالسون حول المائدة يتناولون طعام الصباح المبكر . وظل وانغ لنغ جالسا وقد فغر فاه دهشة ، لأنه كان قد نسي أن عمه على قيد الحياة ، فكأنما كان عمه ميتاً عاد ليراه . أما ابوه الشيخ ، فراح يحملق وينعم النظر ، ولم يعرف الرجل إلا عندما صاح : « ها هم أولاد أخي الأكبر وابنه واولاده وزوجة ابن أخي ! » وعندئذ نهض وانغ لنغ ، وهو مستاء في نفسه ، وإن اصطنع الترحيب على وجهه وفي نبرات صوته ، وهو يقول : « مرحبا بك يا عمي .. هل أكلت ؟ » فأجاب عمه في بساطة : « كلا ، ولكني سآكل معكم ! » .

فذهل وانغ لنغ ، ولم يدر ماذا يفعل إلا أن يقود عمه إلى فراش والده ، فرفع الضيف الأغطية وأخذ يتحسس القماش الجيد والقطن الجديد النظيف ، ثم نظر إلى السرير الخشبي والمائدة الجيدة والمقعد الخشبي الكبير – التي اشتراها وانغ لنغ لغرفة والده – وقال : « لقد سمعت أنك غني ، ولكني لم أكن أعرف انك على هذا القدر من الثراء ! » . ثم ألقى بنفسه على الفراش ، وسحب الغطاء إلى كتفيه ، مع أن الجو كان دافئاً من حرارة الصيف ، وأخذ يستعمل كل شيء وكأنه ملك له . ثم راح في سبات عميق دون أن يقول شيئاً آخر .

وعاد وانغ لنغ إلى الغرفة الوسطى وهو في أشد حالات الاستياء، لأنه أيقن تماماً أنه لن يتسنى إبعاد عمه مرة اخرى ، بعد أن عرف أن لدى وانغ لنغ من الطعام ما يكفي لغذائه . وراح وانغ لنغ يفكر في هذا ، كما فكر في زوجة عمه بخوف شديد ، إذ رأى انهما لن يلبثا أن يأتيا إلى داره ولن يستطيع أحد أن يصدهما .

وحدث ما كان يخشاه . فإن عمه تمطع أخيراً في الفراش بعد أن فات الظهر ، ثم تثاءب ثلاث مرات بصوت عال ، وخرج من الغرفة وهو يلف الثياب حول جسمه ، وقال لوانغ لنغ : « والآن ، سآتي بزوجتي وابني .. أننا ثلاثة افواه ، ولن ينقص من بيتك الكبير ما نأكل أو ما نلبس من ثياب بسيطة ».!

ولم يملك وانغ لنغ عملاً إلا الرد بنظرات عابسة ، لأنه كان يشعر بأنه من العار على رجل لديه من الثراء الكفاية وما يفيض ، أن يطرد عمه وابن عمه من بيته .

وعندما ألف الجميع ما حدث ، وعندما قالت « أولان » له : « دع عنك الغضب ، فهو أمر يجب احتماله » . ورأى وانغ لنغ أن عمه وزوجته وابنها سيلتزمون جانب الأدب في سبيل الظفر بما يأكلهم ومأواهم .. إذ ذاك تحولت أفكاره بعنف أكثر من ذي قبل نحو فتاته لوتس ، فتمتم : « عندما يمتلىء بيت الإنسان بالكلاب الضارية ، ينبغي له أن يبحث عن الهدوء في مكان آخر » .

وعاودته الحمى القديمة ، وتأججت نيران عذابه من جديد ، وظل بعيداً عن الارتواء من حبه . وإذا الشيء الذي لم تره « أولان » بسذاجتها ، ولا الشيخ بضعف سنه ، ولا تشينغ بسبب صداقته . إذا هذا الشيء تراه زوجة عم وانغ لنغ لفورها ، فصاحت بعينين ضاحكتين: « إن وانغ لنغ يسعى لاقتطاف زهرة في جهة ما ! » ، فلما نظرت اليها « أولان » في اتضاع ، ودون أن تفهم معنى كلامها ، ضحكت وقالت مرة أخرى : « هل لا بد دائماً من أن تشقي البطيخة حتى تستطيعي أن تري بذورها ؟ .. حسناً ، إذن فاعرفي بصراحة أن زوجك مجنون بحب امرأة أخرى ! » .

وسمع وانغ لنغ امرأة عمه تقول هذا ، وهي في فناء البيت الذي تطل عليه نافذته ، بينما كان مستلقياً في غرفته ذات صباح مبكر ، وهو متعب ناعس الجفن ، وقد أهلك عشقه قواه ، فسرعان ما تيقظ وازداد إصغاء ، وهو في دهشة من نفاذ بصيرة هذه المرأة . واستمر صوتها القوي ينبعث متدفقاً كالزيت من حلقها البدين : « لقد رأيت رجالا كثيرين عندما يبدأ أحدهم فجأة في تصفيف شعره وتلميعه ، وفي شراء الثياب الجديدة ، وفي انتعال احذية من المخمل ، فلا بد ان هناك امرأة جديدة .. وهذا امر مؤكد ! »

وصدر صوت حزين من « أولان » فلم يستطع تمييز كلماتها ، ولكن امرأة عمه عادت تقول : « ولا ينبغي ان تظني أيتها الحمقاء المسكينة ، ان الرجل يكتفي بامرأة واحدة .. واذا كانت امرأة مجتهدة مكدودة ، استنفدت جسدها في العمل من أجله ، وكانت أقل إرضاء له ، فينصرف هواه الى غيرها بسرعة اكبر . وانت – أيتها الحمقاء المسكينة – لم تكوني قط صالحة لهوى أي رجل ، ولم تكوني افضل بكثير من مجرد دابة تكدح من أجله ، فلا ينبغي لك أن تتذمري إذا أصبح غنياً فاشترى لنفسه امرأة اخرى واحضرها الى بيته ، فهكذا الرجال جميعاً ، وهكذا كان زوجي المتعطل العجوز خليقاً بأن يفعل ، لولا ان الملعون لم يحصل في حياته كلها على فضة تكفي حتى لإطعام نفسه ! » .

وقالت المرأة هذا وكلاماً كثيراً غيره ، ولكن وانغ لنغ لم يسمع وهو في فراشه اكثر من هذا ، لأن تفكيره توقف عند قولها ذاك ، فقد رأى فجأة كيف يسد جوعه ويروي ظمأه الى هذه الفتاة التي يحبها .. إنه قمين بأن يشتريها ويحضرها الى البيت لتصبح ملك يديه ، فلا يدخل عليها رجل آخر ، وهكذا يمكنه ان يأكل فيشبع ، ويشرب فيرتوي . فنهض في الحال من فراشه وخرج ، وأومأ خفية الى امرأة عمه ، ثم قال حين تبعته الى خارج البوابة ، ثم توقفت تحت نخلة البلح ، حيث لم يكن يسمعها أحد : « لقد أصغيت فسمعت ما قلت في فناء الدار ، وانت على صواب . فإنني بحاجة الى اكثر من هذه المرأة ، ولم لا وعندي أرض تطعمنا جميعاً ؟ » .

فقالت في طلاقة وتحمس : « اجل ، ولم لا ؟.. هذا ما يفعله جميع الرجال الذين يثرون . فليس يضطر الى الشرب من كأس واحدة سوى الفقير » ..هكذا تكلمت ، وهي تعرف ما سيقول بعد ذلك . وقد استطرد قائلاً ، كما توقعت : « ولكن من الذي يتفاوض عني ويكون الوسيط ؟.. إن الرجل لا يستطيع أن يذهب الى امرأة ويقول لها : « تعالي الى بيتي » . فأجابت لتوها « دع هـــذا الأمر بين يدي ، وما عليك إلا أن تخبرني من تكون هذه المرأة فأدبر الأمر » . وإذ ذاك اجاب وانغ لنغ في خجل وعلى غير رغبة ، إذ أنه لم يبح من قبل باسمها امام اي شخص : « إنها المرأة المدعوة لوتس » . كان يخال أن كل إنسان لا بد ان يعرف لوتس وان يكون قد سمع بها ، وقد نسي انــه منذ شهرين قصيرين فقط من اشهر الصيف لم يكن يعرف انهــا على قيد الحيــاة . ومن ثم فقد ضاق بامرأة عمه حين مضت تسأله : « وأين دارها ؟ » . فأجاب في شيء من الجفاء : « والآن اين ستكون؟ في اي مكان ستكون غير مشرب الشاي الكبير في الشارع الرئيسي بالمدينة ؟ » سألته : « أهو ذلك البيت المسمى بيت الأزهار ؟» فأجاب لفوره : « وهل هناك غيره ؟ » .

وفكرت برهة ، واصبعها تداعب شفتها السفلى المزمومة ، ثم قالت في النهاية : « إنني لا اعرف احداً هناك ، ولا بد من ان اجد وسيلة ما .. أتعرف من الذي يتولى رعايتها ؟ » . وعندما ابلغها انها كوكو التي كانت جارية في البيت الكبير ، ضحكت وقالت : « آه ، تلك المرأة ؟.. أهذا ما اشتغلت به بعد وفاة السيد الكبير في فراشها ذات ليلة ؟..لا بأس ، هذا ما كان متوقعاً منها » .وضحكت مرة اخرى ثم قالت ببساطة : « أهي تلك المرأة ؟ إذن فالمسألة سهلة حقاً ، وكل شيء واضح .. يا لها من امرأة ! .. إنها منذ البداية كانت على استعداد لأن تفعل أي شيء ، ولو ان تشيد جبلاً إذا شعرت بفضة كافية في راحة يدهـــا مقابل ذلك ! »

وإذ سمع وانغ لنغ وهذا ، شعرة بحلقه يجف فجأة يتيبس ، وانبعث صوته

وكأنه همس قائلاً : « لتكن الفضة إذن !.. الفضة والذهب !. أي شيء ولو كان ثمن أرضي ! »

* * *

وتملكت وانغ لنغ حمى غرامية شديدة ، ومناقضة للغرام ذاتـه ، فأمسك عن الذهاب الى مشرب الشاي ريثما يتم تدبير الأمر . وكان يقول لنفسه : « إذا لم تأت الى بيتي وتبقى لي وحدي ، فلتقطع رقبتي ولن اقربها مرة اخرى ! » . ولكنه عندما كان يفكر في هـذه الكلمات : « اذا لم تأت » كان يشعر بقلبـه يكف عن النبض خوفاً ،ولهذا كان يهرع باستمرار الىزوجة عمه قائلاً :«اسمعي ، ان النقود لن تكون سبباً في اغلاق الباب ! » .. ثم يعود فيقول : « هل ابلغت كوكو ان لدي من الفضـة والذهب ما يكفي لتحقيق رغبـاتي ؟ » .. ويقول كذلك : « ابلغيها انها لن تقوم بأي عمـل في بيتي ، ولكنها ستلبس الثيـاب الحريرية فقط ، ولن تأكل سوى زعانف سمك القرش كل يوم إذا شاءت ذلك !» حتى عيل صبر المرأة السمينة ، فصرخت فيه وهي تدير عينيها في كل جهـــة : « كفى ، كفى ! . أتظنني بلهاء ، ليست هذه أول مرة أوفق فيها بين رجل وامرأة .. دعني وشأني ، وسوف أؤدي لك هذه المهمـــة . لقد قلت كل شيء عدة مرات ! »

ولم يبق أمامه ما يفعله – بعد ذلك – إلا أن يقضم أظافره ويتمثل البيت كما ينبغي ان تراه لوتس ، فأخذ يستحث « أولان » على أن تفعل هذا وذلك من كنس وغسل ونقل للموائد والمقاعد ، حتى ازدادت هذه المخلوقة المسكينة جزعاً ، لأنها تحققت إذ ذاك مما كان يوشك ان يحل بها وان لم يقل لهـــا زوجها شيئاً .

ولم يعد وانغ لنغ يطيق ان ينام معه« أولان » ، وراح يقول لنفسه إنوجود امرأتين في البيت يستلزم مزيداً من الغرف وفناء جديداً ، كما ينبغي إعداد مكان يستطيع ان يخلو فيه إلى حبيبته ، ولهذا دعا عماله – خـــلال انتظاره ان تتم

زوجة عمه المهمة – وامرهم ببناء فناء آخر للبيت خلف الغرفة الوسطى .

وما لبث ان تم كل شيء ، ولم يعد هناك ما يحتاج إلى عمل ، ومر شهر ولم تنته المهمة بعد.وراح وانغ لنغ يتسكع وحيداً في البهو الجديد الذي أعده للفتاة لوتس . وفكر في حفر بركة صغيرة في وسط البهو ، فاستدعى أحد العمال وحفر له العامل بركة مساحتها ثلاث أقدام مربعة ، واحاطها بالقرميد . وذهب وانغ لنغ إلى المدينة واشترى خمس سمكات ذهبية اللون من أجلها . ولم يجد بعد ذلك شيئاً يمكن عمله فعاد ينتظر مرة اخرى نافد الصبر محموماً. وفي تلك الأثناء كلها، لم يقل شيئاً لأحد اللهم إلا انه كان ينهر الأطفال إذا رأى أنوفهم متسخة ، وكان يصرخ في « اولان » ويعيرها بأنها لم تمشط شعرها منذ ثلاثة أيام أو أكثر، حتى إن دموعها آخر الأمر انسابت في صباح احد الأيام، وانفجرت تبكي بصوت عال ، ولم يكن قد سبق له ان رآها تبكي ، حتى عندما كادوا يموتون جوعاً ، او في اي وقت آخر ، فقال لها في خشونة : « ما هذا يا امرأة ! . الا يمكن ان اقول مشطي شعرك الشبيه بذيل الحصان دون ان تقيمي الدنيا وتقعديها ؟ » . ولكنها لم تجب ، بل راحت تردد معولة : « لقد انجبت لك اولاداً !.. إني انجبت لك اولاداً ! » ، وكأن هذا القول افحمه واحرجه، فأخذ يتمتم لنفسه لأنه كان مستحيياً منها ، فآثر ان يتركها وشأنها كان من الصحيح انه لم يكن ثمة ما يشكو منه من زوجته–امام القانون – لأنها انجبت له ثلاثة من خير الأبناء، وكانوا جميعاً على قيد الحياة ، فلم يكن له إذن اي عذر غير شهوته .

وسارت الأمور على هذا المنوال ، حتى جاءته زوجة عمه في احد الأيام ، وقالت له : « لقد تم كل شيء ، فإن المرأة التي تدير مشرب الشاي نيابة عن صاحبه ستقبل العرض مقابل مائة قطعة من الفضة توضع دفعة واحدة في راحة يدها . كما ان الفتاة ارتضت ان تجيء نظير قرطين من اليشب ، وخاتم من الذهب ، وثوبين من الساتان،وآخرين من الحرير،واثني عشر زوجاً من الأحذية، ولحافين من الحرير لفراشها ! »

ولم يسمع وانغ لنغ من كل هذا سوى عبارة « لقد تم كل شيء » ، فصاح : « فليكن .. فليكن .. ». وجرى إلى الغرفة الداخلية ، فأخرج النقود الفضية ، والقاها في يدي المرأة ولكنه حرص على إحاطة ذلك بسياج من الكتمان ، لأنه لم يشأ أن يرى أي شخص ثمن محاصيل تلك السنوات الكثيرة يتبدد هكذا . وقال لزوجة عمه : أما انت فخذي لنفسك عشر قطع من الفضة . فتظاهرت إذ ذاك بالرفض ، وهي تتراجع بجسمها البدين ، وتطوح رأسها يميناً وشمالاً ، ثم صاحت في همس مرتفع : « لا لن آخذها . إننا اسرة واحدة ، ثم إنك ابني وانا امك ، وما عملت هذا إلا من اجلك وليس من أجل الفضة » . ولكن وانغ لنغ رأى يدها مبسوطة وهي تتمنع ، فألقى فيها بالفضة الطيبة ، وهو يعتقد أنه انفقها في وجهها الصحيح .

وفي يوم مشرق متألق ، ملتهب الحرارة ، من ايام الشهر الثامن ، وهو ختام الصيف ، جاءت إلى البيت . وكان وانغ لنغ قد رآها عن بعد وهي قادمة . وكانت تستقل محفة من الغاب محمولة على أكتاف رجال، فراح يراقب المحفة وهي تتحرك يميناً وشمالاً في الدروب الضيقة التي تحف بالحقول،تتبعها كوكو .واعتراه الخوف برهة ، وقال لنفسه : « ما هذا الذي سأستضيفه في بيتي ؟ » . واسرع – وهو لا يكاد يعي ما كان يفعل – إلى الغرفة التي ظل هذه السنوات الكثيرة ينام فيها مع زوجته ، وأغلق على نفسه الباب. وفي الظلام راح ينتظر مضطربا، إلى أن سمع زوجة عمه تناديه بصوت عال ، وتطلب منه أن يخرج لأن شخصاً يريده عند باب البيت .

وخرج متباطئا ، مستحيياً ، وكأنه لم ير الفتاة من قبل ، وقد طأطأ رأسه فوق ثيابه الثمينة ، وعيناه تنظران في كل جهة ما عدا امامه . ولكن كوكو نادته في مرح : « ما كنت احسب أننا سنقوم بصفقة كهذه ! »

ثم ذهبت إلى المحفة التي أنزلها الرجال عن اكتافهم،ورفعت الستار وطقطقت بلسانها وقالت : « هيا يا زهرة اللوتس . اخرجي ، فهاك بيتك وهذا سيدك؟».

وارتبك وانغ لنغ إذ رأى على وجوه حاملي المحفة ابتسامات عريضة وهم يكتمون الضحك ، فقال لنفسه : « إنهم متشردون من شوارع المدينة ، لا يساوون شروى نقير » . وغضب حتى شعر بوجهه ساخنا ، مصطبغاً بالحمرة ولم يستطع الحديث بصوت عال

وما لبثت الستارة أن رفعت ، وقبل أن يعرف ما كان يفعله ، رمى ببصره فرأى الفتاة لوتس جالسة في تجويف المحفة مزينة بالأصباغ ، هادئة كالزنبقة فنسي كل شيء ، سوى أنه اشترى هذه المرأة لتكون له وحده ، وأنها قد جاءت لتقيم في بيته إلى الأبد ، ووقف جامداً يرتجف ، وهو يراقبها إذ نهضت في رشاقة وكأنها زهرة داعبتها الريح وبينما كان يراقبها ، ولا يستطيع تحويل نظره عنها ، امسكت بيد كوكو وخرجت من المحفة ، وقد نكست رأسها واسبلت جفنيها . وسارت متهادية على قدميها الصغيرتين ، معتمدة على كوكو ، وإذ مرت به لم تحدثه ، وإنما اكتفت بأن همست لكوكو بصوت خافت : أين الجناح المخصص لي ؟ » . إذ ذاك تقدمت زو ة عمه إلى الجانب لآخر منها ، وقادت المرأتان الفتاة بينهما إلى البهو ومنه إلى الغرف الجديدة التي بناها وانغ لنغ لها . ولم يكن هناك من بين أهل وانغ لنغ من رآها وهي تمر ، لأنه كان قد أرسل العمال وتشينغ وكلفهم بالعمل في حقل بعيد ، وكانت اولان قد ذهبت إلى مكان لا يعلمه ، آخذة معها الطفلين الصغيرين ، وكان الصبيان في المدرسة ، والشيخ نائماً بجوار الجدار ، فلم يسمع ولم ير شيئاً ، أما ابنته الحمقاء المسكينة ، فلم تكن ترى أحداً ممن يأتون أو يذهبون ، لم تكن تتعرف سوى على أبيها وأمها . ثم إن كوكو اسدلت الستائر خلف لوتس ، بعد دخولها

وبعد فترة من الوقت ، خرجت زوجة عم وانغ لنغ وهي تضحك في شيء من الخبث ، واخذت تنفض يديها الاثنتين ، وكأنها تخلصها من شيء كان عالقاً بها ، وقالت وهي لا تزال تضحك: «إنها تنضح بالعطور والأصباغ هذه المرأة . ثم قالت في مزيد من الخبث : « إنها تتعطر كواحدة من محترفات البغاء..وهي

ليست صغيرة السن كما تبدو يا بن أخي !.. إنني اذهب إلى القول بأنهـــا لو لم تكن تقارب من السن التي يكف بعدها الرجال عن التطلع اليها ، لكان من المشكوك فيه ان تغريها الجواهر في اذنيها ، والخواتم في أصابعها ، بل والحرير والساتان كذلك على أن تـأتي إلى بيت مزارع ، مهما كان موسراً ، ثم رأت الغضب مرتسما في وجه وانغ لنغ ، من جراء هذا الكلام الصريح اكثر مـــن اللازم ، فأضافت بسرعة : « ولكنها جميلة وما رأيت قط أجمل منها،وستكون حلوة المذاق كأشهى انواع الأرز ، بعـــد تلك السنوات التي قضيتها مع الجارية الغليظة العظام التي أخذتها من بيت آل هوانغ ! »

ولكن وانغ لنغ لم يجب بشيء ، وانما اخذ يتنقل في ارجاء البيت، ويرهف السمع دون ان يقوى على الاستقرار . وأخيراً تجـرأ على رفع الستارة الحمراء ، والدخول الى البهو الذي بناه للوتس ، ثم إلى الغرفة المظلمـــة التي كانت فيها ، حيث مكث بجوارها النهار كله إلى ان جاء الليل .

ولم تقرب « أولان » البيت خلال كل هذا الوقت ، وكانت عند الفجر قـد اخذت فأساً من جانب الجدار ، ونادت الأطفال ، واخذت قليلاً من الطعـام البارد لفته في ورقة كرنب ولم تعد حتى ذلك الوقت . على أنها دخلت عندما حل الليل ، صامتة ملطخة بالطين ، بادية الأعياء ، والأطفال يتبعونها صامتين . ولم تخاطب احداً ، وإنمـا دخلت المطبخ وأعدت الطعام ووضعته على المائدة كما اعتادت ان تفعل على الدوام . ونادت الشيخ فوضعت العصوين في يده،واطعمت البنت البلهاء المسكينة ، ثم اكلت قليلا مع الأطفال . فلما ناموا ، كان وانغ لنغ لا يزال جالساً إلى المائدة ، سابحاً في احلامه . فاغتسلت استعدادا للنـــوم . واخيراً ، ذهبت إلى غرفتها المعهودة ونامت وحدها في فراشها .

وراح وانغ لنغ يتغذى ويرتوي من حبه ليلا ونهارا فكان يذهب يوما بعد يوم إلى الغرفة التي ترقد فيها لوتس مسترخية على فراشها ، فيجلس بجوارهـا ، ويرقب كل ما تفعل. ولم تخرج على الإطلاق في حرارة الأيام الأولى من الخريف،

بل كانت تظل راقدة،بينما تغسل المرأة كوكو جسدها النحيل بماء دافيء،وتضمخه بزيت ، وتعطر شعرها وتدهنه ايضاً بالزيت . ذلك لأن لوتس كانت قد اصرت على استبقاء كوكو معها لخدمتها وكانت تدفع لها بسخاء ، ولهذا آثرت المرأة ان تخدم امرأة واحدة بدلا من عشرين . وكانت ومولاتها لوتس تقيمان بمعزل عن الآخرين في الجناح الجديد الذي بناه وانغ لنغ . وكانت الفتاة ترقد طول النهار في غرفتها الرطبة المعتمة ، تأكل الحلوى والفواكه ، ولا ترتدي من الملابس سوى اثواب مفردة صيفية من الحرير الأخضر اللون،وسترة صغيرة محكمة عليها تصل إلى وسطها ، وتحتها سروال واسع . وهكذا كان وانغ لنغ يجدها عندما كان يذهب اليها فيتغذى ويرتوي من حبه .

وكانت تصرفه عند الغروب بدلالها اللطيف، وتعود كوكو إلى غسل جسدها وتضميخها بالعطر .

الفصل الحادي والعشرون

ليس للمرء أن يظن أن مجيء المدعوة لوتس هذه، ووصيفتها كوكو إلى بيت وانغ لنغ كان ليتم دون ان يحدث اضطراباً ما او خلافاً من أي نوع ، حيث إن وجود أكثر من امرأة واحدة تحت سقف واحـــد لا يتمشى مع مقتضيات السلام والأمن .

ولكن وانغ لنغ لم يكن قد قدر هذا ، ومع أنه رأى من نظرات « أولان» العابسة ، ومن حدة كوكو ، أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام، فإنه لم يأبه لذلك. وما كان ليحفل بأي شخص طالما ظل قلبه ملتهباً بشهوته ا . على أنه بذوبان النهار في الليل ، وتحول الليـــل إلى فجر ، بدأ وانغ لنغ يرى ان الشمس تشرق حقيقة في الصباح ، وأن هذه المرأة « لوتس » كانت في بيته ، وان القمر يطلع في مواعيده ، وأنها كانت موجودة في متناول يده عندما يشاء ، وأن ظمـــأه للحب قد خف إلى حد ما ، فبدأ يرى أشياء لم يكن قد رآها من قبل

من ذلك أنه رأى ان ثمة شقاقاً بين « أولان » وكوكو . وكان هذا مبعث دهشة له ، فقد كان يتوقع ان تكره « أولان » « لوتس » ، إذ كثيراً ما سمع عن مثل هذا ، بل إن من النساء من كن يشنقن أنفسهن بحبل عندما يتخذ زوج الواحدة منهن لنفسه امرأة أخرى ، ومنهن من كن يتفنن في اللوم والنزاع حتى يجعلن حياة الرجل جحيماً لا يطاق وقد سره ان « أولان » كانت امرأة صامتة فهي — على الأقل — لم تكن تملك ان تفكر في كلام تستخدمه ضده ، ولكنه لم يقدر أنها وإن التزمت السكوت إزاء لوتس ، فإن غضبها سيجد مخرجاً له ضد

كوكو . غير ان وانغ لنغ لم يكن يفكر في غير لوتس ، وتذكر عندما قالت له يوماً في رجاء : « دعني أتخذ هذه المرأة خادماً لي ، فإني وحيدة في الدنيا إذ ان أبي وأمي ماتا وأنا بعد طفلة لا أحسن الكلام ، فباعني عمي بمجرد ان تجلى حسني لأزاول حياة كتلك التي عشتها .. فليس لي أحد في الدنيا ! » . وكيف عندما قالت له هذا ودموعها – التي كانت أبداً غزيرة متأهبة للانهار – تلمع في ركني عينيها الجميلتين ، لم يكن في وسعه ان ينكر عليها ما سألته ، لا سيما حين تطلعت إليه هكذا . ثم إن الفتاة لم يكن عندها بالفعل احد ليخدمها ، وكانت بالفعل وحيدة في داره ، إذ كـــان من الواضح ، ومن المنتظر ، ان تأبى « أولان » خدمة الزوجة الثانية ، وأن تعزف عن مكالمتها او ان تلاحظ وجودها في البيت . ولم يكن للوتس – بعد ذلك – سوى عمها ، ومـــا كان وانغ لنغ ليستسيـغ وجوده في منزله يتلصص ويتجسس ويكون بقربها فتتحدث إليه عنه . ولذلك كانت كوكو أفضل من غيرها ، ولم يكن يعرف امرأة أخرى تقبل ان تأتي . على ان « أولان » عندما رأت كوكو اشتد غضبها – على ما يظهر – وكان غضباً عميقاً كئيباً ، لم يشهده وانغ لنغ منها قبل ذلك ولا عرف أنهـا قادرة على الشعور به .

وكانت كوكو على استعداد كاف لمصادقة « أولان » مـا دامت تتقاضى أجرها من وانغ لنغ ، وإن لم تنس انها – في البيت الكبير – كانت في غرفة السيد الكبير بينما كانت « أولان » جارية في المطبـخ ، ومجرد واحـــدة من كثيرات ، ولكنها مع هذا نادت أولان وحادثتها بود في أول مقابلة لها، فقالت لها : « حسناً يا صديقتي القديمة ، هاقد جمعنا منزل واحد مرة اخرى ، وأنت فيه السيدة والزوجـة الأولى – وبمثابـة أم لي – ألا ترين كيف تغيرت الأوضاع ؟ » .

ولكن « أولان » حملقت فيها ، حتى إذا أدركت من هي وكيف هي ، لم ترد عليها بشيء . وإنما أنزلت جرة الماء التي كانت تحملها ، وذهبت إلى الغرفة

الوسطى – حيث اعتاد وانغ لنغ ان يجلس بين فترات غرامه – وقالت له بصراحة « ماذا تعمل هذه الجارية في بيتنا ؟ » وتلفت وانغ لنغ شرقاً وغرباً ، وود لو أنه تحدث بصراحة ، وقال بلهجة السيد المهيب : « إن البيت بيتي ، وكل من أريدها ان تدخله ستدخله ، ومن أنت حتى تسألي ؟ ولكنه لم يستطع ، إذ اعتراه شيء من الخجل عندما رأى « أولان » امامه ولقد أغضبه خجله ، لأنه عندما فكر في الأمر ، لم يجد داعياً للخجل ، فهو لم يعمل أكثر مما كان يفعله أي شخص عنده فضة تفيض عن حاجته . ولكنه مع هذا لم يتمكن من المجاهرة ، وإنما اكتفى بتحويل بصره شرقاً وغرباً ، وتظاهر بالبحث عن الغليون في ثيابه ، وفتش في منطقته ، ولكن « أولان » ثبتت على قدميها الكبيرتين وانتظرت . فلما لم يفعل شيئاً عادت تتساءل بصراحة . وبنفس الكلمات : « ماذا تفعل هذه الجارية في دارنا ؟ » .

ولما رأى وانغ لنغ أنه لابد لها من ان تتلقى رداً ، قال في ضعف : « وماذا يضيرك في هذا ؟ » فقالت أولان : لقد تحملت غطرستها طيلة أيام صباي في البيت الكبير ، وصبرت على دخولها المطبخ عشرات المرات في اليوم وهي تصيح : « أعدوا الشاي الآن للسيد .. وأعدوا الطعام للسيد . » وكانت تنتقد على الدوام فهذا ساخن أكثر من اللازم ، وذلك بارد اكثر مما ينبغي ، وذاك سيء الطهو . وكانت تصفني بالدمامة المفرطة ، والغباء الزائد وغير هذا وذاك . » ولكن وانغ لنغ ظل صامتاً ، إذ أنه لم يعرف ماذا يقول . وانتظرت أولان ، فلما لم يتكلم اغرورقت عيناها ببطء بدموع حارة قليلة ، فطرفت عينيها لتمسك بالدموع ثم رفعت أخيراً طرف مرولتها ، ومسحت عينيها . وقالت في النهاية : إنه لمرير هذا الذي يحدث في بيتي وليس لي بيت ام اعرف طريقة لأعود إليه . وإذ ظل وانغ لنغ صامتاً لا يرد بشيء على الإطلاق ، وانما جلس وأشعل غليونه ولم ينبس ببنت شفة نظرت إليه في مذلة وحزن بعينيها البليدتين اللتين تشبهان عيني حيوان لا يستطيع النطق ، ثم انصرفت متسللة تتلمس الباب لأن

دموعها أغشت بصرها .

وراقبها وانغ لنغ وهي تخرج ، واغتبط لأنه اصبح وحيداً ، ولكنه ظل خجلاً ، وظل غاضباً لأنه كان خجلاً يحدث نفسه ويدمدم بصوت عال في اضطراب ، وكأنه كان يتمارك مع شخص ما : « إنني مثل غيري من الرجال، وقد كنت رفيقاً بها » . وهناك من هم اسوأ مني .

وقال أخيراً إن على « اولان » ان تتحمل هذا .

ولكن أولان لم تكن قد انتهت من الأمر وإن مضت في سبيلها صامتة . ففي الصباح كانت تدفىء الماء وتقدمه للشيخ ، وكانت تقدم الشاي لوانغ لنغ إذا لم يكن في الجناح الداخلي . اما حين كانت كوكو تذهب لتحضر بعض الماء الدافىء لسيدتها ، فإنها كانت تجد القدر فارغاً ، ولم يكن كل تساؤلها بصوت ليجعل اولان تحرك ساكناً .فكان يتحتم على كوكو ان تغلي الماء بنفسها لسيدتها إذا أرادت ان تحصل عليه ساخناً ، وعند ذلك يكون الوقت قد حان لصنع عصيدة الصباح ، فلا تجد في القدر متسعا لوضع الماء ، وتمضي أولان في الطهو دون ان ترد بشيء على صياح كوكو: «اتظل سيدتي الرقيقة ظمآنة تغص بريقها في فراشها تنتظر جرعة من الماء في الصباح ؟ » . ولكن اولان كانت تتظاهر بأنها لم تسمعها،وتلقي بالمزيد من الحشائش والحطب في الفرن،وتنشرها بعناية وحسن تدبير ، كما اعتادت ان تفعل في الماضي حينما كانت ورقة الشجرة ثمينة بسبب النار التي تنتجها تحت الطعام .

وذهبت كوكو إلى وانغ لنغ ، وظلت تصيح وتشكو له تصرف اولان ، فأغضبه ان تكدر حبيبته مثل هذه الترهات ، وذهب إلى « اولان » ليوبخها ، وصاح بها يقول : « الا يمكنك ان تضيفي بعض الماء إلى القدر في كل صباح ؟ » ولكنها اجابت في عبوس لم يسبق ان ظهر مثله على وجهها : « لست جارية للجواري .. في هذا البيت على الأقل ! » . وطغى غضبه إذ ذاك على احتماله

فأمسك بكتف اولان وهزها بعنف، وقال: « حسبك غباء ، فالماء ليس للخادم ولكنه للسيدة » . واحتملت عنفه ، وتفرست فيه ، ثم قالت بكل بساطة : « اهذه هي التي اعطيتها اللؤلؤتين اللتين كانتا لي ! » فسقطت يده ، وامسك عن الكلام ، وزال غضبه فخرج في خجل ، وقال لكوكو : « سنبني فرنا آخر وسأشيد مطبخاً آخر ، فإن الزوجة الأولى لا تفقه شيئاً عن الأطايب التي تحتاج اليها الزوجة الأخرى لجسمها الشبيه بالزهرة ، والتي تنعمين بهـا انت ايضاً . وسيكون لك ان تطهي ما يطيب لك ! » .

وهكذا امر العمال بأن يبنوا غرفة صغيرة وفرنا من الطين فيها ، واشترى قدراً جيدة . فسرت كوكو لأنـه قال : « سيكون لك ان تطهي مـا يطيب لك ! » .

وقال وانغ لنغ لنفسه إن اموره قد استقرت، وإن زوجتيه اصبحتا تعيشان في سلام ، وإنه بوسعه ان ينعم بحبه ، وخيل اليه من جديد انه لا يمكن ان يمل « لوتس » ولا طريقتها في النظر اليه وجفناها مسدلان كأوراق الزنبقـة على عينيها الكبيرتـين ، ولا الضحكة التي كانت تومض في عينيهـا وهي تنظر اليه .

وكانت هناك شوكة صغيرة اخرى ، تفرعت من الشوكة الأولى ، تلك هي زوجة عمه التي كانت تحب الطعام الجيد ، ولهذا فكثيراً ما كانت تذهب إلى الجناح الداخلي في اوقات الأكل واستباحت لنفسها حرية كبيرة هنـاك . ولم يرتح وانغ لنغ لاختيار لوتس هذه المرأة من جميع اهل بيته كصديقة لهـا ، وراحت النسوة الثلاث يأكلن اطيب الأطعمة في الجناح الداخلي ، ويثرثرن بغير انقطاع ، ويتهامسن ويتضاحكن ، وكان في زوجة عمه ما حببها إلى لوتس ، فاندمجت النسوة الثلاث ، ولم يرق ذلك لوانغ لنغ .

على انه لم يكن ثمة ما يمكن عمله ، إذ انه حين قال للوتس في رقة ومداهنة

« يا لوتس ، يا زهرتي ، لا تبددي قطعك على عجوز بدينة كهذه ، فإني أحتاج إلى هذا اللطف لقلبي وحده ، وهي امرأة مخادعة لا يؤمن جانبها ، ولا أحب ان تلازمك هكذا من الفجر إلى المغرب » ، ضاقت لوتس بهذا الكلام وردت عليه في تأفف ، وهي تمط شفتيها وتبعد رأسها عنه : « ليس لي أحد هنا غيرك ، وليس لي أصدقاء ، وقد اعتدت ان أعيش في دار كلها مرح ، وليس في بيتك غير زوجتك الأولى وهي تكرهني ، وأطفالك وهم كالوباء بالنسبة لي . فليس لي هنا أحد ! » . ثم استخدمت أسلحتها ضده ، فلم تسمح له بدخول غرفتها في تلك الليلة ، وأخذت تشكو وتقول : « إنك لا تحبني ، فلو أنك كنت تحبني لرغبت في ان أكون سعيدة ! » . وإذ ذاك انصاع وانغ لنغ ، واشتدت لهفته ، وأبدى خضوعه ، وعبر عن أسفه وقال : « ليكن لك كل ما تريدين ، وإلى الأبد » . عندئذ غفرت له وكأنها ملكة ، وأصبح يخاف ان يوجه اليها أي نوع من التوبيخ على ما تريد ان تفعله ، وأصبحت – حين كان يذهب اليها بعد هذا – تأمره بالانتظار ، وتهمله إذا ما كانت تتحدث او تشرب الشاي او تأكل بعض الحلوى مع امرأة عمه ، فكان ينصرف وهو غاضب . من أنها كانت تأبى عليه ان يدخل ما دامت تلك المرأة الأخرى موجودة معها . وخبت جذوة حبه شيئاً ما ، دون ان يلاحظ ذلك .

وهكذا لم يعد حبه للوتس كاملاً راسخاً ، كما كان من قبل ، مستولياً على عقله وجسمه . بل أخذت تمزقه مناسبات الغضب البسيطة التي كانت حادة لأنه كان مضطراً إلى ان يتحملها ، ولأنه لم يعد يستطيع الذهاب حتى لأولان ليفتح لها صدره ويبثها شكواه ، بعد ان أصبحت حياتها مقطعة الأواصر .

وأخذت متاعب وانغ لنغ تزداد فكأنها حقل من الشوك تنبت الأشواك فيه من جذر واحد وتنتشر هنا وهناك . من ذلك ان أباه – الذي يمكن ان يقال إنه لم يكن يرى شيئاً لأنه كان مغفياً باستمرار بسبب تقدمه في السن – استيقظ فجأة ذات يوم ، وكان نائماً في الشمس ، وأخذ يدب معتمداً على العصا ذات رأس

التنين – التي اشتراها له وانغ لنغ عند بلوغه سن السبعين – حتى وصل إلى باب عليه ستارة بين الغرفة الرئيسية والفناء الذي كانت لوتس تتريض فيه . ولم يكن الشيخ قد لاحظ هذا الباب من قبل ، ولا عرف متى بنى الجناح الجديد ، وبالتالي كان يبدو انه لم يدر إذا ما كان احد قد انضم إلى البيت ام لا . ولم يكن وانغ لنغ قد قال له قط « لقد اقتنيت امرأة أخرى » ، لأن الشيخ كان أصم إلى درجة لم اكن يستطيع معها ان يفهم أي صوت ينبئه بشيء جديد لم يخطر له ببال .

لكنه – في ذلك اليوم – رأى هذا الباب دون ما سبب ، فذهب اليه ، وأزاح الستار وتصادف ان كان ذلك في ساعة من المساء اعتاد فيها وانغ لنغ ان يتمشى مع لوتس في الفناء . وكانا واقفين بجوار البركة يتطلعان إلى السمك ، وإن كان وانغ لنغ يتطلع في الواقع الى لوتس . وعندما وقع نظر الشيخ على ابنه واقفاً بجوار فتاة نحيلة مصبوغة الوجه ، صاح بصوته المرتعش المتقطع .

« أفي البيت بغى ؟ » .

ولم يسكت بالرغم من ان وانغ لنغ سار اليه ، وقاده الى الفناء الخارجي ، خشية ان تغضب لوتس . فإن هذه الصغيرة كانت إذا غضبت تصرخ وتعول وتضرب كفاً بكف . وأخذ يهدئه قائلاً « هدىء من روعك يا أبي . إنها ليست بغيا . وإنما هي زوجة ثانية في البيت » ولكن الشيخ أبى ان يصمت ، ولم يدر احد ما إذا كان قد سمع ما قاله ابنه أم لم يسمعه ، ولكنه واصل الصياح مكرراً : « أفي البيت بغي ؟ » ثم قال فجأة ، إذ رأى وانغ لنغ بالقرب منه ، « لقد كانت لي امرأة واحدة ، وكانت لأبي امرأة واحدة ، وكنا نفلح الأرض » .. ثم عاد يصيح بعد برهة : « أقول إنها بغى ! » .

وهكذا استيقظ الشيخ من إغفاءة الشيخوخة المتقطع وقد سيطر عليه نوع من المقت الخبيث للوتس . وكان يسعى الى باب جناحها ، ويصيح فجأة في

الهواء : « يا ساقطة ! » ، او يزيح الستار عن جناحها ، ويبصق بغضب على الأرض . وكان ينتقي الأحجار الصغيرة ويطوح بها بذراعه الضعيفة الى البركة الصغيرة ليزعج السمك . وأخذ يعبر عن غضبه بالأساليب التافهة التي يعمد اليها أي طفل شرير .

وأحدث هذا أيضاً ارتباكاً في بيت وانغ لنغ ، لأنه كان يستحيي انيؤنب والده ، ومع هذا فقد كان يخاف غضب لوتس ؛ لأنه عرف ان لها طبعاً حاداً من السهل ان تفقد السيطرة عليه ، وكان حرصه على ان يصد أباه عن إغضابها مضنياً له ، كما كان عاملاً آخر جعل حبه عبئاً ثقيلاً عليه .

وسمع ذات يوم صراخاً منبعثاً من الجناح الداخلي ، فأسرع اليه ، إذ تبينأنه كان صوت لوتس ، وهناك وجد طفليه الأصغرين – الطفل والطفلة التوأمين – قد اقتادا أختهما الكبرى الى الجناح الداخلي . تلك البلهاء المسكينة . وكان الأبناء الأربعة . عدا هذه البنت – لا يهدأ فضولهم إزاء تلك السيدة التي كانت تسكن الجناح الداخلي ، ولكن الولدين الكبيرين كانا واعيين ، وخجولين ويعرفان جيداً ما الذي أتى بها هنا ، وإن لم يتحدثا قط عنها إلا سراً فيما بينهما . اما الطفلان الصغيران فلم يملا استغراق النظر ، والاستغراب ، وشم عبير العطور التي كانت تتضمخ بها ، ودس أصابعهما في أواني الأطعمة التي كانت كوكو تحملها من جناحها بعد انتهائها من الأكل .

وكثيراً ما اشتكت لوتس لوانغ لنغ من أن اطفاله كانوا كالوباء بالنسبة لها ، وودت لو ان هناك طريقة لاحتجازهم خارج جناحها ، حتى لا يضايقوها . ولكنه لم يكن راغباً في ان يفعل هذا ، وقد قال لها مازحاً : لا بأس ، إنهم كأبيهم يحبون التطلع إلى وجه جميل ! ،ولم يفعل أكثر من ان يحرم على الأطفال الدخول إلى جناحها ، فكانوا لا يدخلونه إذا كان يراهم ، اما حين لم يكن يراهم فإنهم كانوا يتسابقون خفية الى الجناح داخلين خارجين، اما الفتاة الكبيرة فلم تكن تفقه شيئاً عن أي شيء ، وكانت تكتفي بالجلوس في الشمس مستندة

الى جدار البهو الخارجي ، تبتسم وتلعب بطرف ثوبها .

على ان الـولدين الكبيرين كانا غائبين عن البيت في المدرسة في ذلـك اليوم فتراءى للطفلين الصغيرين ان البلهاء يجب ان ترى هي الأخرى السيدة التي كانت في الجناح الداخلي ، فسحباها من يدها الى البهو .. وهنـاك وقفت امام لوتس، التي لم تكن قد رأتها من قبل ، ثم جلست وأخذت تحملق فيها . وحدث ان البلهاء حين رأت السترة الحريرية اللامعة التي كانت لوتس ترتديها، واليشب الذي كان يومض في أذنيها ، تملكها نوع غريب من الفرح لهذا المنظر ، ومدت يديهـا لتمسك بهذه الألوان البراقة ، وضحكت بصوت مرتفع.. ضحكة كانت عبارة عن ضجيج فقط لا ينطوي على أي معنى، ففزعت لوتس وصرخت بصوت عال، هو الذي سمعه وانغ لنغ فأقبل يجري وكانت لوتس ترتعد غضباً وتقفز على قدميها الصغيرتين ، وتهز أصبعها في وجــه الفتاة الضاحكة المسكينة ، وهي تصرخ : « لن أبقى في هذا البيت إذا اقتربت مني هذه المخلوقة .. إن احـداً لم يخبرني بأنني يجب ان أحمل حمقى ملاعين ، ولو كنت قد عرفت هذا لما جئت.. يا لأطفالك من قذرين ! » ودفعت الطفل الصغير المشدوه الذي كان يقف قريباً منها ، ولوت يد شقيقته التوأم ، فاستيقظ الغضب الصادق في قلب وانغ لنغ ، لأنه كان يحب اطفاله ، وقال لها بخشونة :

« لست أقبل ان اسمع اطفالي يسبون من أي مخلوق، ولو كان السباب موجهاً للبلهاء المسكينة .. ولن أقبله منك أنت بالذات يا من لم تحمـل في بطنك طفلاً لأي رجل !.. والآن انصرفوا .. يا بني ويا بنتي ، وإياكما والعودة بعد ذلك الى جناح هذه المرأة ، لأنها لا تحبكما .. ومـا دامت لا تحبكما فهي لا تحب والدكما كذلك ! » . وقال للابنة الكبرى بحنو بالغ : «وأنت يا بلهائي المسكينة عودي الى مكانك في الشمس » . فابتسمت له .. فأخذها من يدها وخرج بها .

وكان أشد غضبه على الإطلاق منصباً على تجرؤ لوتس على سب طفلته هذه ووصفها بالحمقاء ، وأثقل قلبه مزيد من الألم من أجل هذه البنت، حتى إنه ظل

يوماً او اثنين لا يقرب لونس ، بل راح يلعب مع الأطفال ، وذهب الى المدينة فاشترى لابنته البلهاء المسكينة كعكة من حلوى الشمير ، وسرى عن نفسه اغتباطها الشديد بالحلوى .

وعندما ذهب الى لوتس مرة اخرى،لم يقل أي منهما شيئاً عن عدم حضوره طيلة اليومين الماضيين ، ولكنها ابدت اهتماماً خاصاً بإرضائه، فعندما دخل عليها كانت زوجة عمه هناك تشرب الشاي ، فاعتذرت لها لوتس بقولها : « هاهو ذا مولاي قد جاءني ، ويجب ان أكون طوع رغبته ، لأن هذا مصدر سعادتي » : وظلت واقفة الى ان خرجت المرأة ، ثم اقتربت من وانغ لنغ وأخذت يده ووضعتها على خدها ، وأخذت تتودد اليه . اما هو - فبالرغم من ان حبها عاوده الا انه لم يعد يحبها حبا مستوليا شاملا ، كما كان يحبها من قبل .والواقع انه منذ تلك الفترة لم يعد يحبها بنفس القوة والاستغراق .

ثم جاء يوم ، عندما انتهى الصيف ، وبدت السماء في الصباح الباكر صافية ، باردة ، زرقاء كمياه البحر ، وأخذت رياح الخريف النظيفة تهب بعنف على الأرض .

وافاق وانغ لنغ وكأنه يستيقظ من سبات عميق ، فذهب الى باب البيت ونظر الى حقوله ، فراى المياه قد انحسرت عنها ، واخذت الأرض تلمع تحت الريح الجافة الباردة وتحت الشمس الحارقة .

الفصل الثاني والعشرون

وكما شفي وانغ لنغ من سقامه الروحي عندما عــاد الى المدينة الجنوبية ، وارتاح من المرارة التي احتملها هناك ، فإنه الآن شفي كذلـك من داء الحب ، بفضل الأرض الطيبة السمراء في حقوله . وشعر بالتربة الرطبة تحت قدميه وشم عبير الأرض المتصاعد من الجعدات التي كان يقلبها لزراعة القمح . وراح يصدر الأوامر لعماله بالعمل هنا وهناك ، فأنجزوا عملاً كبيراً في ذلك اليوم وهم يحرثون هنا ويحرثون هناك . ووقف وانغ لنغ وراء الثيران – في أول الأمر – يقرقع بالسوط على ظهورها ، ويراقب الأرض وهي تنقلب كلما شق المحراث قلب التربة ثم نادى تشينغ ، وأعطاه مقود الثيران ، وتناول فأساً وصار يفتت التربة إلى مادة لزجة ناعمة ، كالسكر الأسود ، بل أشد سمرة بفعل رطوبة الأرض. وكان يفعل هذا لمجرد الابتهاج الذي كان يلتمسه فيه ، وليس لأنه كان مضطراً أن يفعله ، حتى إذا شعر بالتعب ، رقد على أرضه ونام ، فسرت قوة الأرض في دمه ولحمه ، وشفي من سقامه .

وعندما حل الليل ، وغربت الشمس في توهج لا تعكره أية سحابة ، عاد إلى بيته منهوك القوى ينضح جسده بالتعب ، ولكنه كان يشعر بالظفر . وأزاح الستار المؤدي إلى الجناح الداخلي بقوة ، فرأى لوتس ترفل في ثيابها الحريرية . فما إن رأته حتى صاحت لما رأته من طين على ثيابه ، وارتجفت عندمـا اقترب منها ولكنه ضحك وأمسك بيديها الصغيرتين البضتين في يديه المتربتين، وضحك مرة أخرى وقال: «هأنت ترين أن مولاك ليس إلا فلاحاً ، وانك زوجة فلاح!» إذ ذاك صاحت في غضب : «أمـا أنا فلست زوجة مزارع .. ولتكن أنت

ما تشاء ! » فضحك مرة أخرى وخرج ببساطة . ثم تناول أرز المساء وهو لا يزال ملطخاً بالطين، ولم يغتسل في هذه المرة من أجل امرأة ما .. وراح يضحك لأنه تحرر .

وخيل لوانغ لنغ – إذ ذاك – أنه كان غائباً زمناً طويلاً ، وشعر فجأة بأن هناك أشياء كثيرة يجب أن يؤديها كانت الأرض بحاجة ملحـــة إلى الحرث والزرع ، فراح يعمل فيها يوماً بعد يوم ، وإذا ابيضاض البشرة الذي اكتسبه في أثناء صيف حبه ينقلب إلى سمرة داكنة تحت أشعة الشمس ، وإذا يداه – اللتان فقدتا البشرة اليابسة في بعض أجزائها ، من جراء خمول الحب – تقسوان ثانية في الأماكن التي كانت تتعرض لضغط الفأس وحيث كان مقبضاً المحراث يتركان آثارهما .

وصار عندما يعود إلى بيته – في الظهر وفي الليل – يقبل بشهية على الطعام الذي تكون « أولان » قد أعدتـــه له ، من الأرز والكرنب وعصيدة الفول وعيدان الثوم المحشوة في خبز القمح وحينما كانت لوتس تضع يدها على أنفها الصغير عند مجيئه ، وتصيح من رائحته ، كان يضحك ولا يبالي ، وينفخ أنفاسه القوية في وجهها ، وكان لزاماً عليها أن تتحمل ما استطاعت ، لأنه آلى عـــلى نفسه أن يأكل ما يشتهي . وإذ أصبح ممتلئاً بالصحة من جديد ، متحرراً من سقام حبه، أصبح في إمكانه أن يذهب إليها ، وينتهي من أمره معها ، ثم يلتفت إلى شئون أخرى .

وهكذا احتلت المرأتان مكانيهما في بيته فلوتس ، للهوه وملذاته ، وإشباع شهوته للجمال وصغر الجسم وبهجة الجنس .. أما « أولان » فكانت المرأة العاملة والأم التي أنجبت له أولاده وأدارت له بيته وأطعمته هو وأبوه وأولاده ، وكان من بواعث زهو وانغ لنغ – في القرية – أن راح رجالها يتحدثون في غيرة وحسد عن المرأة التي كان يقتنيها في الجناح الداخلي ، وكأنهم يتحدثون عن جوهرة نادرة ، أو لعبة غالية لا نفع لها سوى أنها علامة ورمز لرجـــل تعدى مرحلة

قصر الاهتمام على الطعام والملابس ، وأصبح بوسعه أن ينفق على متعته إذا شاء .

وكان عمه في مقدمة رجال القرية الذين كانوا يعجبون برخائه ، إذ كان عمه في تلك الأيام ككلب يتمسح في الأهداب ويسعى إلى اكتساب الحظوة ، فكان يقول : « ها هو ذا ابن أخي ، الذي يحتفظ بامرأة لتمتعه لم ير قط واحد منا — نحن عامة الناس — مثلها ! » وكان يقول كذلك : « إنه يدخل الى امرأته التي ترتدي ثياباً من الستان والحرير ، وكأنهـا سيدة في بيت كبير ، انني لم أرها ، ولكن زوجتي تحدثني عنها ! » .. ويقول : « إن ابن أخي يؤسس أسرة كبيرة ، وسيكون أبناؤه ابناء رجل ثري ولن يكونوا بحاجة إلى العمل طول حياتهم » .

ولهذا ، أخذ أهل القرية ينظرون الى وانغ لنغ باحترام متزايد ، ولم يعودوا يخاطبونه كواحد منهم وانما كشخص يقيم في بيت كبير . واصبحوا يقصدونه لاقتراض المال منه بفوائد ، ولينشدوا النصح فيما يتعلق بزواج ابنائهم وبناتهم . وإذا حدث نزاع بين اثنين على حدود حقليهما فإنهما كانا يسألان وانغ لنغ أن يبت في نزاعهما ، وكان حكمه مقبولاً أياً كان .

وبعد ان كان وانغ لنغ مشغولاً بحبه ، ارتوى الآن وشغلته عنه أشياء كثيرة فقد هطلت الأمطار في موسمها ، ونبت القمح ونما ، ومرت الأشهر حتى اذا أقبل الشتاء اخذ وانغ لنغ محصولاته إلى الأسواق ، لأنه كان قد احتفظ بغلاله الى ان ارتفعت الأسعار .. وفي هذه المرة أخذ ابنه الأكبر معه .

والإنسان يشعر بالزهو عادة عندما يرى ابنه الأكبر يقرأ بصوت عال الحروف المكتوبة على الورق ، ويغمس الفرشاة في المداد ليكتب ما يقرأه غيره . وقد شعر وانغ لنغ الآن بهذا الفخر فوقف في خيلاء يرقب ما يجري ، ولم يضحك عندما صاح الكتبة الذين كانوا يسخرون منه من قبل : « يا لها من حروف جميلة تلك التي يكتبها هذا الصبي . إنه ماهر حقاً ! » .

ولم يتظاهر وانغ لنغ بأنه أمر غير عادي ان يكون له ولد كهذا ، وإن كاد

قلبه يتفجر فخراً - عندما انتقد الصبي بحدة طريقة كتابة أحـد الحروف - حتى لقد اضطر إلى ان ينتحي جانباً ويسعل ويبصق على الأرض لينقذ نفسه . وعندما سرت غمغمة العجب بين الكتبة لرجاحة عقل ابنه اكتفى بأن قال له : « إذن فغيره !.. فلن نوقع على شيء كتب خطأ ! » ووقف مزهوا يرقب ولده وهو يأخذ الفرشاة ويصحح الخطأ .

وبعد أن انتهى الأمر ، وكتب الابن اسم والده على عقد بيع الغلال ، وعلى وثيقة تسلم المال ، سار الاثنان معاً - الأب وابنـــه - عائدين الى البيت وراح الأب يقول لنفسه إن ابنه أصبح رجلاً ، وهو ابنه الأكبر ، فعليه أن يفعل له ما يليق بابنه ، ولا بد له من أن يدبر اختيار وخطبة زوجة لابنه بحيث لايحتاج الصبي الى الذهاب كالمتسول إلى أحد البيوت الكبيرة - كما فعل هو - ليلتقط من تبقت ومن زهدها الجميـع .. فقد كان ابنه ابن رجل غني يملك ارضاً .

ومن ثم وطن وانغ لنغ نفسه على البحث عن فتاة تصلح زوجة لابنه . ومـا كانت هذه بالمهمة اليسيرة ، إذ أنه لم يكن ليرتضي له فتاة عادية من عامـة الشعب وقـد فاتح تشينـغ في هذا الأمر ذات ليـلة ، بعد أن خليا لنفسيهما في الردهة الوسطى ليبحثا ما يلزم شراؤه للزراعة الربيعية ، وما لديهما من بذور ادخراها من محصولاتهما . ولم يتحدث في لهجة الذي يتوقع مساعدة كبيرة ، لأنه كان يعرف أن تشينغ بسيط للغاية ، ولكنه كان يعرف أيضاً انــه كان له إخلاص الكلب الأمين لسيده ، فكان مما يسري عنه ان يتحدث بما في باله إلى شخص مثله .

ووقف تشينغ بخضوع أمام وانغ لنغ يؤكد له ، بعد أن أصبح ثرياً ، بالرغم من إلحاح وانغ لنغ عليه ان يجلس . وأخذ يصغي باهتمام كبير إلى وانغ لنغ وهو يتحدث عن ابنه والفتاة التي يبحث له عنها ، حتى إذا انتهى من الحديث ، تنهد تشينغ ، وقال بصوته المتردد الذي لم يكن يعلو بكثير عن الهمس: « لو كانت

ابنتي المسكينة هنا وسليمة ، لكانت لك دون مقابل البتة ، بل ومعها شكري وامتناني كذلك . ولكن لا أدري اين هي الآن ، ولعلها قد ماتت دون ان أعرف ، فشكره وانغ لنغ ، ولكنه أشفق ان يصارحه بما كان في نفسه من أنه لا بد لابنه من زوجة أعلى مقاما بكثير من ابنة تشينـغ الذي لم يكن رغم طيبته سوى فلاح عادي يعمل أجيراً في ارض غيره .

ولهذا احتفظ وانغ لنـغ برغبته لنفسه ، ولم يصارح بها أحداً ، واكتفى بأن راح ينصت هنا وهناك في مشرب الشاي عندما كان الحديث يتناول الفتيات أو ثراة القوم في المدينة ممن لهم فتيات في سن الزواج ، ولكنه لم يذكر شيئاً لزوجة عمه ، وإنما كتم عنها غايته ، لأنها لم تكن ماهرة إلا عندما يكون بحاجة إلى امراء لنفسه من أحد مشارب الشاي ؛ فكانت تحذق تدبير مثل هذا الأمر اما لأبنه ؛ فكان يؤثر ان لا تتدخل في الأمر امرأة كزوجة عمه ؛ التي لم تكن لتعرف فتاة من النوع الذي يراه صالحاً لابنه الأكبر .

ومرت الأيام ، وازدادت كثافة الجليد واشتدت قسوة الشتاء ، وحل عيد رأس السنة ؛ فأخذ الجميع يأكلون ويشربون ، وجاء إلى وانغ لنغ رجال ، لا من أهل القرية فحسب وإنما من المدينة كذلك ؛ ليتمنوا لـه الحظ السعيد . وقالوا له : « ليس ثمة حظ يمكننا ان نتمناه لك أعظم مما لك ، فلديك في بيتك أولاد ونساء واموال وأراض ! » .

وطرأت تغيرات فجائية على الابن الأكبر لوانغ لنغ فلم يعد طفلاً ، وإنما غلبت عليه الكآبة وحدة الطبع ، وأصبح يصدف عن أكل هذا وذاك ، ومل كتبه . فانزعج وانغ لنغ ، ولم يعرف كيف يتصرف ازاء هـذا ، وفكر في عرض الولد على طبيب . ولم يعد يرجي للصبي اي إصلاح ، اذ كان ابوه اذا قال له بملاطفة : « كل من هذا اللحم الطيب والأرز » ، اشاح في عناء وكآبة ، واذا اظهر وانغ لنغ اي غضب ، انفجر الصبي باكياً وهرب من الغرفة .

وطفت الدهشة على وانغ لنغ ، ولم يستطع ان يفهم كنه هذا التغيير، ولهذا كان يسرح وراء الفتى ، ويقول له في ارق ما يمكن : « انني ابوك فصارحني بما في نفسك ! » : ولكن الفتى لم يكن يفعل اكثر من النشيج وهز رأسه بعنف، والأدهى والأمر من ذلك انه بـدأ يكره معلمـه ، وبات يأبى الاستيقاظ في الصباح ومغـادرة فراشه للذهاب إلى المدرسة ما لم يصرخ فيه وانغ لنغ ، أو يضربه وإذ ذاك كان يذهب مهموماً . وكان احياناً يقضي نهاره كله متسكعاً في طرقات المدينة ، ولم يكن وانغ لنغ يدري بهذا إلا في الليل عندما كان الصبي الأصغر يقول لأبيه في إيضاح : « إن أخي الأكبر لم يكن اليوم في المدرسة ! »، وإذ ذاك كان وانغ لنغ يغضب على ابنه الأكبر ، ويصرخ فيه : أو أنفق الفضة الطيبة دون جدوى ؟ ».

وفي سورة غضبه ، كان ينهال على الولد ضرباً بعصا من الغاب ، حتى تسمعه أولان – أم الولد – فتهرع إليهما من المطبخ ، وتقف بين ابنها وأبيه ، فكانت الضربات تنهال عليها هي برغم أن وانغ لنغ كان يميـــل هنا وهناك ليصل إلى الولد . وكان العجيب في الأمر أن الفتى الذي اعتاد أن يبكي لأي توبيخ عابر ، تحمل هذه الضربات المنهالة من العصا دون أن يندو عنه أي صوت ، وقـد جمد وجهه وشحب فكأنه صورة . ولم يفهم وانغ لنغ شيئاً من هذا ، وإن راح يفكر فيه ليلاً ونهاراً .

وكان يفكر فيه ذات مساء ، بعد أن تناول العشاء لأنه كان قد ضرب ابنه الأكبر – في ذلك اليوم – لعدم ذهابـه إلى المدرسة ، وبينما كان يفكر دخلت أولان الغرفة ، ومشيت في هدوء حتى وقفت أمام وانغ لنغ ، فرأى أن لديهـا شيئاً تريد ان تقوله له ، ومن ثم قـال « تحدثي .. ماذا لديك يا أم ابني ؟ » فاجابت: « لا فائدة من ضرب الفتى كما تفعل. لقد رأيت مثل هذه الحال تنتاب السادة الصغار في أبهاء البيت الكبير، فإذا الكآبة تستولي عليهم ، وإذ ذاك كان

السيد الكبير يدبر لهم جواري ، إذا لم يكونوا قد عثروا لأنفسهم على بعضهن ، فكان الأمر ينقضي بسهولة ! » .

فقال وانـغ لنغ يجادلها « إن الأمر لا يلزم أن يكون هذا ، فعندما كنت فتى لم تساورني مثل هذه الكآبة ولا حدة الطباع ، ولم احتج إلى جوار ! » . فتريثت أولان برهة ، ثم قالت ببطء : « الواقع انني لم أشهد هذه الحالة إلالدى السادة الصغار ، لقد كنت أنت تعمل في الأرض ، ولكن ابنك شب على غرار السادة الصغار ، وهو عاطل في البيت لا عمل له » .

الفصل الثالث والعشرون

وإذا رأت لوتس انشغال بال وانغ لنغ في حضورها ، وتفكيره في أمور غير جمالها ، عبست وقالت له : « لو كنت أعلم انك بعد عام قصير ستنظر نحوي دون ان تراني لفضلت البقاء في مشرب الشاي » واشاحت بوجهها عنه وهي تتكلم ، وراحت تنظر إليه من ركن عينيها مما أضحكه. فامسك بيدها ووضعها على خده ، وأخذ يشم شذاها ، ثم اجاب : « إن المرء لا يستطيع ان يفكر دائماً في الجوهرة التي حاكها في ثوبه ، ولكنه لا يحتمل فقدها إذا ضاعت ، وانا — في هذه الايام — افكر في ابني الأكبر ، وكيف ان دمه لا يهدأ من الشهوة ، فلا بد من ان يتزوج ، ولست ادري كيف أجد له من يتزوجها ، فلست أود ان يتزوج أيا من بنات فلاحي القرية ، ولن يكون هذا لائقاً ، لأنه يحمل اسم « وانغ » مثلي ، ولكني مع هذا لا اعرف احداً في المدينة معرفة كافية لأن اقول له : « ها هوذا ابني ، وهذه ابنتك فلنزوجها ! » ثم إنني أكره ان أسعى الى خاطبة محترفة خشية ان تكون قد اتفقت مع رجل لديه ابنة شوهاء او بلهاء ! » .

كانت لوتس تنظر الى الابن الأكبر بإعجاب منذ ان استطالت قامته وامتشقت بحكم الرجولة المبكرة ، فشغلت بما قاله وانغ لنغ لها ، واجابت وهي تفكر : « هناك رجل كان قد اعتاد زيارتي في مشرب الشاي الكبير ، وكثيراً ما كان يتحدث عن ابنة له لأنها على حد قوله كانت تشبهني في صغر الجسم والرقة ، ولكنها كانت بعد صغيرة السن . وكان يقول لي : « إنني احبك بشعور

غريب من عدم الارتيـاح ، وكأنك ابنتي ، فأنت تشبهينها الى حـــد كبير وهذا ما يقلقني لأنه امر غـــير شرعي » . ولهذا السبب ، اخذ يذهب إلى فتاة كبيرة الجسم ، حمراء البشرة اسمهــا زهرة الرمان ، برغم انه كان يؤثرني بحبه ! » .

فسألها وانغ لنغ : « وأي نوع من الرجال كان ؟ » فقالت : « كان رجلاً طيباً ، جواداً بفضته ، لا يعد إلا ويدفع . وكنا جميعــاً نتمنى له الخير ، لأنه لم يكن حقوداً ، وإذا كانت إحدى الفتيات متوعكة أحياناً ، فإنـــه لم يكن يملأ الدنيا صراخاً كما يفعل غيره شاكياً من انه قد خدع ، وإنما كان يقول دائماً في تلطف ، وكأنه امير مثقف من بيت كريم المحتد . « حسناً ، هاك الفضة يا صغيرتي واستريحي حتى يزدهر الحب مرة اخرى ! » . . كان يحدثنا دائماً بأسلوب عذب ! » .

وسرحت لوتس بتفكيرها ، الى ان بادر وانغ لنغ الى إيقاظها من تأملاتها إذ لم يكن يحب ان تفكر في حياتها الماضية ، فقال : « وما هو عمل هذا الرجل الذي أوتي كل هذه الفضة ؟ » فأجابته : « هذا ما لست أعرفه ، ولكني أظنه كان صاحب متجر للحبوب ، وسأسأل كوكو التي تعرف كل شيء عن الرجال واموالهم » . ثم صفقت فأقبلت كوكو مهرولة من المطبخ وقدا حمر خداهـا العاليان وأنفها من اللهب ، فسألتها لوتس : « من كان ذلـك الرجل العظيم الضخم ، الطيب ، الذي كان يأتي إلي ثم ذهب الى زهرة الرمــان ، لأني كنت أشبه ابنته الصغيرة فكان هذا يضايقه بالرغم من انـــه كان يحبني اكثر من الأخريات ؟ » فأجابت كوكو على الفور : « آه إنه ليو ، تاجر الحبوب . أجل ، كان رجلاً طيباً ، كان يدس الفضة كلما رآني ! » .

فتساءل وانغ لنغ بشيء من الإهمال ، لأن هذا كان حديث نسوة ، وقـد لاينتهي إلى نتيجة : « وأين متــاجره ؟ » فقالت كوكو : « في شارع الجسر

الحجري ، وقبل أن تنتهي من ردها ، دق وانغ لنغ كفيه في اغتباط قائـلا : عجباً !. إنه ذات المتجر الذي ابيعه غلالي ، وهذا من محاسن الصدف ، ومما يؤكد إمكان تحقيق الأمر » .

وللمرة الأولى ، استيقظ اهتمامه إذ لاح له ان من حسن الحظ ان يزوج إبنه من ابنة الرجل الذي كان يشتري غلاله .

وكانت كوكو إذ كلفت بعمل ما تتشمم المال فيه كما يتشمم الجرذ رائحة الدهن فمسحت يديها في مرولتها ، وقالت بسرعة : « إنني على استعداد لخدمة السيد » ورمقها وانغ لنغ في ارتيـاب وتشكك ، وتفحص وجهها الماكر . ولكن لوتس قالت في جذل : « هـذا حق ، وستذهب كوكو فتسأل ذلك الرجل « ليو » ، فهو يعرفها تمام المعرفة ، ومن الممكن إبرام الأمر ، لأن كوكو ماهرة بما فيه الكفاية ، وستأخذ أجر وسيط الزواج ، إذا أحسنت أداء المهمة » .

وقالت كوكو في تحمس ، وهي تضحك لمجرد التفكير في الفضة التي ستضمها راحتها أجراً لها : « لسوف أتكفل في ذلك ! » ثم فكت مرولتها عن وسطها ، وقالت وهي منهمكة : « سأذهب الآن ، في الحال لأن اللحم معد ، لا ينقصه سوى لحظة إنضاج ، والخضر مغسولة ! » .

ولكن وانغ لنغ لم يكن قد تدبر الأمر بدرجة كافية ، ولم يكن هذا الأمر من الأمور التي يبت فيها بسرعة هكذا ، فصاح قائلا : « لا ، إني لم أقرر بعد يجب ان أفكر في الأمر بضعة ايام ، وسأخبركما بما أرى » . وكانت المرأتان قليلتي الصبر ، فكوكو متلهفة على الفضة ، ولوتس لأنها وجدت شيئاً جديداً ، وكانت تواقة الى ان تسمع جديداً لتتسلى به . ولكن وانغ لنغ انصرف قائلا : « لا . إنه ابني أنا وسوف اتريث ! » . وهكذا كان من المحتمل ان يتريث أياماً عديدة ليفكر في هذه وتلك ، لولا أنه حدث — في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام — ان عاد ابنه الأكبر الى البيت في الفجر ، محتقن الوجه أحمره من

الخمر . وكانت انفاسه متقطعة ، وقدماه متعثرتين . وسمعه وانغ لنغ وهو يتعثر في الفناء ، فجرى ليرى القادم ، وإذا الفتى مضطرب المعدة ، يتقيأ أمامه ، إذ انه لم يألف اكثر من النبيذ الخفيف، الذي كانوا يصنعونه من أرزهم المتخمر. وسقط على الأرض فنام وسط القيء كالكلب .

وارتاع وانغ لنغ ونادى « أولان » فرفعا الفتى معاً، وغسلته الأم ثم أرقدته في الفراش الذي كان في غرفتها ، وقبل ان تنتهي من أمره ، كان قد استغرق في نوم عميق كالميت ، ولم يستطع الرد على أسئلة والده . وذهب وانغ لنغ بعد ذلك الى الغرفة التي ينام فيها الولدان ، فرأى الصبي الأصغر يتثاءب ويتمطى ويربط كتبه في قطعة مربعة من القماش ، ليحملها معه الى المدرسة . فقال له وانغ لنغ : « ألم ينم أخوك الأكبر الى جوارك في الفراش في الليلة الماضية ؟ » . فأجاب الصبي وهو كاره : « لا » .

وكان في نظرته شيء من الخوف ، وإذ تبين وانغ لنغ ذلك ، صاح فيه بخشونة يقول : « والى أين ذهب ؟ . فلما أبى الصبي ان يجيب ، امسكه من عنقه ، وهزه ، وصاح « قل لي كل شيء أيها الجرو الصغير ! » . وارتاع الصبي لهذا ، فانفجر باكياً منتحباً ، وقال بين شهقاته : « طلب مني الأخ الأكبر ان لا ابلغك شيئا ، وقال إنه سيقرصني،وسيحرقني بإبرة محماة إذا انا أخبرتك، اما إذا لم افعل فإنه يعطيني بضعة بنسات ! » .

وصرخ وانغ لنغ ، إذ لم يعد يتمالك نفسه : « خبرني ما الأمر !.. إنك تستحق الموت ! » ، وتلفت الولد حوله ، ثم قال مغلوبا على امره ، إذ رأى ان والده قمين بان يخنقه إذا لم يرد : « لقد تغيب ثلاث ليال متوالية ، ولكنني لا اعرف ماذا كان يفعل . لا اعرف اكثر من انه ذهب مع ابن عمك ! » .

فخفف وانغ لنغ قبضته عن عنق الغلام ، ونحاه جانبا ، وخرج الى غرف عمه وهناك ، وجد ابن عمه ملتهب الوجه محتقنه من أثر الخمر ، كابنه تماما ،

ولكنه كان أكثر ثباتاً،لأنه كان أكبر سناً واكثر اعتياداً على أساليب الرجال . فصاح فيه وانغ لنغ : « إلى أين قـدت ولدي ؟ » . فنظر الشاب بسخرية إلى وانغ لنغ ، وقال : « آه ، إن ابن عمي هذا ليس بحاجة الى قيادة . وفي إمكانه أن يذهب وحده ! » .

ولكن وانغ لنغ كرر السؤال ، وقد حدثته نفسه أن يقتل ابن عمه ، هـذا الوقح الثقيل الظل . وصاح في صوت رهيب : « أين كان ابني الليلة ؟ » . وإذ ذاك ارتعب الشاب من صوته ، وأجاب في وجوم ، وعلى غير رغبة منه ، وقـد غض عينيه المتبجحتين : « إنه كان في بيت البغي ، التي تسكن في الساحة الـتي كانت يوماً تابعة للبيت الكبير » . وعندما سمع وانغ لنغ هـذا ، أرسل زمجرة ضخمة ، إذ كانت البغي معروفة لعدد كبير من الرجال ، ولم يكن يذهب إليها غير الفقراء وعامة الناس ، لأنها كانت قـد فاتت سن الشباب ، وأصبحت على استعداد لأن تبذل الكثير من جسدها في سبيل القليل من المال .

وخرج وانغ لنغ من بيته دون أن يتريث ليتناول شيئاً من الطعام ، واجتاز حقوله ، وهو لا يرى لأول مرة — شيئاً مما أنبتته أرضه ، ولا يلاحظ شيئاً من بشائر المحصول ، بسبب المتاعب التي جلبها له ابنه...ومضى وعيناه لا تبصران ما حوله ، واجتاز البوابة القائمة في السور المحيط بالمدينة ، ودخـل البيت الذي كان كبيراً يوماً ما ! .

ولكن وانغ لنغ لم ير شيئاً من هذا ، وإنما وقف في فناء البيت الأول وصاح: « أين المرأة التي تدعى يانغ .. البغي ؟ » .

وكانت هناك امرأة تجلس على مقعد ذي أرجل ثلاث تخيط نعلاً، فلما سمعت صوت وانغ لنغ ، رفعت رأسها واومـأت إلى باب جانبي ينفتح على الفناء ، ثم استأنفت الحياكة ثانية ، وكأنما كان هذا السؤال يوجه إليها كثيراً واتجـه وانغ لنغ إلى الباب ودقه ، فاجابه صوت مشبع بالضيق . « انصرف ، فقـد

اكتفيت من عملي الليلة ، ولا بد أن انام لأني أعمل طول الليل » . ولكنه كرر القرع ، فصاح الصوت : من الطارق ؟ » .

ولم يجب ، ولكنه عاود الطرق ، إذ كان مصمماً على الدخول سواء رضيت المرأة أم لم ترض ، وأخيراً سمع حركة ، وفتحت الباب امرأة .. أمرأة لم تكن بالصغيرة السن ، ولها وجه ارتسمت عليه علامات الإرهاق واللغوب ، وشفتان غليظتان متهدلتان . وعلى جبينها طلاء أبيض خشن ، وخضاب أحمر لم تكن قد غسلته غن فمها وخديها ونظرت إليه وقالت بحدة : « لا أستطيع قبل حلول الليل ، ولك – إذا أردت – ان تبكر ما شئت في المساء . اما الآن فلا بد من ان أنام » .

ولكن وانغ لنغ قاطعها بخشونة ، إذ أن مرآها أثار تقززه ، ولم يحتمل أن يتمثل ابنه في هذا المكان .. فقال : « لم آت من أجل نفسي ، فلست بحاجة إلى مثلك . ولكني جئت من أجل ابني » . وشعر فجـــأة بغصة البكاء في حلقه حزناً على ابنه .

فسألته المرأة : « وما شأن ابنك ؟ » فاجـاب وانغ لنغ بصوت مرتجف : « كان هنا في الليلة الماضية » فقالت المرأة : « كان هنا أبناء كثيرون في الليلة الماضية ، ولا أعرف من منهم إبنك » . إذ ذاك قـــال وانغ لنغ متضرعاً : « فكري لعلك تتذكرين صبياً نحيلاً ، صغير السن ، أطول ممـن هم في عمره ، ولكنه لم يبلغ بعد مبلغ الرجال ، وما كنت أحلم ان يجرؤ على مباشرة امرأة » فتذكرت المرأة وقالت . أكانا اثنين ؟ احدهما شاب له أنف مرفوع عند طرفه الى السماء ، وفي عينيه نظرة توحي بأنه يعرف كل شيء ، وقبعة مائلة نحو إحدى أذنيه .. اما الآخر فهو – كما تقول – صبي كبير ، طويل ، تواق إلى أن يصبح رجلا » .

فقال وانغ لنغ : « أجل .. أجل .. هذا هو .. هذا هو ابني ! » فقالت

المرأة : « وما شأن ابنك ؟ » فاجاب في حرارة : « هذا .. إذا جاءك ثانياً فأطرديه .. قولي إنك لست ترغبين إلا في الرجال .. او قولي ما تشائين. ولكن في كل مرة تردينه ، سأضع في كفك ضعف الأجرة فضة ! » .

إذ ذاك ضحكت المرأة بغير مبالاة ، وقالت بروح ظريفة غلبتها فجأة : ومن التي ترفض عرضاً كهذا .. أن تتقاضى أجراً مقابل ألا تعمل ؟ .. وأنا الأخرى أرد بالإيجاب .. إنني حقاً أرغب في الرجال، والصغار لا يعطون سوى لذة قليلة » .

وأومأت الى وانغ لنغ وهي تتحدث ، وتفرست فيه ، فغشيت نفسه من وجهها الخشن ، وقال متعجلا : فليكن ذلك إذن ! » . وتحول مسرعاً ، ومشى عائداً الى بيته ، وظل يبصق وهو سائر ليتخلص من غثيانه كلما تذكر المرأة .

ومن ثم قال لكوكو في ذلك اليوم : « ليكن ما قلت أنت ، فاذهبي إلى تاجر الحبوب ، ودبري المسألة معه ، وليكن المهر طيباً ولكن دون مغالاة، إذا كانت الفتاة مناسبة ، وإذا أمكن تدبير المسألة » . وعندما انتهى من قوله هذا الى كوكو، عاد الى غرفته، وجلس بجوار ابنه النائم ، وسرح باله إذ رأى بهاء الفتى وحسنه ، وراح يتأمل الوجه الهادىء في نومه ، وفيه لطف الصبا . حتى اذا فكر في المرأة العجوز المنهوكة القوى المصبوغة الوجه ، وشفتيها الغليظتين ، اعتل قلبه وتقزز ، وشعر بغضب شديد فأخذ يتمتم بما لا يسمعه سواه .

وفيما كان جالساً ، جاءت « اولان » ووقفت تنظر إلى الفتى ، فرأت العرق يتصبب من جسمه ، واحضرت خلا ممزوجاً بماء دافىء ، وغسلت العرق برفق ، كما اعتادت الجواري ان يغسلن عرق السادة الشبان في البيت الكبير ، عندما كانوا يفرطون في الشراب . وإذ رأى وانغ لنغ الوجه الرقيق الذي تعلوه براءة الأطفال ، والسبات العميق الذي اسلمه إليه الشراب ولم يوقظه منه الغسل، نهض

وذهب - في غضبه – إلى غرفة عمه ، وقد نسي أنه شقيق أبيه ، ولم يعد يذكر سوى ان هذا الرجل أب لشاب متعطل وقح،أفسد ابنه الجميل . ودخل الغرفة، وصاح : « لقد أويت في بيتي عشا من الحيات لم تلبث ان لدغتني » وكان عمه جالساً ، عاكفاً على المائدة يلتهم فطوره ، لأنه لم يكن يستيقظ قط إلا عند الظهر نظراً لأنه لم يكن ثمة عمل يؤديه. وتطلع عندما سمع هذه الكلمات،وقال ببلادة : « ما الذي حدث ؟ » .

فأبلغه وانغ لنغ بما حدث ، وهو يكاد يختنق ، ولكن عمه ضحك وقال : « وهل يمكنك ان تمنع صبياً من ان يصبح رجلاً ؟.. وهل تستطيع منع كلب صغير عن كلبة ضالة ؟ » .

وعندما سمع وانغ لنغ هذه الضحكة ، تذكر في لحظة حافلة كل ما تحمله بسبب عمه وكيف حاول هذا العم في الماضي ان يرغمه على بيع أرضه ، وكيف كان ثلاثتهم يعيشون في البيت يشربون ويأكلون ولا يفعلون شيئاً، وكيف كانت زوجة عمه تأكل من الأطعمة الغالية التي تشتريها كوكو للوتس ، وكيف أقدم ابن عمه الآن على افساد ابنه الصبي الجميل ، فعض لسانه بين أسنانه ، وقال « اخرجوا الآن من داري .. أنت ومن معك ، فلن يحصل أحد منكم على أرز منذ هذه الساعة .. وإني لأفضل ان احرق هذا البيت عن ان أجعله مأوى لكم يا ناكري الجميل .. حتى في كسلكم وتعطلكم ! » .

ولكن عمه ظل جالساً حيث كان ، وواصل الأكل مغترفاً من هذا الوعاء تارة ، ومن ذاك تارة اخرى ، ووانغ لنغ واقف والدم يكاد يتفجر من شرايينه وعندما وجد عمه غير مبال به ، تقدم رافعاً ذراعه ، وإذ ذاك التفت اليه عمه ، وقال : « اطردني إذا واتتك الجرأة » وعندما زمجر وانغ لنغ ، وصاح متلعثماً وهو لا يفهم معنى كلام عمه : « حسناً ماذا ..؟ » فتح عمه معطفه ، وأظهره على ما كان مخيطاً في بطانته . فتسمر وانغ لنغ في مكانه جامداً ، إذ رأى في البطانة

لحية مستعارة من الشعر الأحمر ، وقطعة من قماش احمر اللون . وراح وانغ لنغ يحملق فيها ، وقد غاض الغضب منه كما يغيض الماء ، وأخذ يهتز إذ لم تبق فيه قوة . ذلك لأن هذين الشيئين – اللحية الحمراء وقطعة القماش الأحمر كانا علامة ورمزاً لعصابة من اللصوص تقيم في منطقة الشمال الغربي وتعيث فيها فساداً ،وكم من بيوت احرقتها ، ومن نساء اختطفتهن ، ومن فلاحين شرفاء قيدتهم بالحبال على أبواب بيوتهم ، حيث كان الناس يجدونهم في اليوم التالي ، وهم يهذون وقد فقدوا عقولهم إن كانوا احياء ، او محترقين وجافين كاللحم المشوي إن كانو موتى .

وراح وانغ لنغ يحملق وقد جحظت عيناه ، ثم استدار وخرج دون ان ينطق بكلمة ، وسمع وهو ماض في طريقه ضحكة مكتومة صادرة من عمه ، وهو ينحني على وعاء الأرز .

ووجد وانغ لنغ نفسه في ورطة لم يكن ليحلم بها . وظل عمه يغدو ويروح كما كان يفعل من قبل ، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة خلف شعيرات لحيته الشيباء الخفيفة المتناثرة ، وأثوابه ملتفة حول جسمه ومحوطة بحزامه بنفس الإهمال المعهود فكان وانغ لنغ يتصبب عرقاً بارداً حين يراه ، ولكنه لم يكن يجرؤ على ان يوجه اليه غير كلمات الود ، خوفاً مما قد يفعله به عمه . والحق ان اللصوص لم يغدوا على بيته او أرضه طوال اعوام الرخاء التي نعم بها ، بل ولا في السنوات التي لم تجد الأرض فيها بالمحاصيل – او جادت بالقليل النادر فقط وكان الناس وأولادهم يموتون جوعاً .. وإن كان الخوف قد تملكه عدة مرات، وكان يغلق الأبواب بإحكام في الليل . وكان – قبل الصيف الذي احب فيه لوتس – لا يرتدي غير الخشن من الثياب ، ويتجنب دائماً الظهور بمظهر الثراء.. وكلما سمع قصص حوادث السطو تشيع بين القرويين ، أخذ يأوي إلى بيته ، وينام قلقاً ، ويظل طيلة الليل ينصت إلى كل صوت .

ولكن اللصوص لم يداهموا بيته قط، فأخذ يهمل احتياطاته ويزداد جرأة،

واعتقد ان السماء تحرسه ، وأن القدر جعله إنساناً محظوظاً ، فلم يعد يبالي بأي شيء ، ولا حتى بحرق البخور للآلهة ، ما داموا يرعونه بغير البخور . ولم يعد يفكر في غير شئونه الخاصة وأرضه . ثم تبين فجأة السبب في أنه ظل آمناً ، وفي أنه خليق بأن يظل آمنا ، ما بقى يطعم تلك الأفواه الثلاثة من آل عمه . وعندما بلغ بتفكيره هذا الحد ، تصبب العرق البارد الثقيل من كل جسمه ، ولم يجرؤ على إبلاغ أي مخلوق عما كان عمه يخفيه في صدره .

اما عمه ، فانه لم يعد يأمره بالرحيل عن البيت ، وإنما ذهب إلى زوجة عمه وقال بكل ما استطاع من استحثاث : « كلي ما يطيب لك من الأطعمة في الجناح الداخلي ، وهاك بعض الفضة لنفقاتك » . وقال لابن عمه ، وإن تحشرجت الكلمات في حلقه : هاك بعض النقود الفضية ، فلا غنى للشباب عن اللهو » .

اما ابنته فقد أخذ يراقبه ، وأصبح يأبى ان يسمح له بمغادرة البيت بعد مغيب الشمس ، وإن بدأ الفتى يغضب من هذا ، ويرتمي هنا وهناك ، ويصفع الأطفال الصغار لغير سبب سوى انحراف مزاجه . وهكذا غرق وانغ لنغ في متاعبه .

ولم يستطع وانغ لنغ العمل في بداية الأمر ،وكان يقول لنفسه :« بوسعي ان اطرد عمي وأن أنتقل إلى ما وراء سور المدينة حيث تغلق البوابات الضخمة في كل ليلة دون اللصوص .

وكانت نفسه تحدثه بأن يذهب إلى المدينة ويسعى إلى القصر الذي يقيم القاضي فيه ويقول له إن عمي من اعضاء عصابة ذوى اللحية الحمراء . ولكن من الذي يصدقه إذا قال هذا ؟. ومن يصدق رجلاً يقول شيئاً كهذا عن شقيق والده ؟.. الأغلب انه يضرب على سوء مسلكه مع أقاربه بدلاً من ان يلقي عمه عقابا .

وينتهي الأمر بأن يعيش في خوف على حياته ، لأن اللصوص خليقون بأن يقتلوه للانتقام إذا سمعوا بذلك .

وكأن كل هذه المتاعب لم تكن كافية ، فقد عادت كوكو من عند تاجر الحبوب . ومع ان مسألة الخطبة سارت على ما يرام ، إلا ان التاجر ليو لم يكن راغبا في ان يتم أي شيء ، لأن الفتاة كانت بعد صغيرة بالنسبة للزواج ، إذ لم تتجاوز الرابعة عشرة فينبغي الانتظار ثلاث سنوات اخرى . واستاء وانغ لنغ من ان تمضى ثلاث سنوات اخرى يظل الفتى فيها في غضبه وبطالته وزيغ نظره ، إذ لم يعد يذهب الى المدرسة اكثر من يومين في كل عشرة أيام ، ولهذا صاح في أولان ، في تلك الليلة ، وهو يأكل : « فلنخطب للأولاد الآخرين كذلك بأسرع ما يمكننا ، فالإسراع في هـذا الأمر أفضل ، ولنزوجهم بمجرد ما يبدأون البلوغ ، لأني لن احتمل حدوث هـذا ثلاث مرات اخرى ! » .

واستيقظ في صباح اليوم التالي ، وكعادته عندما كانت شؤون اسرته تزداد تعقداً أخذ الفأس وخرج الى حقوله ، واجتاز الفناء الخارجي ، حيث كانت ابنته الكبرى جالسة تبتسم وتلعب بقطعة قماش بين اصابعها ، فدمدم : « إن فتاتي البلهاء المسكينة تجلب لي من الراحة اكثر مما يجلبه لي الآخرون مجتمعون » .

وأخذ يخرج الى ارضه يوما بعد يوم ، أياما عديدة . ومـا لبثت الأرض الطيبة ان قامت بدورها الشافي مرة اخرى . وأرسلت الشمس اشعتها فغمرته وأبرأته .. ولفته رياح الصيف الدافئة في غلالة من راحة البال . وكأنما شاء القدر ان يشفيه من جذور تفكيره في متاعبه ، فأرسل من الجنوب - ذات يوم - سحابة خفيفة ، ظلت في البداية معلقة في الأفق . صغيرة ورقيقة ، تشبه الضباب ، اللهم الا في انها لم تكن تتحرك هنا ولا هناك وإنما ظلت ثابتة الى ان انتشرت في الهواء كما تنتشر المروحة .

وراقبها اهل القرية ، وتحدثوا عنها ، وخيم عليهم الخوف،لأنهم كانوا يخشون ان يكون الجراد قد أتى من الجنوب ليلتهم ما زرعوه في الحقول . ووقف وانغ لنغ يراقب مثلهم . وظلت ابصارهم جميعاً معلقة في السماء إلى ان هبت أخيراً ريح طوحت بشيء تحت أقدامهم ، فأسرع احدهم بالانحناء والتقطه ، فإذا به جرادة ميتة . وكانت أخف وزنا من الأسراب الحية التي كانت وراءها .

وعند هذا نسى وانغ لنغ كل متاعبه .. النساء والأولاد ، والعم ، نساهم جميعاً ، واندفع وسط القرويين المذعورين ، وصرخ فيهم : « سنكافح هذه الأعداء ونجلوها عن سمائنا من أجل أرضنا الطيبة » . ولكن بعض الحاضرين هزوا رؤوسهم وقد تملكهم اليأس منذ البداية ، وقالوا : « لا جدوى من أي شيء .. لقد قضت السماء بأن نجوع هذا العام.. أنفنى أنفسنا في مكافحة ذلك، ونحن نعلم اننا سنموت في النهاية جوعاً ؟ » .

استدعى وانغ لنغ عماله ، وانضم اليهم بعض الفلاحين صغار السن،وتعاونوا جميعاً على إشعال النار بأيديهم في بعض الحقول ، وحرقوا القمح الطيب الذي استوى ، وحفروا خنادق واسعة واطلقوا فيها الماء من الآبار ، وظلوا يعملون دون ان يذوقوا طعم النوم ، وكانت اولان تحضر لهم كما كانت النسوة الأخريات يحضرن الطعام لرجالهن .

ثم اسودت صفحة السماء وامتلأ الجو بالهدير المستمر العميق ، الذي كانت تحدثه اجنحة كثيرة ، وهي تتلاطم بعضها بالبعض ، وهبط الجراد إلى الأرض ، فكان يطير فوق هذا الحقل فيتركه سليما ، وينقض على ذاك الحقل فيأتي على ما فيه ويتركه عارياً مجرداً ، وكان الناس يتنهدون ويقولون : « هذه إرادة السماء » ، ولكن وانغ لنغ كان يحتدم غضباً ، فمضى يضرب الجراد ويدوسه بقدميه ، بينما كان رجاله يهاجمون الجراد ويضربونه بالمذريات فيتساقط في النار التي كانت أوقدت لهذا الغرض ، ويطفو ميتاً في مياه الخنادق .. وماتت ملايين عديدة منه ، ولكنها لم تكن تقاس بعدد ما بقى على قيد الحياة .

غير ان وانغ لنغ لقى جزاء كفاحه ، فقد أنقذ احسن حقوله . وعندما انجلت هذه السحابة من الجراد ، وبدأ الناس يستريحون ، وجد ان لديه قمحا باقياً يمكن حصاده ، وان احواض ارزه نجت من الدمار ، فارتاح وشعر بالرضا. وأخذ كثيرون من الناس يأكلون اجسام الجراد المشوية ، ولكن وانغ لنغ لم يفعل مثلهم . لأنه كان يعد الجراد حشرة قذرة بسبب ما فعلته بأرضه .

ومهما يكن من امر ، فقد عاد الجراد على وانغ لنغ بالفائدة ، فقد ظل سبعة أيام وهو لا يفكر إلا في ارضه ، فشفي من متاعبه ومخاوفه ، وقال لنفسه بهدوء : إن لكل إنسان متاعبه ، وينبغي لي ان اصبر على متاعبي بقدر الإمكان . وإن عمي ليكبرني في السن ، وسوف يموت ، ولن تلبث الأعوام الثلاثة ان تمر على ابني بخيرها وشرها ، فلا مبرر إذن لأن اقتل نفسي ! » .

الفصل الرابع والعشرون

حدث في ذات يوم ، بعد أن قال وانغ لنغ لنفسه إن الهدوء والسلام قد سادا بيته ، أن تقدم إليه ابنه الأكبر ، عند عودته من أرضه — في فترة الظهر وقال: « إذا شئت أن أغدو عالماً يا أبتاه ، فليس لدى ذلك الرأس العجوز في المدينة مزيداً يعلمني إياه » .

وكان وانغ لنغ قد أفرغ ماء ساخناً من القدر في حوض ، وغمس فيه منشفة ثم عصرها وأمسك بها ، فوضعها على وجهه ، ثم قال : « وماذا لديك إذن ؟ »

فتردد الفتى برهة ، ثم مضى يقول : « إذا شئت أن أكون عالماً ، فأود أن أذهب إلى المدينة في الجنوب ، وألتحق بمدرسة كبيرة ، حيث أتعلم ما يمكن تعلمه »

وفرك وانغ لنغ بالمنشفة عينيه واذنيه ، ثم رد على ابنه في حدة لأن جسمه كان موجعاً من كدحه في الحقول : « ما هذا الهراء ؟. أقول إنك لن تذهب ، ولن أنثني عن هذا ، فإن رأيي هو أنك لن تذهب . لقد حصلت من العلم ما يكفي في هذه الأصقاع » .

فتملك الفتى الانفعال عند سماع صوت والده ، وقال : « إذن فاعلم أني سأذهب الى الجنوب ، سأذهب .. ولن أبقى في هذا البيت الأحمق تحت المراقبة كأني طفل ، ولا في هذه البلدة الصغيرة التي لا تفضل أية قرية !.. سأرحل لأتعلم وأرى ربوعاً أخرى ! » .

ونظر وانغ لنغ الى ابنه ثم الى نفسه .. كان الابن واقفاً مرتدياً ثوباً طويلاً من الكتان الفضي اللون ، وظهرت على شفته العليا أولى شعرات الرجولة السوداء ، وبدأ جسمه أملس ذهبي اللون ، وظهرت يداه ناعمتين رقيقتين كيدي امرأة. ثم

تأمل وانغ لنغ نفسه، فاذا هو خشن ملطخ بالوحل ، وقد ارتدى سروالاً قطنياً أزرق فقط ، التف حول وسطه وركبتيه ،بينما تعرى نصفه الأعلى ، حتى ليقول المرء إنه كان خادم الابن وليس والده . وجعلته هذهالفكرة يزدري مظهر ولده الطويل الناعم ، فازداد ضراوة وغضباً ، وصاح به : إذهب الآن الى الحقول وافرك جسمك ببعض الطين الطيب لئلا يحسبك الناس امرأة ، واعمل قليلاً في مقابل الأرز الذي تطعمة ! » .

ونسي وانغ لنغ انه ازدهى يوماً بكتابة ابنه وبمهارته في قراءة الكتب ، واندفع الى الخارج يدق الأرض بقدميه الحافيتين ،ويبصق على الأرض فيهمجية، إذ أثارت رقة ابنه الغيظ في نفسه .

ومهما يكن من أمر ، فإن وانغ لنغ عندما ذهب الى الجناح الداخلي،وجلس بجوار لوتس وهي راقدة على الحصيرة التي تغطيفراشهاوكوكو تروح لها بمروحة وهي مستلقية ، قالت له لوتس في تباطؤ : « إن فتاك الكبير هذا يشكو ويريد الرحيل » .

إذ ذاك قال وانغ لنغ بحدة ، وقد تذكر غضبه على ابنه : « وما شأنك انت بهذا ؟ . إنني لا أحب تردده على هذا الجناح وهو في سنه هذه ! » فبادرت لوتس تجيب بسرعة : « كلا ، كلا.. إن كوكو هي التي تقول هذا » .واسرعت كوكو تقول : « بوسع أي امرىء ان يرى هذا ، فهو فتى جميل ، وقد كبر على البطالة والشوق ! » . وخدع وانغ لنغ بهذا الكلام ، فلم يعد يفكر إلا فيغضبه على ابنه ، وقال : « لا ، لن يذهب ، ولن أضيع مالي هباء ! » وأبى ان يتكلم في الأمر اكثر من هذا . ورأت لوتس انه متبرم وغاضب ، فصرفت كوكو ، وتحملت الخلوة إليه .

ونسي وانغ لنغ بعد هذا ابنه ، لأن المحاصيل باستثناء ما التهمه الجراد كانت لا بأس بها ، فكسب من جديد ما كان قد أنفقه على المرأة لوتس . وعاد يقدر قيمة ذهبه وفضته . ومع ذلك ، فقد كانت ثمة أوقات تستثير فيها لوتس مشاعره

استثارة مستعذبة وان لم تكن بالشدة السابقة ، فكان يزهو لامتلاكه هذه المرأة ، وان كان قد تبين تماماً ان ما قالته زوجة عمه عنها كان حقيقة . فهي لم تكن صغيرة السن بالرغم من ضآلة جسمها ، ولم تحمل يوماً لتنجب له طفلا . ولكنه لم يعبأ بهذا ، إذ كان له أولاد وبنات ، وكان راغباً في الاحتفاظ بها للمتعة التي كانت تتيحها له .

وكان خليقاً بوانغ لنغ أن يصبح راضياً ، بعد ان استعادت حياته طمأنينتها ، وقنع الفتى بحاله .. لولا ان دخلت أولان عليه بهدوء — ذات ليلة — وهو جالس بمفرده يحصى على أصابعه ما يمكن أن يبيعه من قمحه ، وما يمكن أن يبيعه من أرزه . وكانت بمضي السنين قد نحف جسمها وذبل ، وبرزت عظام وجهها الشبيهة بالصخور الناتئة ، وغارت عيناها ، وكانت إذا سألها أحد عن صحتها لا تزيد عن قولها : « أحس ناراً في أحشائي ! » .

وكانت بطنها متضخمة طيلة السنوات الثلاث الأخيرة ، وكأن فيها جنيناً ، لولا أنها لم تكن تلد . ولكنها ظلت تنهض في الفجر وتؤدي عملها ، ولم يكن وانغ لنغ ينظر إليها إلا كما ينظر الى المائدة أو إلى مقعده او الى شجرة في الفناء ، بل إنه لم يكن يتأملها بالدقة التي يتأمل بها ثوراً ينكس رأسه ، أو خنزيراً يعزف عن الأكل .. وظلت تؤدي عملها بمفردها ، ولم تكن تكلم كوكو على الإطلاق . ولم تدخل « أولان » الجناح الداخلي قط . وكانت إذا خرجت لوتس في أوقات نادرة لتتمشى قليلاً في غير فنائها ، تأوي أولان الى غرفتها ، وتجلس إلى أن يقول امرؤ : « لقد انصرفت » . ولم تكن تنبس ببنت شفة ، وانما كانت تمضي في عملها في الطهو والغسل عند البركة ، ولكن وانغ لنغ لم يفكر مرة في أن يقول لها : « ولماذا لا تستأجري خادماً بالفضة التي أستطيع ان استغني عنها ، او تشتري جارية ؟ » . لم يعن له أبداً ان هناك حاجة إلى هذا ، وإن كان هو استأجر عمالاً لحقوله ولمساعدته في العناية بالثيران والبغال والخنازير التي لديه .

وفي ذلك المساء ، حين كان يجلس وحيداً ، ولم يكن يضيء المكان غير شمعتين حمراوين ، وقفت « أولان » أمامه وأخذت تجيل بصرها في هذا الاتجاه وذاك ، ثم قالت أخيراً . « لدى ما أقوله ؟ » . وإذ ذاك تفرس فيها بدهشة ، وأجاب : « قولي ما لديك » . وحملق فيها ، وفي الأجزاء الغائرة في وجهها ، وعاد يفكر في مدى خلوها من الجمال ، وكيف لم يشعر خلال السنوات العديدة الماضية برغبة فيها . وأخيراً تكلمت أولان فقالت في همس خشن : « إن الابن الأكبر يذهب أكثر مما ينبغي الى الجناح الداخلي . انه يذهب عندما تكون أنت في الخارج » .

ولم يستطيع وانغ لنغ ان يفهم للوهلة الأولى ما قالته بهذا الصوت الهامس فمال إلى الإمام فاغراً فـاه ، وقال : « ماذا يا امرأة ؟ » فأشارت في صمت الى غرفة ابنها ، وزمت شفتيها الغليظتين الجافتين في اتجاه الجناح الداخلي . ولكن وانغ لنغ ظل يحملق فيها جامداً غير مصدق، وأخيراً قال : « إنك تحلمين ؟ ». فهزت رأسها عند هذا الحد وقد توقفت الكلمات الصعبة على شفتيها ، فلم تزد على أن قالت : « حسناً يا سيدي . عد الى البيت مرة على غير توقـــع ». ثم أضافت بعد فترة صمت : « من الأفضل إبعاده عن هنا ، ولو الى الجنوب » . وتقدمت بعد ذلك الى المائدة ، فأخذت قدح الشاي وجست سخونته فوجدته قد برد ، ثم أراقت الشاي البارد على الأرض الحجرية ، وملأت القدح ثانية من وعاء الشاي الساخن ، وخرجت كما دخلت في سكون ، وتركته جالساً مبهوتاً.

واخذ يحدث نفسه : « عجباً لهـذه المرأة !.. لا شك انها كانت غيوراً ، فلا ينبغي ان يزعج نفسه ما دام الفتى هادىء النفس ، ويقرأ كتبه كل يوم في غرفته . » ونهض من مجلسه ، واخذ يقهقه . واقصى الأمر عن باله وهو يضحك للسفاسف التي تفكر فيها النساء .

ولكنه عندما ذهب في تلك الليلة ليرقد بجانب لوتس ، وعندما انقلب لنحوها في الفراش ، تذمرت وعافته ، ودفعته عنها قائلة : « إن الجو حار ، ورائحتك

كريهة .. ليتك تغتسل قبل أن تأتي لتنام بجواري ! » . ثم جلست في الفراش ورفعت شعرها عن وجهها في ضيق ، وأشاحت بكتفيها عندما هم باجتذابها إلى احضانه ، وأبت ان تستسلم لغزله ! واذ ذاك رقد ساكناً وقد تذكر انها كانت – في الليالي العديدة الأخيرة – تستسلم له وهي كارهة ، وكان يظن أن ذلك راجع الى نزوة ، وإلى ضيقها بحرارة وركود هواء الصيف الراحل ، ولكن كلمات « أولان » قامت الليلة في ذهنه ، فنهض في جفاء، وقال : « نامي وحدك إذن ، واقطعي عنقي إذا اكترثت !. وانطلق خارجاً من الغرفة ، وقصد إلى الغرفة الوسطى من بيته الأصلي ، فوضع مقعدين متجاورين ، وتمدد عليهما . ولكنه لم يستطع الى النوم سبيلا ، فنهض وتجاوز البوابة ، وسار بين أعواد الغاب المجاورة لسور البيت وهناك شعر برطوبة ريح الليل على لحمه الملتهب ، وفيها بوادر برودة الخريف .

وتذكر عندئذ أمراً .. كانت لوتس قد عرفت رغبة ابنه في الرحيل .. فكيف عرفت ؟.. وتذكر ان ابنه لم يقل شيئاً – في الأيام الأخيرة – عن الرحيل ، وإنما أبدى رضى وقناعة ، فلماذا كان راضياً ؟.. وقال وانغ لنغ لنفسه في ضراوة : « سأتبين الأمر بنفسي ! » .

وأخذ يرقب الفجر وحمرته تبزغ في خلال ضباب خيم على أرضه ، حتى إذا اكتمل الفجر ، وظهرت الشمس قرصاً ذهبياً فوق حافة الحقول ، دخل إلى البيت ، وتناول طعامه . ثم خرج ليراقب رجاله كعادته في أيام الحصادوالغرس ومضى هنا وهناك فوق أرضه ، وأخيراً صاح بصوت مرتفع ، حتى يسمعه كل من في البيت : « سأذهب الآن إلى قطعة الأرض المتاخمة لخندق المدينة ، ولن أعود مبكراً » وأخذ سمته نحو المدينة .

فلما بلغ منتصف الطريق،واقتطف ساقاً من الحشيش أخذ يلويها بين أصابعه، وهو مستغرق في الأفكار . وقد راح يفكر المرة تلو الأخرى : « هل أعود

الآن ؟ ، وفجأة، تذكر الليلة الماضية ، عندما دفعته لوتس بعيداً عنها ،فتملكه الغضب بسبب كل ما كان قد فعله من أجلها ، وقال لنفسه : « اني لأدرك أنها لم تكن ستمتع طويلا بالبقاء في مشرب الشاي ، وهـــا هي ذي تنعم في بيتي بوفور الغذاء وفاخر الثياب ».

وفي سورة غضبه نهض وعاد إلى بيته من طريق آخر . ودخل البيت خفية ووقف عند الستار المعلقة على الباب المؤدي إلى الجناح الداخلي . وأخذ ينصت ، فسمع تمتمة صوت رجل ، تبين أنه صوت ابنه .

وإذا الغضب – الذي ثار في قلب وانغ لنغ – غضب لم يسبق ان عرفه في حياته كلها ، مع انه كان قد فقد جبنه القديم – جبن ابن الريف – مـــع تزايد ثروته ، ووصف الناس إياه بالغنى ، وأصبح يسمح لنفسه بنوبات مفاجئة من الغضب لأتفه الأمور ، وكان يعتد بمكانته حتى في المدينة ، ولكن هذا الغضب الذي تملكه الآن ، كان غضب رجل على رجل آخر يسلبه المرأة التي يحبها . وعندما تذكر وانغ لنغ ان الرجل الآخر كان ابنه ، طغى الغثيان على نفسه .

وإذ ذاك أصر على اسنانه بشدة ، وخرج فانتقى من الدغل عوداً رفيعاً ليناً من الخيزران وجرده من فروعه ، فيما عدا مجموعة من الفروع الصغيرة فيطرفه كانت رفيعة ومتينة كالحبل ، وقطع الأوراق كذلك . ثم عاد الى الجناح بخطى غير مسموعة ، وأزاح الستار فجأة ، فإذا ابنه واقف في الفناء ، يطل على لوتس التي كانت جالسة على مقعد صغير عند حافة البركة . وكانت لوتس ترتدي ثوبها الحريري الذي كان بلون الخوخ ، والذي لم يكن من عادتها قط أن ترتديه في وضح النهار .

وكان الاثنان يتناجيان ، والمرأة تضحك بخفة ، وتنظر الى الشاب من ركن عينيها ، وقد مالت بوجهها ، ولم يسمعا وانغ لنغ وهو يدخل ، فوقف يحملق فيهما وقد اشتد شحوب وجهه ، وانفرجت شفتاه ، وكشر عن أنيابه ،واشتدت قبضته على عود الخيزران . وظل الاثنان لا يسمعانه ، وما كانا ليسمعاه لولا ان

المرأة كوكو خرجت ورأته ، فصرخت . وإذ ذاك رأياه .

وهنا قفز وانغ لنغ، وانقض على ولده وراح يسوطه بسوطه. ومع ان الفتى كان الأطول ، فإن الأب كان الأقوى بفضل العمل في الحقول وبفضل متانة جسده الناضج . وظل يضرب الفتى إلى ان تقطر الدم من جسمه ، وعندما صرخت لوتس وأخذت تجذبه من ذراعه نحاها عنه . فلما أصرت على التدخل، وواصلت الصياح ، ضربها هي الأخرى ، وظل يضربها حتى فرت منه . ثم عاد يضرب الشاب حتى انحنى منكفئاً على الأرض ، وغطى وجهه الممزق بيديه .

إذ ذاك كف وانغ لنغ عن ضربه ، وأنفاسه تصفر بين شفتيه المنفرجتين ، وتصبب العرق من جسمه حتى ابتـل ، ووهنت قواه كما لو كان مريضاً ، فألقى بعصاه ، وهمس مخاطباً ابنه وهو يلهث : « اذهب الآن إلى غرفتك، وحذار أن تبرحها إلى أن أتخلص منك ، وإلا قتلتك ! ».

فنهض الولد وانصرف دون ان ينطق بكلمة واحدة ، وجلس وانغ لنغ على المقعد الصغير الذي كانت لوتس تجلس عليه ، ووضع رأسه بين يديه ، وأغلـق عينيه، وأخذ تنفسه يتردد في شهقات كبيرة ، ولم يقترب أحد منه، وظل جالساً وحيداً هكذا ، الى ان هدأت نفسه وزال عنه الغضب إذ ذاك نهض في تثاقل ، وذهب الى الغرفه ، وكانت لوتس راقدة في الفراش ، تبكي في صوت مرتفع ، فسعى إليها وأدارها نحوه ، فظلت راقدة تنظر اليه وهي تبكي ، وقـد ظهر الأثر القرمزي المتورم الذي تركه سوطه ، فقال لها في حزن شديد : « أكان لا بد لك من أن تظلي ابداً بغياً — وان تفسقي في ابنائي ؟ » ، وعلا نحيبها لهذا، وقالت في احتجاج : « أبداً ، ما فسقت، وإنما كان الفتى يشعر بالوحدة فجاءني، وبوسعك ان تسأل كوكو عما إذا كان قد اقترب من فراشي يوماً أكثر مما رأيته في الفناء ؟ » .

ثم نظرت اليه في فزع ومذلة ، وسعت إلى يده فجذبتها فوق الندبة — على وجهها — وقالت: « انظر ماذا فعلت بحبيبتك لوتس ، التي لا رجل لها في الدنيا

غيرك ، وإذا كان الفتى ابنك فهو لدى ابنك فحسب ، وليس أكثر من هذا !
وخيل اليه فجأة أنه عاجز عن أن يطيق معرفه ما دار بين هذين الاثنين ، وود لو أنه لم يعرف على الإطلاق ، فمن الخير له ألا يعرف ، وعـاد يئن من جديد ، وخرج ماراً بغرفة ابنه فصاح به - دون أن يدخل – قائلاً : « هيا ضع متاعك في الصندوق ، واذهب غداً جنوباً ، الى حيث تشاء ، ولا تعد الى هـذا البيت حتى أرسل في طلبك !.

ثم واصل سيره، حتى رأى أولان جالسة تحيك بعض ثيابه ، ومضى في سيره حتى خرج إلى حقوله والى شمس الظهيرة المحرقة ، وقد استبد به الإعياء، وكأنه اشتغل يوماً كاملا .

الفصل الخامس والعشرين

عندما رحل الابن الأكبر ، شعر وانغ لنغ بأن البيت قد تخفف من شحنة زائدة من الهم ، فارتاح باله ، وقال لنفسه : إنه كان من الخير للفتى أن رحل ، وإنه اصبح في ميسوره الآن ان يعني بالأطفال الآخرين ، ويحيط بأمورهم . إذ انه متى أخذنا في الحسبان متاعبه ، والأرض التي لا بد من زرعها وحصادها في المواسم مهما حدث من أمور ، فانه كاد ألا يعرف من اطفاله غير ولده الأكبر .

وقرر — فوق ذلك — ان يبكر بإقصاء ابنه الثاني عن المدرسة ويعلمه حرفة ، ولا ينتظر حتى يطغى عليه طيش الشباب ويجعله وباء آخر في البيت ، كما كان أخوه الأكبر .

وكان الابن الثاني لوانغ لنغ يختلف عن أخيه الأكبر بقدر ما يمكن ان يختلف أي ولدان في بيت واحد . فبينما كان الأكبر طويلا كبير العظام ، أحمر الوجه — كأهل الشمال وكأمه — كان الابن الثاني قصيراً نحيلاً ، اصفر البشرة ، فيه من الصفات ما كان يذكر وانغ لنغ بوالده : فكانت عينه حادة تنم عن مكر وفكاهة ، وكان له ميل الى الشر اذا اوحت الساعة بذلك . وقال وانغ لنغ : « إن هذا الصبي يصلح تاجراً ، بارعاً . وسأخرجه من المدرسة ، وسأحاول تدريبه في سوق الغلال . وسيكون من المناسب ان يكون لي ابن هناك ، حيث ابيع محاصيلي ، فبوسعه ان يراقب الموازين وان يرجع الوزن قليلا لصالحي » .

ولهذا قال لكوكو ذات يوم : « اذهبي فاخبري والد خطيبة ابني الأكبر ان لدي ما أقوله له ، وينبغي على أية حال ان نشرب معاً كأساً من النبيذ ، ما دام دمي ودمه سينصبان في إناء واحد » .

وذهبت كوكو ، ثم عادت تقول : « إنه مستعد لمقابلتك في أي وقت تشاء وإذا كان بوسعك ان تذهب عند الظهيرة لتشرب النبيذ، فلا بأس ، او إن شئت فبوسعه ان يحضر الى هنا » .

ولكن وانغ لنغ لم يشأ ان يفد تاجر المدينة على بيته ، لأنه خشي ان يضطر ان يعد له هذا وذلك ، ومن ثم فقد اغتسل ، وارتدي ثوبه الحريري ، وانطلق عبر الحقول . فذهب أولا الى شارع الجسور ، كما أخبرته كوكو . وهناك وقف امام بوابة تحمل اسم « ليو » ، فقرعها وانغ لنغ بكفه ، واذا بها تنفتح للتو ، وظهرت خلفها خادم راحت تجفف يديها المبتلتين في مرولتها ، وهي تسأله عن اسمه . وعندما ذكر لها اسمه ، حملقت في وجهه ، ثم قادته الى الجناح الأول ، حيث يقطن الرجال . وذهبت به غرفة ، ثم دعته إلى الجلوس . وحملقت فيه مرة أخرى ، إذ كانت تعرف انه والد خطيب كريمة سيد البيت . ثم خرجت لتنادي سيدها .

وفجأة انبعث صوت خطواط ثقيلة ، ودخل رجل بدين مسن ، فنهض وانغ لنغ وانحنى له . انحنى الإثنان معاً ، وكل منهما ينظر خفية الى الاخر ، فأحب كل منهما صاحبه ، واحترم كل منهما الاخر لما كان عليه من مكانة وثروة ثم جلسا ، واحتسيا النبيذ الحار الذي صبته الخادم لهما ، وتحدثا في بطء عن هذا وذاك .. عن المحاصيل والأسعار، وما سيكون عليه سعر الأرز في تلك السنة إذا كان المحصول طيباً . واخيراً قال وانغ لنغ : « لقد جئت لأمر ، فإذا لم يصادف هوى لديك فلنتكلم في امور اخرى .. إذا كنت في حاجة الى خادم في متجرك الكبير ، فهناك ولدي الثاني ، وانه لذكي أريب .. ولكن إذا لم تكن بك حاجة اليه ، فلنتحدث في أشياء أخرى » .

إذ ذاك قال التاجر في بشاشة بالغة، « إنني بحاجة فعلا الى شاب ذكي أريب، إذا كان يعرف الكتابة والقراءة » . فرد وانغ لنغ مزهوا . « إن ولدي الاثنين متعلمان ، وفي إمكان كل منهما ان يكتشف ما إذا كان أي حرف قد كتب خطأ، وما إذا كانت طريقة الكتابة صحيحة ». فقال ليو : « هذا حسن فدعه يأتي حينما يشاء .

فنهض وانغ لنغ إذ ذاك – مسروراً ، وقهقه ، وقال : « نحن الآن صديقان ، أفليس لديك ولد لابنتي الثانية ؟ » . فضحك التاجر ملء شدقيه ، إذ كان بدينا تبدو عليه آثار النعمة ، وقال : « لي ابن ثانٍ في العاشرة، لم اخطب له بعد . فما عمر ابنتك ؟ » . وضحك وانغ لنغ ثانية ، وأجاب : « ستبلغ العاشرة في عيد ميلادها القادم ، وهي بديعة » . إذ ذاك ضحك الرجلان معاً ، وقال التاجر : « أنرتبط معاً بحبل مزدوج ؟ » ولم يزد وانغ لنغ على ذلك ، إذ لم يكن الموضوع مما يمكن بحثه وجهاً لوجه الى ابعد من هذا . ولكنه بعد ان انحنى مجيباً وانصرف مسروراً ، وقال لنفسه : « إن الأمر ممكن تحقيقه » ، وتأمل ابنته عندما عاد الى البيت ، فإذا بها طفلة جميلة واذا امها قد ربطت قدميها بإحكام ، فأصبحت تنتقل في خطوات صغيرة رشيقة .

ولكن وانغ لنغ حين أنعم النظر اليها عن كثب ، رأى آثار الدموع على خديها ، وكان وجهها شديد الشحوب ، واجما الى درجة لا تتناسب مع عمرها ، فاجتذبها نحوه من يدها الصغيرة ، وقال : « لماذا كنت تبكين ؟ » . فنكست رأسها ، واخذت تعبث بزر في ثوبها ، وقالت في خجل وغمغمة : « لأن والدتي تربط قطعة من القماش حول قدمي ، وتزيدها إحكاماً يوما بعد يوم ، حتى إني لم أعد استطيع النوم في الليل » .

فأجاب في دهشة : « ولكنني لم اسمعك تبكين » . فقالت ببساطة : « لا.. لأن امي قالت إنني لا ينبغي أن ابكي بصوت عال ، لأنك أرق واضعف من

ان تتحمل الألم ، وقد تأمر بتركي وشأني ، وإذ ذاك ، لن يحبني زوجي كما أنك لا تحبها ! » .

قالت هذا ببساطة تامـــة كطفلة تروي قصة ، فأحس وانغ لنغ بوخزة إذ سمع ان أولان أنبات الطفلة بأنه لم يكن يحبهـا ، هي التي كانت والدة الطفله ، فأسرع يقول : « حسنا ، لقد سمعت اليوم عن زوج جميل لك ، وسأرى ما إذا كان بوسع كوكو تدبير هذه المسألة » .

فابتسمت الطفلة وطأطأت رأسها ، وبدت فجأة فتاة يانعـة ، لا مجرد طفلة صغيرة . ومن ثم قال وانغ لنغ في مساء اليوم ذاتــه لكوكو ، عندما كان في الجناح الداخلي : « اذهبي فتبيني مـــا إذا كان من الممكن إبرام الأمر » . ولكنه لم يرتح في نومه بجوار لوتس في تلك الليـلة ، وإذ استيقظ راح يفكر في حياته ، وكيف كانت أولان اول أمرأة عرفها ، وكيف بقيت خادمـاً مخلصة الى جواره ، وفكر فيا قالته الطفلة ، فأحزنه ان أولان قد تبينت – برغم بلادة عقلها – حقيقة نفسه .

وفي الأيام التالية ، بعث بولده الثاني الى المدينــــة ، ووقع الأوراق الخاصة بخطبة ابنته الثانية ، وتم الاتفاق على الصداق ، وحددت الهـــدايا التي ستقدم لها في يوم الزفاف من ملابس ومجوهرات . وإذ ذاك ارتاح بال وانغ لنغ ، وقال لنفسه : « هأنذا قد دبرت شئون جميع أولادي ، أما ابنتي البلهاء المسكينة فلن تملك سوى الجلوس في الشمس والعبث بقطعة القماش. أما ابني الأصغر فسأدخره للعناية بالأرض ، ولن أرسله الى المدرسة ، وما دام لي ولدان يعرفان القراءة، ففي هذا الكفاية » .

وللمرة الأولى في الاعوام الطويلة التي قضاها وانغ لنغ مع أولان ، بدا يفكر فيها . فهو – حتى في الأيام الأولى من مجيئها الى بيته – لم يفكر فيها لذاتهـا ، بل لمجرد أنها كانت امرأة ، وكانت الأولى التي عرفهـا . وخيل اليه أنه شغل

عنها بهذا الأمر وذاك ، فلم يكن وقته يتسع للتفكير فيها . الان فقط ، بعد أن استقر أولاده وتوفرت لحقوله العناية اللازمـــة ، وتهيأت للشتاء القادم ، وبعد أن انتظمت حياته مع لوتس التي خضعت وانصاعت له منـــذ ضربها ، الان فقط ، لاح له أن لديه وقتاً للتفكير فيما يشاء ، ففكر في «أولان» .

ونظر اليها هذه المرة ، لا لإنها كانت امرأة ولا لأنها كانت دميمة ، وذابلة وصفراء البشرة .. وإنما نظر اليها بشيء من الندم الغريب ، فرأى انها قـــد نحلت ، وان جلدها قد جف واصفر . ولقد كانت على الدوام سمراء البشرة . وكانت الأماكن المكشوفه من جسمها تتخضب بحمرة وسمرة موردة من جراء العمل في الحقول . ومع ذلـك ، فقد انقضت سنون كثيرة دون ان تذهب الى الحقول ، اللهم إلا في وقت الحصاد أحياناً . ومع ذلك فإنها امتنعت عن الذهاب منذ عامين او اكبر ، لأنه كان يكره ذهابها ، خشية ان يقول الناس « الا تزال امرأتك في الأرض ، على الرغم من غناك ؟ » .

ومع هذا فانه لم يفكر في السر في رغبتها – في الفترة الأخيرة – في البقاء في البيت .. ولا في السبب في انها اصبحت تتحرك ببـــطء متزايد . وتذكر – إذ فكر الان في الأمر – انه كان يسمعها – أحياناً في الصباح – تئن وتتوجع عندما تنهض من فراشها ، وعندما تنحني لتغـذي الفرن بالوقود .. ولكنها كانت تكف فجأة عندما يسألها : « وبعد ، ماذا بك ؟ » . وإذ راح يتأملها ، ويتأمل ذلك الانتفاخ الغريب في جسمها .. شعر بتقريـع الضمير . وإن لم يدر لهذا سبباً . وقال لنفسه مجادلا : « ليس ذنبي إن كنت لم احبها كما يحب الرجل محظيته .. فليس هذا لزاماً على الرجـال » . وكان يقول ليسري عن نفسه : « إنني لم أضربها بتاتاً .. وقد كنت أعطيها فضة كلما طلبت » .

ولكنه مع هذا لم يستطع نسيان ما قالته الطفلة .. وإنما وخزه قولها وإن لم يعرف سبباً لهذا .. لا سيما وأنه كان في كل مرة يناقش ذلك الأمر مع نفسه ، يخرج بأنه كان على الدوام زوجاً طيباً لها .. بل كان خيراً من أغلب الأزواج .

ونظراً لأنه لم يتمكن من التخلص من هذا القلق نحوها . فقد ظل يطيل النظر اليها كلما احضرت له الطعام .. او كلما تنقلت في البيت . وذات يوم عندما إنحنت لتكنس الأرض الحجرية .. بعد انتهائهم من تناول الطعام . لمح وجهها يربد من الم داخلي .. وفتحت فاها . وأخذت تلهث بصوت خافت وقد وضعت يدها على بطنها . وإن ظلت منحنية وكأنها تكنس . فسألها بحدة « ماذا بك ؟ » ولكنها أشاحت بوجهها .. وأجابته في ذلة : « لا شيء سوى الألم القديم الذي في احشائي » . وإذ ذاك حملق فيها .. ثم قال لابنته الصغرى: « خذي المكنسة واكنسي .. لأن أمك مريضة » ثم قال لأولان برفق يزيد على ما اعتاد ان يكلمها به منذ سنوات كثيرة : « ادخلي وارقدي في فراشك» وسآمر بأن تحضر لك ماء ساخناً .. ولا تغادري الفراش » .

فأطاعته ببطء .. دون أن تنطق بكلمة وسارت الى غرفتها . وسمعها وهي تجر نفسها جراً في الغرفة ثم رقدت أخيراً في فراشها . وأخذت تئن بصوت خافت .

وجلس ينصت الى هذا الأنين حتى لم يعد تحتمله . فنهض وذهب الى المدينة ليسأل عن حانوت أي طبيب .

وعثر على حانوت زكاه له كاتب في حانوت الغلال الذي كان ابنه الثاني يعمل فيه . فذهب اليه .. وعندما أخبره وانغ لنغ بالأعراض التي ظهرت على زوجته . زم الرجل شفتيه .. وفتح درجاً بالمنضدة التي كان يجلس اليها . وأخرج حزمة ملفوفة في قطعة من القماش الأسود .. وقال له « سآتي معك الآن » .

وعندما وصلا الى فراش « أولان » كانت قد استغرقت في نعاس خفيف وتجمعت حبات العرق فوق شفتها العليا وجبهتها كقطرات الندى . فهز الطبيب رأسه عندما رآها . ومد يدا جافة صفراء كيد قرد وجس نبضها . وبعد ان

ظل ممسكاً بيدها برهة طويلة .. هز رأسه ثانية .. وبان عليه الوجوم..وقال: « إن الطحال متمدد .. والكبد معتل .. وفي الرحم صخرة كبيرة بحجم رأس الإنسان والمعـدة متحللة .. والقلب يتحرك بمشقة .. ولا شك ان فيه ديداناً » .

وتوقف قلب وانغ لنغ نفسه عن الحركة عندما سمع هذه الكلمات ، وتملكه الخوف ، وصاح محنقاً : « إذن فاعطها دواء .. ألا تستطيع ؟ » .

وفتحت « أولان » عينها وهو يتكلم ، وأخـذت تنظر اليها دون ان تفهم شيئاً ، وقد ذهب الألم بوعيها . وإذ ذاك قال الطبيب الكهل : « إنها حالة صعبة ، وإذا ارادت ان أعالجها — دون ان أضمن — فسأطلب أجراً عشر قطع فضية ، وسأصف لكم بعض الأعشاب ، وبها قلب نمر مجفف ، وسن كلب ، فتغلون هذه معاً ، ثم تصفونها الشراب الناتج أما اذا شئت شفاء كاملا مضموناً ، فسأطلب خمسمائة قطعة من الفضة » .

وإذ سمعت أولان هذه الكلمات : « خمسمائـة قطعة من الفضة » ، تنبهت فجأة من غيبوبتها ، وقالت بصوت ضعيف : « لا ، فإن حياتي لا تساوي هذا القدر . إنه من الممكن شراء مساحة لا بأس بها من الارض بهذا المبلغ » .

وعندما سمع وانغ لنغ هذا ، عاوده الندم القديم الطاغي ، وأجاب بحدة : « لست أريد وفيات في بيتي ، وبوسعي ان أدفع الفضة » . وما سمعه الطبيب الشيخ يقول : « بوسعي ان ادفع الفضة » ، حتى لمعت عيناه جشعاً ، ولكنه كان يعرف العقوبة التي يفرضها القانون إذا لم يف بتعهده فماتت المرأة . ولهـذا عاد يقول .. وان كان آسفاً : « لا .. فإنني إذ أنظر الى لون بياض عينها ، أراني كنت مخطئاً . ولا بد لي من خمسة آلاف قطعة من الفضة ، إذا شئت أن أضمن شفاءها التام » .

ونظر وانغ لنغ الى الطبيب في إدراك صامت حزين ، فما كان ليملك مثـل

هذا القدر من الفضة ، ما لم يبع أرضه . ولكنه أدرك انه حتى ولو باع أرضه فلن تكون ثمة جدوى . إذ كان معنى قول الطبيب ببساطة « لسوف تموت المرأة » .

لهذا خرج مع الطبيب ، ودفع له القطع الفضية العشر . حتى إذا انصرف ذهب وانغ لنغ الى المطبخ المظلم الذي قضت أولان فيه أغلب حياتها وحيث لم يكن هناك من يراه ، ما دامت أولان ليست فيه ، فأدار وجهه الى الجدار الأسود اللون ، وراح يبكي .

* *

ولكن الحياة لم تكن لتخمد فجأة في جسم أولان ، .. فهي لم تكد تتجاوز منتصف عمرها . ولم يكن من السهل ان تغادر الحياة جسدها ، ومن ثم فقد ظلت تموت ببطء ، وهي راقدة في فراشها لمدة اشهر . طوال أشهر الشتاء الطويلة ظلت راقدة في فراشها تحتضر . وللمرة الأولى ، أدرك وانغ لنغ وأبناؤه قيمتها في البيت ، وكيف كانت توفر لهم الراحة جميعاً ، دون أن يدروا . وبدا كأنما لم يكن بينهم جميعا الآن من يعرف كيف يقلب سمكة في القدر دون ان يفتتها او يحرق جانباً منها قبل ان ينضج الجانب الاخر ، ولا كان بينهم من يعرف ما إذا كان زيت السمسم أم زيت الفول هو الأنسب لقلو هذا النوع من الخضر او ذاك . وكان الفتات وفضلات الطعام المتساقطة تظل تحت المائدة ، لا يكنسها أحد ، حتى ينفد صبر وانغ لنغ من رائحتها ، فينادي كلباً من الفناء ليلعقها ، او يصرخ في البنت الصغرى لتجمعها وتلقيها في الخارج .

وكان الصبي الأصغر يقوم بهذا العمل ليسد مكان أمه في خدمة جده الذي كان قد اصبح عاجزاً كالطفل الصغير . ولم يستطع وانغ لنغ أن يحمل

الشيخ يدرك ما الذي حدث فجعل أولان لا تأتي له بالشاي والماء الساخن ولتساعده على الرقاد والنهوض ، فكان الشيخ يستاء لأنه كان يناديها فلا تأتي ، ويلقي بقدح الشاي على الأرض كالطفل الغاضب . وأخيراً ، قاده وانغ لنغ إلى غرفة أولان ، فأراه الفراش الذي كانت ترقد عليه ،وحملق الشيخ خلال الغشاوة المضروبة على عينيه نصف العمياوين ، وأخذ يتمتم ويبكي لأنه رأى ما أوحى اليه بأن هناك بعض السوء .

وكانت البلهاء المسكينة هي الوحيدة التي لم تعرف شيئاً ، وإنما ظلت تبتسم وتلوي قطعة القماش وهي تبتسم . ومع هذا ،كان لا بد من ان يكون هناك من يفكر فيها ، ويقودها إلى حيث تنام في الليل ، ويطعمها ويضعها في الشمس خلال النهار ، ويعيدها إلى البيت إذا أمطرت السماء . كل هذه الأشياء كان لابد من ان يتذكرها واحد منهم ، ولكن الجميع – حتى وانغ لنغ نفسه – نسوها ، فتركوها مرة في الخارج ليلة بطولها ، وفي الصباح التالي ، كانت المسكينة البائسة ترتجف وتبكي في الفجر الباكر .. فغضب وانغ لنغ وسب ابنه وابنته لأنهما نسيا البلهاء المسكينة التي كانت أختهما ! .. ولكنه لم يلبث ان أدرك أنهما ليسا أكثر من طفلين يحاولان ان يحلا محل والدتهما دون ان يستطيعا ، فكف عن سبهما ،وأخذ بعد هذا يعني بالبلهاء المسكينة بنفسه في الليل والصباح وإذا امطرت السماء او هطل الثلج او هبت رياح شديدة ، كان يقودها إلى البيت ويجلسها بين الرماد الدافىء المتساقط من فرن المطبخ

ولم يبد وانغ لنغ أي اهتمام بالأرض خلال اشهر الشتاء المعتمة ، التي كانت « أولان » خلالها تحتضر ، وأحال أعمال الشتاء وشئون العمال إلى رعاية تشينغ، فراح تشينغ يعمل بإخلاص . وكان يأتي في المساء والصباح إلى باب الغرفة التي ترقد أولان فيها ، ويسأل مرتين في اليوم بصوته الهامس عن صحتها . وأخيراً لم يعد وانغ لنغ يطيق ذلك ، لأنه لم يكن يملك – في كل صباح وكل مساء سوى ان يقول : « لقد شربت اليوم قليلاً من حساء دجاجة » ، او « إنها أكلت اليوم

قليلاً من عصيدة الأرز الخفيفة » .

ولهذا أمر تشينغ بأن يكف عن السؤال ، وأن يهتم بإجادة العمل ،ففي هذا الكفاية . واعتاد وانغ لنغ – طيلة الشتاء البارد المعتم –ان يكثر من الجلوس بجوار فراش اولان ، فاذا شعرت بالبرودة اشعل لها الفحم في مدفأة من الفخار يضعها بجانب الفراش لتدفئته . وكانت – في كل مرة يفعل فيهـا ذلك – تتمتم بصوت واهن : « إن هذا تبذير ! » . ولم يعد يحتمل سماع هـذا فانفجر ذات يوم قائلاً عندما قالت ذلك : « إنني لا أحتمل هذا القول ! وإنيلمستعد لأن أبيع كل أرضي إذا كان في هذا شفاؤك » .

فابتسمت لهذا ، وقالت في شهقات هامسة . « لا ، لست أقبل ان.. أدعك تفعل هذا. فلا بد لي من ان اموت.. في يوم من الأيام،بأي حال .ولكن الأرض ستبقى بعدي » .

ولكنه. لم يكن يحب التحدث في امر موتهـا ، فنهض وخرج عندمـا حدثته عنه .

وبرغم هذا ، فقد ذهب ذات يوم إلى المدينة ، وقصد إلى صانـع توابيت – لأنه كان يعرف أنها لابد ميتة وأن عليه واجبا نحوهـا – ففحص كل تابوت جاهز هناك ، واختار واحداً أسوداً متيناً من خشب ثقيل صلب . فقـال له النجار الذي كان يرتقب اختيـاره بخبث : « إذا اشتريت اثنين انخفض السعر بمقدار الثلث . فلم لا تشتري واحداً لنفسك فتطمئن من هذه الناحية ؟ »فأجاب وانغ لنغ « كلا .. يستطيـع أبنائي ان يقوموا عني بهذه المهمة ، ثم لم يلبث ان تذكر والده الشيخ ، وأنه لم يقتن بعد تابوتـاً له . وإذ خطرت له الفكرة ، عاد يقول للنجار : « على ان أبي الطاعن في السن سيموت عمـا قريب ، فقـد اشتد ضعفه ، ووهنت ساقاه ، وأصبح أصم ونصف اعمى . لذلك سآخـذ التابوتين » .

ووعد الرجل بأن يعيد طلاء التابوتين باللون الأسود ، ويرسلها إلى بيت وانغ لنغ .

وقد روى وانغ لنغ ذلك لأولان ، فاغتبطت بما فعله من اجلها ، وبما أعده لها في وفاتها . وهكذا راح يجلس بجوارها ساعات كثيرة في كل يوم .. وكثيراً ما كانت تنسى أين هي ، وأحياناً كانت تهذي بذكريات من طفولتها . وكانت تكرر مراراً : « أبي ! . أمي ! أبي ! أمي ! » وتردد بين الآن والآخر: «اعرف انني قبيحة ولا يمكن ان يحبني احد .. » .

ولما قالت ذلك الكلام ، لم يحتمله وانغ لنغ ، فتناول يدها وراح يربتها وكانت يداً كبيرة جافة ، يابسة ، كأنها ماتت وانتهت . فعجب وتألم في نفسه لا سيما لأن ما قالته كان حقيقياً . بل إنه إذ تناول يدها ، في رغبة صادقة بأن تشعر بحنانه نحوها ، خجل من نفسه لأنه لم يشعر نحوها بحنان يذيب القلب ، كذلك الذي تظفر به لوتس لمجرد ان تزم شفتيها . وعندما تناول هذه اليد اليابسة المتينة ، لم يحبها ، بل حتى شفقته كان يشوبها الامتعاض .

وكانت اولان تفيق احيانا إلى نفسها ، وتتنبه لما حولها . وقد نادت - في إحدى هذه الفترات – كوكو ، وعندما دعا وانغ لنغ المرأة – وهو في دهشة بالغة – رفعت اولان نفسها معتمدة على ذراعها وهي ترتجف ، وقالت بوضوح « من الصحيح انك عشت في الجناح الخاص بالسيد الكبير ، وكنت تعتبرين جميلة ولكني كنت زوجة رجل ، وقد أنجبت له ابناء في حين انك لا تزالين جارية ! » . وعندما همت كوكو بأن ترد مغضبة ، منعها وانغ لنغ وقادها إلى الخارج ، وهو يقول : « إنها لا تدري الآن معنى الكلمات » .

وعندما عاد إلى الغرفة ، كانت أولان لا تزال مسندة رأسها إلى ذراعها فقالت له : « لا أريد ان تأتي هذه المرأة ولا سيدتها إلى غرفتي بعد موتي ولا ان تمسا امتعتي ، فاذا فعلت فسأبعث روحي لتصب اللعنة عليهما ! » . ثم عادت الى

نومها المتقطع وهذيانها ، وسقط رأسها على الوسادة .

على ان صحتها تحسنت فجأة ـ في احد الأيام السابقة على العام الجديد ـ كتوهج لهب الشمعة قبيل انتهائها . وتمالكت قواها كما لم تتمالكها من قبل وجلست في الفراش وعقصت شعرها بنفسها ، وطلبت شايا لتشربه . وعندما جاءها وانغ قالت: « إن العام الجديد قادم ولم تجهز كعكاً ولا لحماً، وقد فكرت في امر .. لن أقبل هذه الجارية في مطبخي ، وإنما أفضل ان ترسل في طلب « كفتي » خطيبة ابني الأكبر ، فاني لم ارها حتى الآن ، ولكن عندما تأتي فسأنبئها بما ينبغي ان تفعل » .

واغتبط وانغ لتحسن صحتها ، وإن لم يكترث للاحتفال بالعيد في هذا العام وأوفد كوكو لترجو « ليو » ـ تاجر الغلال ـ في ذلك الأمر نظراً لهذه الحال المحزنة . وبعد هنيهة قبل التاجر ، إذ قيل له ان أولان قد لا تعيش إلى نهاية الشتاء . ثم ان ابنته كانت قد بلغت السادسة عشرة وكانت اكبر سناً من بعض الفتيات اللائي يذهبن الى بيوت ازواجهن .

على انه لم تقم أية احتفالات بسبب مرض اولان . ووصلت الفتاة على محفة في هدوء لم يصحبها سوى امها وخادم متقدمة في السن . وعادت الأم بعد ان سلمت الفتاة الى اولان . ولكن الخادم بقيت لمساعدة الفتاة . ونقل الأطفال من الغرفة التي كانوا ينامون فيها ، وخصصت هذه الغرفة لزوجة الابن الجديدة وأعد كل شيء كما ينبغي ان يعد . ولم يتكلم وانغ لنغ مع الفتاة ، إذ لم يكن هذا من اللائق ، وإنما كان يومىء اليها برأسه في وقار كلما انحنت له وقد سر منها لأنها كانت تعرف واجبها . وكانت تتنقل في البيت بهدوء وعيناها مسبلتان وفوق ذلك فانها كانت فتاة طيبة على قدر من الجمال ، وإن لم تكن ذات جمال مفرط يجعلها تغتر به .

وكانت دقيقة وصحيحة في كل مسلك تسلكه .. وقد اعتادت ان تذهب الى غرفة اولان لتعنى بها ، مما خفف عن وانغ لنغ ألمه على زوجته ، اذ

اصبحت هناك امرأة الى جوار فراشها . وقد ارتاحت نفس اولان لذلك كثيراً ..

وظلت اولان راضية ثلاثة ايام او اكثر ، ثم خطر لها خاطر آخر ..فقالت لوانغ لنغ عندما جاءها في الصباح ليرى كيف قضت ليلتها : « هناك شيء آخر قبل ان اموت » . فرد على ذلك مغضباً : « لا يمكن ان يكون حديثك عن الموت مبعث سرور لي » فابتسمت ابتسامتها البطيئة التي تنتهي قبل ان تصل الى عينيها .. وأجابت : « لابد من الموت .. فاني اشعر به متربصاً بأحشائي ، ولكن لن أموت قبل ان يعود ابني الأكبر ، ويزف إلى هذه الفتاة الطيبة التي اصبحت ابنة لي ، والتي تخدمني خير خدمة ، فتمسك لي إناء الماء الساخن في ثبات ، وتعرف متى تغسل لي وجهي عندما يتندى بالعرق من الألم . إنني أريد ان يعود ابني الى البيت لأني سأموت ، وأريده ان يبني بهذه الفتاة اولاً ، حتى اموت مرتاحة البال ، مطمئنة إلى ان حفيدك قد بدأ يتكون ويحيا ، وأنه سيكون للشيخ المسن ابن حفيد ! » .

وكانت هذه الكلمات أكثر مما ذكرت في أي يوم من الأيام ، حتى في صحتها، وقد نطقت بها في ثبات لم تتكلم به منذ اشهر طويلة ، فاغتبط وانغ لنغ لقوة صوتها ، وللحرارة التي ابدت بها رغبتها هذه . ولم يشأ ان يعارضها ، وإن كان قد تمنى أن ينفسح له مزيد من الوقت ليقيم حفلة قران عظيمة لابنه الأكبر . على أنه اكتفى بأن قال لها في تحمس : « ليكن ما تقولين ، سنفعل هذا ، وسأوفد اليوم رجلا الى الجنوب ليسعى الى ابني فيعود به الى البيت ليتزوج . وعليك ان تعديني بأن تستجمعي قواك من جديد ، وان تقصي عنك الموت وتتماثلي للشفاء ، لأن البيت بدونك اشبه بكهف للوحوش » . قال هذا ليبعث السرور الى نفسها، وقد اغتبطت فعلا ، وإن لم تعاود الحديث ، وإنما رقت واغلقت عينيها ، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة .

وأوفد وانغ لنغ الرسول وقال له : « قل لسيدك الصغير أن أمه مشرفة على

الموت ، وإن روحها لن تستريح حتى تراه وتشاهد عقد قرانه ، فاذا كان لي ولأمه ولأمرته قيمة لديه ، فليبادر بالعودة قبل أن تطرف عيناه ، لأنني سأعد بعد ثلاثة أيام من الآن وليمة ، وسأدعو الضيوف ، وسيزف الى عروسه » .

ونفذ وانغ لنغ قوله ، فأمر كوكو بإعداد وليمة كبيرة ، ثم ذهب الى القرية ودعا الى ضيافته كل من كان يعرف من الرجال والنساء . وقال لعمه : « ادع من تريد لعرس ابني سواء من اصدقائك أو اصدقاء ابنك » . قال هذا لأنه كان يتذكر على الدوام حقيقة عمه ، فكان يجامله ويعامله كضيف مكرم .. وقد حرص على ذلك منذ عرف عمه على حقيقته .

وفي الليلة السابقة للزفاف ، عاد ابن وانغ لنغ الأكبر ، ودخل الغرفة بخطى واسعة ، فنسي وانغ لنغ جميع المتاعب التي سببها له عندما كان يقيم في البيت . إذ كانت قد انقضت سنتان أو أكثر منذ رأى ابنه هذا ، فإذا به يراه الآن وقد شب عن مرحلة الصبا ، واصبح رجلاً فارع الطول ، وسيم المحيا ، عريض المنكبين متين البنيان ، ذا خدين متوردين عاليي العظام ، وشعر اسود قصير ، لامع ومضمخ بالزيت . وكان يرتدي عباءة طويلة من الحرير الأحمر القاني ، الذي يباع في متاجر الجنوب ، وسترة قصيرة — دون كمين — من المخمل الأسود . فكاد قلب وانغ لنغ ينفجر زهواً لرؤية ابنه . ونسي كل شيء الا مظهر هذا الابن الوسيم ، فقاده الى والدته .

وجلس الشاب بجوار فراش امه ، وترقرقت الدموع في مقلتيه إذ رآها على هذه الحال ، ولكنه لم يقل شيئاً سوى عبارات مشجعة ، مثل : « إنك تبدين أحسن مما قيل لي بكثير ، وعلى مبعدة أعوام طويلة من الموت » . ولكن أولان قالت ببساطة : « سأشهد زفافك ثم أموت » .

ولم يكن من الجائز — طبعاً — أن يرى الشاب الفتاة التي كان موشكاً أن يزف اليها ، ولهذا أخذتها لوتس الى جناحها الداخلي لتعدها للزفاف ، وما كان ثمة من يستطيع أن يفعل هذا خيراً من لوتس وكوكو وزوجته عم وانغ لنغ

فأخذت النسوةالثلاث الفتاة في صبيحة يوم الزفاف، فغسلن جسمها ، ونظفنه من رأسها الى أخمص قدمها ، وربطن قدميها من جديد بأقمشة بيضاء نظيفة ، تحت جوربيها الجديدين . ودلكت لوتس جسمها بزيت لوز معطر من عندها ثم ألبسنها ثياباً كانت قد اجتلبتها من بيتها : ثوباً أبيض — من الحرير الموشى بالأزهار — على لحمها العذري الجميل . ثم سترة من انعم واجود انواع صوف الخراف. ثم ثوب الزفاف المصنوع من الساتان الأحمر. ومسحن جبينها بالجير ، ثم نزعن بخيط ربط بمهارة شعر عذريتها عند حواف حاجبيها ، فجعلن جبينها عريضاً وناعماً وواسعاً ، ليلائم وضعها الجديد . ثم طلين وجهها بمسحوق أبيض وطـــلاء احمر ، ورسمن — بفرشاة — حاجبيها في خطين رفيعين طويلين ، ووضعن على رأسها تاج العرس ، وخماراً مزركشاً بالخرز ، ووضعن قدميها الصغيرتين في حذاءين مطرزين وصبغن أطراف أصابعها وعطرن كفيها . وهكذا أعددنها للزفاف ، وانصاعت لهن الفتاة في كل هذا ، وإن أبدت من التردد والحياء ما يليق بها ويصح لها أن تبدي .

وكان وانغ لنغ وعمه ووالده والضيوف ينتظرون في الغرفة الوسطى ، فأقبلت الفتاة تحف بها جاريتها الخاصة ، وزوجة عم وانغ لنغ . وتقدمت في تواضع وخفر وقد نكست رأسها ، وسارت وكأنها غير راغبة في أن تزف الى رجل ، ولا بد من أن تعان على القدوم اليه وظهر من هذا تواضعها .. فاغتبط وانغ لنغ . وقال لنفسه إنها فتاة صالحة .

وجاء الابن الاكبر لوانغ لنغ — بعد ذلك — وهو في الثياب التي كانت عليه : معطفه الأحمر .. وسترته السوداء .. وقد صفف شعره وحلق لحيته .. وجاء وراءه أخواه . وإذ شاهدهم وانغ لنغ . كاد ينفجر ازدهاء بهذا الموكب الذي ضم أولاده الذين كان مقدراً لهم أن يتابعوا حياة جسمه بعد وفاته .

وراح وانغ لنغ — طيلة هذا الوقت — يختلس النظر الى ابنه في إمعان ليرى ما إذا كان ينظر الى عروسه . وكان الشاب يختلس النظر اليها فعلاً من طرف عينيه . ولكن هذه النظرات كانت كافية له . إذ ازداد سروراً ومرحاً بطريقته

الخاصة . فقال وانغ لنغ لنفسه بافتخار : « هأنذا قد اخترت له فتاة أعجبته » .

وما لبث الشاب والفتاة أن انحنيا معاً للشيخ ولوانغ لنغ ، ثم ذهبا إلى الغرفة الداخلية التي ترقد فيها أولان ، وكانت قد طلبت أن يلبسوها ثوبها الأسود الجيد وعندما دخل الشابان الغرفة جلست في فراشها . وقد توهجت على وجهها بقعتان محمرتان، كان وانغ لنغ قد ظنهما – عن خطأ – دليل الصحة، فصاح بصوت مرتفع : « إنها آخذة في التحسن » .

وتقدم العروسان وانحنيا لها ، فربتت الفراش وقالت : « اجلسا هنا ، واشربا النبيذ ، وتناولا أرز عرسكما ، حتى أشهد كل هذا . وسيكون هذا فراش عرسكما ، لأنني لن ألبث أن أفارقه ، وأن أنقل منه » .

ولم يرد أحد على كلامها هذا ، وإنما جلس الاثنان متجاورين ، وكل منهما صامت وعلى استحياء من الآخر . ودخلت زوجة عم وانغ لنغ ، وقد ازدادت بدانة وأبهة بالمناسبة . وكانت تحمل قدحين من النبيذ الساخن ، فشرب كل منهما جرعة على حدة ، ثم مزجا نبيذ القدحين وشربا ثانية ، فكان في هذا رمز على أن الاثنين أصبحا واحداً . وأكل كل منهما من الأرز ، ثم خلطا الأرز وأكلاه فرمزا بهذا الى أن حياتهما أصبحت واحدة . وبهذا اقترنا ، ثم انحنيا مرة أخرى لأولان ولوانغ لنغ ، وخرجا بعد ذلك الى الضيوف فانحنيا معاً لهم .

وكانت أولان قد طلبت أن تفتح كل الأبواب ، وتزاح كل الستائر ، ليتسنى لها سماع الضجة والضحك ، ولكي تشم رائحة الطعام . وظلت تقول وتردد لوانغ لنغ ، الذي كان يكثر من الذهاب إليها ليطمئن عليها : « هل أخذ كل ضيف نبيذاً ؟ .. وهل طبق الأرز الحلو – الذي يتوسط المائدة – ساخن جداً ؟ .. وهل وضعوا فيه الكفاية من الدهن والسكر وثمار الفاكهة الثمانية ؟ » .

وعندما كان يطمئنها إلى أن كل شيء يسير وفق مشيئتها ، كانت تغتبط

وترقد مرهفة سمعها . وانتهى الحفل ، وانصرف الضيوف ، وأرخى الليل سدوله ومع سيطرة السكون على البيت،وانحسار المرح ، أخذت أولان تفيض، واشتد بها الضعف والإعياء ، دعت إليها الاثنين اللذين تم زواجهما في ذلك اليوم ، فقالت لهما : « إنني الآن راضية قريرة العين ، فليفعل بي الداء الذي في جوفي ما يشاء . ألا اعتن يا بني بوالدك وجدك ..وأنت يا إبنتي ، اعتني بزوجك ووالد زوجك وجده ، والبلهاء المسكينة التي في الفناء . وستجدينـا هناك وليس عليك واجب نحو أي أمرىء آخر » .

كانت تعني بعبارتها الأخيرة « لوتس » ، التي لم تخاطبها مرة على الإطلاق ثم بدا أنها راحت في سبات عميق ، وإن ظلا ينتظران أن تستأنف الحديث . وما لبثت أن تحاملت مرة أخرى لتتكلم ، على أنها عندما تكلمت بدت كما لو لم تكن تدرك أنهما موجودان ، ولا حتى أين كانت . إذ أنها قالت في غمغمة ،وهي تدير رأسها إلى هذه الناحية وتلك ، وعيناها مغلقتان : إنني وإن كنت قبيحة الشكل فقد أنجبت ولداً .. ومع أنني لست سوى جارية ، فإن في بيتي ابناً » . ثم عادت تقول فجأة : « كيف تستطيع تلك المرأة أن تطعمه وأن تعنى به كما كنت أفعل ؟ .. إن الجمال لا ينجب أطفالاً للرجل ! »

ونسيتهم جميعاً ، ورقدت تتمتم . وإذ ذاك أومأ لهم ونغ لنغ بالانصراف . وجلس بجوارها وهي تنام وتصحو ، وقد أخذ ينظر إليها ، ومقت نفسه لأنه لم يتمالك حتى وهي راقدة على فراش الموت — أن يلاحظ مدى اتساع وبشاعة شفتيها القرمزيتين في انفراجهما عن أسنانها . وما لبثت ان فتحت عينيها — وهو ينظر إليها — فبدا كأن سحابة غريبة تخيم عليهما ، إذ أنهـا راحت تحملق فيه وتنعم النظر ، وهي في حيرة ، وقد ثبتت عينيها عليه ، وكأنها كانت تساءل نفسها عمن يكون . وفجأة ، سقط رأسهـا عن الوسادة المستديرة التي كانت مستندة إليها وارتجفت .. وماتت .

* * *

وما إن ماتت أولان ، حتى بـدا لوانغ لنغ أنه لا يستطيع احتمال البقـاء بجوارها ، فنادى زوجة عمه لتغسل الجثة استعداداً لدفنهـا . ولكنه – لكي يسري عن نفسه – شغل بالذهاب إلى المدينة ، واستدعاء من يختمون التابوت وفقاً للعرف ، كما ذهب إلى عراف لتحديد يوم ملائم لإتمام الدفن .

وحرص وانغ لنغ – بعد ذلك – على أن يعمل كل ما يجب عمـله للميتة ، ففرض الحداد على نفسه وأطفـاله ، وصنعت أحذيتهم من قماش خشن أبيض – وهو لون الحـداد – وربطت حول كعوبهم منطقات من القماش الأبيض ، وربطت نساء البيت شعورهن بأشرطة بيضاء .

ولم يعد وانغ لنغ يطيق – بعد هذا – أن ينام في الغرفة التي ماتت فيهـا أولان ، فأخذ امتعته وانتقل كلية إلى الجناح الداخلي ، حيث كانت لوتس تقيم ، وقال لابنه الأكبر : « انتقل وزوجتك إلى تلك الغرفة التي عاشت فيها وماتت أمك التي حملتك وانجبتك .. فانجب فيها أولادك أنت » .

وانتقل الاثنان إلى الغرفة ، وهما راضيان . وكأنما الموت لا يبرح بسهولة البيت الذي زاره مرة ، فإن الشيخ – والد وانغ لنغ – الذي ذهب بلبه الحزن مذ رآهم يغيبون جسد أولان الميت المتيبس في التابوت ، رقد على فراشه – ذات ليلة – للنوم ، فلما ذهبت إليه الابنة الثانية – في الصباح – لتقدم له الشاي ، إذ به راقد في فراشه ، ورأسه إلى الوراء ، وقد فارقته الحياة . فصرخت مما رأت ، وهرعت باكية إلى والدها ، فأقبل وانغ لنغ إلى الغرفة ، ووجد الشيخ في تلك الحال ، وجسده الخفيف الناحل المكتهل متيبسـاً وبارداً ورفيعاً كأنه شجرة صنوبر جفت ، إذ كان قد مات قبل ساعات ، وربما بمجرد أن رقد في الفراش . وإذ ذاك غسل جسد الشيخ بنفسه ، وارقده برفق في التابوت الذي اشتراه له ، واتخذ التدابير لختمه ، وقال : « سندفن هذين الميتين في بيتنا في يوم واحد ، وسوف أفرد قطعة جيدة من ارضي التي على التل وسندفنهما هنـاك معاً .. وعندما أموت سأدفن انا الاخر هناك .. »

ونفذ ما قال . فلما ختم تابوت الشيخ، وضعه على أريكتين في الغرفة الوسطى فظل هناك إلى أن حان اليوم الموعود . وخيل لوانغ لنغ أن في وجود الشيخ هناك راحة له ، حتى في موته . وشعر بـأنه قريب من والده حتى وهو في التابوت إذ انه حزن عليه ، ولكن ليس حزناً متناهياً لأن أباه كان قد شاخ وبلغ من السن عتياً ، وقد ظل اعواماً طويلة نصباً حياً .

وكان وانغ لنغ قد اختار مكاناً مناسباً في حقوله – تحت نخلة على تل – لإعداد القبر ، واشرف تشينج على حفر القبرين وإعدادهما ، وعلى إقامة سور من الطين حولهما .

وكان ثمة متسع – داخل نطاق السور – لجسد وانغ لنغ ، ولأجساد أبنائه وزوجاتهم وكان ثمة فراغ لأبنائه كذلك . ولم يبخل وانغ لنغ بهـذه الأرض ، برغم أنها ارض غالية صالحة لزراعة القمح ، لأنها كانت رمزاً لاستقرار اسرته على ارضها . فهم خليقون بأن يمكثوا على ارضها أحياء كانوا أو امواتاً .

فلما كان اليوم المحدد ، ارتدى وانـغ لنغ ثوب المسوح البيضاء ، الخشنة ، وأعطى ثوباً مثله لكل من عمه وابن عمه والبنية ولزوجة ابنه ولابنتيه . واستجلب من المدينة محفات لتحملهم جميعاً ، إذ لم يكن من اللائق أن يسيروا على الأقدام إلى مكان الدفن ، كأنه فقير من عامة الناس . وهكذا حمل للمرة الأولى على أكتاف الرجال ، وراء التابوت الذي ضم أولان . اما وراء تابوت أبيه ، فقد كانت محفة عمه هي التي تقدمت سواها .. حتى لوتس التي لم تكن تظهر امام أولان خلال حياتها ، جاءت الان بعد وفاتها محمولة على محفة ، لكي تظهر امام الاخرين بأنها تؤدي واجبها نحو الزوجة الأولى لزوجها ، كما استأجر وانغ لنغ محفتين اخريين لزوجة عمه وابن عمه ، واعطى الجميع اثواباً من المسوح الخشنة ، وحتى البلهاء المسكينة أعد لها ثوباً ، واستأجر لها محفة وضعها فيها ، وإن كانت قد بدت مرتبكة إلى اقصى حد ، وظلت تضحك في الوقت الذي لم يكن يجوز فيه غير البكاء .

ثم مضوا – وهم يبكون وينتحبون بأصوات عالية – إلى القبرين . وتبعهم العمال وتشينج سائرين على الأقدام منتعلين احذية بيضاء .. ووقف وانغ لنغ بجوار القبرين . وكان قد استحضر تابوت أولان من المعبد ، فوضعه على الأرض ريثما يتم دفن الشيخ أولا .ووقف وانغ لنغ ، وراح يراقب . وكان حزنه شديداً وجافاً فقد أبى ان يبكي بصوت عال كالآخرين ، إذ لم تكن في عينيه دموع . وبدا له ان ما حدث قد حدث ، ولم يعد هناك ما يمكن عمله اكثر مما عمل .

وعندما اهيل التراب ، وسويت الأرض على القبرين ، تحول في صمت وصرف محفته ، وسار إلى البيت وحيداً . وقال لنفسه : « هنا في هذه الأرض التي أمتلكها ، قد دفن النصف الأول الطيب من حياتي .. إنني أشعر كأنما نصف مني قد دفن هنا .. وستصبح الحياة الآن في بيتي مختلفة » .

وفجأة بكى قليلا ، وجفف عينيه بظهر كفه ، كما يفعل أي طفل .

* * *

وكان وانغ لنغ – خلال هذه الفترة كلها – لا يكاد يفكر في محصولاته . فقد شغل كل الانشغال بولائم الزفاف ومراسيم الجنازتين .

ولكن تشينغ جاءه يوماً ، وقال ، « اما وقد انقضى الفرح والحزن الآن ، فإني أود ان أحدثك عن الأرض » . فأجاب وانغ لنغ : « هات ما عندك إذن فإني لم أكد أفكر – في هذه الأيام – فيما اذا كنت أملك أرضاً أم لا ، وإنما كان تفكيري مقتصراً على دفن موتاي » .

وتريث تشينغ بضع دقائق صامتاً ، احتراماً لوانغ لنغ إذ قال ذلك ، ثم قال في رفق : « يبدو انه سيكون ثمة فيضان في هذا العام لم يسبق له نظير .. نسأل الله أن يجنبنا إياه .. فقد أخذ الماء يفيض على الأرض ، على الرغم من أن الصيف

لم يحل بعد .. ولا يزال الوقت مبكراً جداً لأن يرتفع الماء حتى هـــذا الحد ولكن وانغ لنغ رد في غلظة : « ما حصلت قط على اي خير حتى الآن من ذلك العجوز المقيم في السماء .. فسواء أحرقت له البخور أو لم أحرق فهو على مسا هو عليه من الشر . هيا بنا لنر الأرض ! » ونهض وهو يتحدث .

وكان تشينغ خوافاً جباناً ، ومهما جاءت الأيام بالسوء فإنه لم يكن ليجرؤ على أن يجدف بحق السماء كما فعل وانغ لنغ .. فلم يكن يقول سوى : « هـذه مشيئة السماء ! » . وكان يتقبل الفيضان والجدب في خضوع تام . ولكن وانغ لنغ لم يكن كذلك . وقد خرج الى ارضه .. وتنقل بين هذه القطعة وتلك فرأى ان الأمر كما قال تشينغ .. فان جميع المساحات المجاورة للخندق.. الواقعة على امتداد القنوات المائية – والتي كان قـــد اشتراها من السيد الكبير لبيت هوانغ – كانت مبتلة ولزجة التربة من جراء الماء الذي كان ينضح من باطنها . ومن ثم فقد ذوي القمح الطيب على تلك الأرض واصفر لونه .

وكان الخندق ذاته أشبه بالبحيرة .. والقنوات اصبحت أنهاراً سريعة تتلوى في تيارات ودوامات حتى ان أي امرىء – ولو كان غبياً – كان بوسعه أن يرى ان مثل هذه الحال .. ولما تسقط بعد أمطار الصيف .. قمينة بأن تجعل فيضان هذا العام جارفاً .. وان الرجال والنساء والأطفال سوف يمالون الجوع من جديد واخذ وانغ لنغ يعدو هنا وهناك – على أرضه – وتشينغ يتبعه صامتاً كظله . وقدرا معاً أية أرض يمكن زرعها أرزاً . . وأية أرض ستغرقها المياه قبل أن ينبت فيها الأرز الصغير . وإذ رأى وانغ لنغ القنوات وقد امتلأت بالماء حتى حافة جسورها .. أخذ يسب ويلعن . وقال : « الآن سيغتبط ذاك العجوز الذي في السماء .. فسوف يطل على هذه الأرض ويرى الناس تغرق وتجوع .. وهذا هو ما يحبه ذاك الملعون ! » : قال هذا بصوت مرتفع غاضب .. فارتعش تشينغ وقال : « إنه – حتى ولو صح هذا – أعظم من اي امرىء منا .. فلا تتحدث هكذا .. يا سيدي » .

ولكن وانغ لنغ لم يكن يبالي بشيء إذ كان غنياً . فغضب على هواه .. واخذ يتمتم وهو يسير عائداً الى البيت .. ويفكر في المياه التي كانت تطغى على أرضه وعلى محاصيله الطيبة . ثم تطورت الأحداث تماماً كما تنبأ وانغ لنغ.. فإن النهر الشمالي جرف جسوره .. مبتدئاً بالجسور القصوى . ولما رأى الناس ما حدث راحوا يهرعون من مكان إلى آخر ليجمعوا الأموال لإصلاحها . وجاد كل امرىء على قدر طاقته .. اذ كان في صالح الجميع ان يبقى النهر في نطاق مجراه ثم عهدوا بالأموال الى قاضي المنطقة، وكان جديداً وقد وصل لتوه. وتصادف ان كان هذا القاضي فقيراً .. ولم يسبق ان رأى مثل هذا القدر من المال طيلة عمره إذا كان قد رقي اخيراً الى منصبه بفضل سخاء والده .. الذي قدم كل ما كان يملك – وما كان بوسعه ان يقترض من مال – ليشتري لابنه هذا المنصب، حتى تحصل الأسرة عن طريقه على شيء من الثروة .

وعندما فاضت مياه النهر مرة أخرى .. ذهب الناس في ضجة كبيرة الى دار هذا القاضي . لأنه لم يكن قد وفي بعهده وأصلح الجسور فأسرع الى الاختباء .. إذ انه كان قد انفق أموالهم في بيته .. وكانت ثلاثة آلاف قطعة من الفضة . واقتحم العامة داره وهم يصيحون ويطالبون بحياته جزاء ما فعل . وعندما رأى انه سوف يقتل .. جرى وقفز الى الماء واغرق نفسه وهكذا هدأت ثائرة القوم .

وأخذت القرى تتحول الواحدة تلو الأخرى الى جزر، وأخذ الناس يرقبون المياه وهي ترتفع . وعندما أصبحت على نحو قدمين من أبوابهم ، ربطوا موائدهم واسرتهم معاً ، ووضعوا ابواب بيوتهم فوقها ، لتكون كسطحات عائمة « صنادل » . وأخذوا يكدسون ما استطاعوا من أمتعة فراشهم وملابسهم ونسائهم وأطفالهم على هذه العائمات ، وارتفعت المياه إلى البيوت المشيدة من الطين فابتلت جدرانها وتصدعت .. ثم ذابت في الماء ، وأصبحت كأن لم تقم لها قط يوماً قائمة . وكأنما اجتذب الماء الذي على الأرض ماء من السماء، فأمطرت،

وراحت تمطر بشدة يوماً بعد يوم ، وكأن الأرض جافة لا تجد كفايتها من الماء .

وجلس وانغ لنغ أمام باب بيته ، واخذ ينظر الى المياه التي كانت بعيدة عن بيته ، إذ كان مشيداً على تل عال متسع، ولكنه رأى الماء يغطي أرضه ،فأخذ يراقبه لئلا يغرق القبرين الجديدين . ولكنه لم يصبهما بضرر ، وإن راحت أمواج الماء الأصفر المحملة بالغرين تتطاول نحو الموتى في نهم .

ولم تكن ثمة محصولات من أي نوع في ذلك العام ، فتضور الناس جوعاً في كل مكان واستبد بهم الجوع والغضب لما حاق بهم من جديد .

ورأى وانغ لنغ أن هذه المجاعة لم يشهد لها نظير تجتاح البلاد ، إذ أن المياه لم تنحسر عن الأرض في وقت مناسب يسمح بزراعة القمح للشتاء، ولهذا فلم يكن من المنتظر جنى أي محصول في العام التالي . ففرض عناية شديدة على شئون بيته وعلى صرف الأموال والأطعمة . وراح يتشاجر في حرارة مع كوكو ، لأنها ظلت وقتاً طويلاً تشتري كل يوم من المدينة . ثم اغتبط أخيراً لأنه أدرك أنه ما دام الفيضان مستمراً ، فسوف تزحف المياه وتفصل بيته عن المدينة ، فلا تستطيع كوكو - بعد ذلك - الذهاب الى السوق حينما تشاء ، إذ أنه كفيل بأن لا يسمح بإنزال القوارب إلا بإذن منه .

ولم يسمح وانغ لنغ بشراء او بيع شيء - بعد حلول الشتاء - إلا بإذنه . وحرص في عناية على كل ما كان لديهم . فكان - في كل يوم - يعطي زوجة ابنه ما يلزم البيت من طعام في ذلك اليوم ، ولتشينغ ما يجب ان يحصل عليه عماله ، وإن آلمه ان يطعم رجالا متعطلين مثلهم . وكان ألمه عظيما ، حتى انه حينما حل الشتاء القارس ، وتجمدت المياه ، أمر الرجال بالذهاب الى الجنوب ليستجدوا أو يعملوا، حتى يحل الربيع فيعودوا اليه وكانت لوتس هي الوحيدة التي ظل يعطيها السكر والزيت خفية ، لأنها لم تألف حياة الشظف . . وحتى عندما حان عيد رأس السنة ، لم يأكلوا سوى سمكة اصطادوها بأنفسهم من البحيرة ، وخنزيراً قتلوه من المزرعة .

ولم يكن وانغ لنغ فقيراً إلى الحد الذي ود ان يتظاهر به ، فقد كان يخبىء قدراً طيباً من الفضة في جدران الغرفة التي كان ابنه وزوجته ينامان فيهـا – وإن لم يعرف ابنه وزوجة ابنه ذلك – كما وضع قدراً آخر من الفضة ، بل وبعض الذهب ، في جرة في قاع البحيرة ، تحت أقرب حقوله . وخبأ قدراً آخر بـين جذور شجر الخيزران . وكان لديه غلال من العام السابق لم يبعها في السوق ، فلم يكن ثمة خطر من أن يموت أحد في داره جوعاً .

على أن الناس كانت تموت جوعـاً في كل مكان حوله ، فتذكر صرخات الجائعين امام بوابة البيت الكبير عندما مر بهـا يوماً ، وأدرك ان الكثيرين يكرهونه أشد الكراهية ، لأنه ظل يمتلك ما يأكله ويطعم به أطفاله . ولهذا ظل يحكم رتاج ابواب بيته ، ولم يكن يسمح لأحد لا يعرفه باجتيازها . ومع ذلك ، فقد كان يعلم تماماً ان هذا ما كان لينقذه من اللصوص والخارجين عـلى القانون في ذلك الوقت لولا وجود عمه .. كان يدرك تماماً انه لولا سطوة عمه لنهب اللصوص بيته وطردوه منه ، سعياً وراء طعامه وماله ومن كن في داره من نساء . ولهذا أحسن معاملة عمه وزوجته وابنه ، واعتبرهم ضيوفاً في بيته ، فكانوا يشربون الشاي قبل الاخرين ، ويغمسون عيدانهم في الأواني – في أثناء وجبات الطعام – قبل سواهم . ولقد أدرك هؤلاء الثلاثة ان وانغ لنغ كان يخشاهم ، فتعالوا عليه ، واخذوا يطلبون هذا الشيء وذاك ، ويشتكون مما كانوا يأكلون ويشربون وكانت المرأة احرصهم على الشكوى ، لأنها افتقدت الأطعمة الفاخرة التي كانت تأكلهـا في الجناح الداخلي ، فاشتكت لزوجها ، واشتكى ثلاثتهم لوانغ لنغ .

وتبين وانغ لنغ ان عمه وإن كان قد كبر في السن واصبح كسولاً مهمـلا ، ولا يهمه ان يشكو لو انه ترك وحده .. إلا ان ابنـه الشاب وزوجته كانا يحرضانه . وقد سمع هذين الاثنين يحرضان الشيخ يوماً .. وهو واقف لدى الباب : « حسناً ، إن لديه مالا وطعاما .. فلنطلب منه شيئاً من الفضة ! » .

وقالت المرأة : « لن تسنح لنا مرة اخرى فرصة للسيطرة عليه كهذه ، فهو يدرك تماماً انك لو لم تكن عمه وشقيق ابيه لكان قد سرق وطرد وصار بيته خاوياً مهدماً، لأنك تأتي في المركز الثاني بعد رئيس عصابة ذوي اللحي الحمراء».

واشتد غضب وانغ لنغ وهو واقف يسترق السمع . وإذ سمع هذا الحديث استبد به الغضب حتى كاد ينفجر غيظاً ، إلا انه التزم الصمت بمجهود شاق . وحاول التفكير فيا يمكن ان يصنعه بهؤلاء الثلاثة ، بيد انه لم يهتد إلى شيء يمكن عمله . لذلك جاءه عمه في اليوم التالي قائـلا : « اعطني يا بن اخي الطيب قبضة من الفضة لأشتري غليونا وبعض الطباق ، كما ان امرأتي اصبحت مهلهلة الثياب وتحتاج الى ثوب جديد » ، لم يقو وانغ لنغ على ان يقول شيئاً . وانما ناول الشيخ خمس قطع من الفضة ، اخرجها من حزامه ، وان راح يصر عـلى اسنانه خفية .. وقد خيل اليه انه لم يحدث قط في الأيام السابقة – عندما كان ما يملكه من الفضة قليلا ، ان انفقها كارهاً بهذه الدرجة .

وهكذا بات هؤلاء الثلاثة يأكلون اللحم بينما حرم اهل البيت منه . وراح العم يدخن التبغ في غير انقطاع ، في حين ان وانغ لنغ لم يكن يتذوقه إلا نادراً .

وكان الابن الأكبر لوانغ لنغ قد شغل بزواجه .. إلى حد اصبح معـه لا يكاد يرى ما يحدث . فلم يكن له من هم سوى ان يحمي عروسه من نظرات ابن عم أبيه ، فلم يعد الاثنان صديقين ، بل اصبحا عدوين .ونادراً ما كان ابن وانغ لنغ يدع عروسه تخرج من الغرفة اللهم إلا في المساء .. عندما كان الاخر يخرج مع أبيه . اما في النهار .. فـكان يحبسها في الغرفة . ولكنه عندما رأى هؤلاء الثلاثة يحركون اباه وفق هواهم ، غضب .. إذ كان حد الطباع ، وقال لأبيه : « إذ كنت تعني بهؤلاء النمور الثلاثة أكثر مما تعنى بابنك وزوجتـه وأحفادك فإن هذا لأمر غريب ، وخليق بنا ان نقيم بيتنا في مكان آخر ! » .

وعندما صارحه وانغ لنغ بما لم يصارح به احداً ، فقال : « إني أكره هؤلاء

كأسوأ ما أكره في حياتي .. ولو استطعت ان أفكر في وسيلة ما لما توانيت عن اتخاذهـــا ، ولكن عمك زعيم سرب من اللصوص المتوحشين .. فإذا اطعمته ولاطفته كنا في امان .. ولا يملك احد منا ان يظهر لهم الغضب » .

وعندما سمع الأبن الأكبر كلام ابيه .ظل يحملق بعينيه حتى كادتا تخرجان من محجريهما . ولكنه حينا فكر فيه برهـــة اشتد غضبه عـن ذي قبل ، وقال : « ما رأيك في هـــذه الوسيلة ؟ .. دعنا نقذف بهم إلى الماء في إحـدى الليالي..

ولكن وانغ لنغ كان يأبى القتل . فقال : « لا .. وحق إذا استطعت ان أفعل ذلك ، فإني آبى ان أدفع شقيق أبي إلى الماء ، لأن اللصوص الآخرين إذا سمعوا بذلك ، فماذا تراهم فاعلين ؟.. ثم إننا في أمان ما عاش ، اما إذا ذهب فاننا نصبح كثيرنا ممن يملكون بعض متاع الدنيا ، ومن ثم نصبح في خطر ، في وقت كهذا » .

ثم أخلد الاثنان إلى الصمت ، وراح كل منهما يفكر جاداً فيا ينبغي عمله . وتحدث وانغ لنغ أخيراً ، بصوت مرتفع فقال : « ليته كانت هنـــاك طريقة نستبقيهم بها هنا ، على ان نقلم أظفار الشر عنهم ، وتقلل من رغباتهـم . ولكن أنى لنا بطريقة سحرية كهذه ؟ » .

إذ ذاك صفق الشاب بكفيه ، وصاح : « لقد أنبأتني وأيم الحق بمـا ينبغي فعله ؟.. لنبتع لهم أفيوناً يستمتعون بـه ، ولنعطهم المزيـــد من الأفيون ، وننلهم ما يشاءون منه كالأغنياء !. وسأتظاهر بالصداقة لابن عمي من جديد ، وسأغريه على الذهاب إلى مشرب الشاي في المدينة ، حيث يستطيع ان يدخن الأفيون ، وحيث نستطيع ان نشتريه لعمي وزوجته » . ولكن وانغ لنغ بدا متريباً لأنه لم يكن صاحب الاقتراح .

ولعل هذه الفكرة لم تكن ستوضع موضـع التنفيذ ، وكان من المحتمل ان

يظلوا على ما كانوا عليه إلى ان تنحسر المياه ، لولا ان حدثاً ما وقع .. وكان ذلك الحدث ان ابن عم وانغ لنغ وضع عيناه على الابنة الثانية لوانغ لنغ ، التي كانت ابنة ابن عمه ، وكانت كأخته بحكم قرابة الدم .

وأمسك بها ان ابن عمها ذات ليلة ، وهي تمر وحيـــدة في الفناء المفضي من المطبخ ، امسك بهـــا في خشونة ، ودس يده في صدرها ، فصرخت . وهرع وانغ لنغ فضرب الرجل على ام رأسه ، ولكن هذا كان كالكلب الذي أمسك بقطعة لحم مسروقة ويأبى ان يفلتها من فمه ، ومن ثم اضطر وانغ لنـغ إلى ان ينازع ابنته منه . وإذ ذاك ضحك الشاب في غلظة وقال : « ما هـــذا سوى لعب ، او ليست أختي ؟. وهل في وسع الرجل ان يلحق أذى بأخته ؟ »

وروى وانغ لنغ لابنـه في ذلك المساء ما جرى ، فوجم الشاب ثم قال : « يجب ان نرسل الفتاة الى المدينة . إلى دار خطيبها .

وهكذا فعل وانغ لنغ . فقد ذهب في اليوم التالي الى المدينـة ، وسعى الى بيت التاجر .. وقال : بلغت ابنتي الثالثة عشرة ، ولم تبعد طفلة ، فهي اهـل للزواج . ولكن ليو كان متردداً . وقال : « إنني لم أربح هـــذا العام ما يكفي لأن أنشىء أسرة في داري ».

وهنا خجل وانغ لنـغ من ان يقول : « ان ابن عمي يقيم في داري ، وهو ذئب » . ومن ثم اكتفى بـأن قال . « لست على استعداد لأن احمـل عبء رعاية هذه العذراء ، لأن امها قد ماتت .. وهي جميلة وفي سن البلوغ ، ويبقى كبير وحافل بهذا وذاك .. وليس بوسعي ان أراقبها في كل ساعة وما دامت ستصبح من أسرتك ، فلتكن رعاية عذرتها هنا .. وليكن زفافها عاجـلاً او اجلاً .. كما تشاء » .

وهكذا سويت المسألة ، وارتاح بال وانغ لنغ .. فقفل راجعاً .. ولكنـه مر في طريقه الى بوابة المدينة ، حيث كان تشينغ يحتفظ بقارب في انتظاره

بمتجر للتبغ والأفيون ، فدخل ليبتاع لنفسه بعض الطباق المقصوص ليضعه في نرجيلته في الأمسيات .. وبينما كان العامل يزن التبغ .. قال له على كره منه: « وبكم تبيع أفيونك .. إن لديك منه ؟ » فأجابه العامل « إذا كنت ترغب في شرائه .. ولديك الفضة .. فهو يوزن في الغرفة القائمة خلف هذه ، والأوقية بقطعة من الفضة ».

ولم يعد وانغ لنغ يفكر فيما يفعل .. بل بادر قائلا : « سأبتاع ست أوقيات منه ».

الفصل السادس والعشرون

وبعد ان أرسلت الابنة الثانية بعيداً عن الدار .. وتخلص وانغ لنغ من قلقه عليها .. قال لعمه ذات يوم : « اما وانت شقيق ابي . فهناك قليل من التبغ الجيد لتدخنه » . وفتح جرة الأفيون..فاذا المادة لزجة ، ذكية العبير.وأخذها عم وانغ لنغ فتنسمها .. ثم ضحك في سرور وقال : « الواقع انني دخنته قبل اليوم في مناسبات قليلة ـ وليست كثيرة ـ لأنه فاحش الثمن.. ولكنني احبه».
فأجابه وانغ لنغ متظاهراً بعدم الاكتراث : « إنه لقـدر قليل اشتريته مرة لأبي عندما طعن في السن واستعصى عليه النوم في الليل..وقد عثرت عليه اليوم، دون ان يكون قد استعمل .. فقلت لنفسي : « هناك شقيق أبي فلماذا لا يأخذ منه قليلا بدلاً مني . فأنا اصغر منه سناً ، ولا احتاج اليه الآن » . فخذ إذن ، ودخنه عندما تشاء .. او حين تشعر ببعض الألم » .

وأخذ عم وانغ لنغ الأفيون في نهم .. لأنه كان حلو الرائحة. ولا يتعاطاه غير ثراة الناس . واستولى عليه . فاشترى نرجيلة .. وصار يدخن الأفيون .. مستلقياً على فراشه طوال النهار .. ثم دبر وانغ لنغ الأمر لشراء عـدد من النرجيلات ، أخذ يتركها هنا وهناك ، وتظاهر بأنه يدخن الأفيون هو الآخر ولكنه لم يكن يفعل اكثر من ان يأخذ نرجيله الى غرفته ثم يتركها فيها باردة.
ولم يسمح لابنيه ــ اللذين كانا يقيمان في البيت ــ ولا للوتس ،بأن يمسوا الأفيون متعللا بأنه باهظ الثمن .. ولكنه كان يلح به على عمه وعلى زوجة عمه وابنهما، فامتلأت ارجاء البيت برائحة الدخان الزكية. ولم يبخل وانغ لنغ بانفاق الفضة

على ذلك .. لأنه كان يجتلب الهدوء والسلام لنفسه .

* * *

ولما أخذ الشتاء في الانصرام ، وبدأت المياه تنحسر عن الأرض ، وأمكن وانغ لنغ ان يسير على أرضه من جديد ، تصادف ان تبعه ابنه الأكبر – ذات يوم – وقال له : « لن يلبث ان يحل في البيت فم آخر عن قريب .. وسيكون فم حفيدك » . فلما سمع وانغ لنغ هذا ، التفت وضحك ، وفرك يديه ، وقال: « يا له من يوم طيب حقاً ! » وضحك مرة أخرى .

وظل وانغ لنغ طيلة الربيع يجد عزاءه في فكرة مقدم الوليـــد المنتظر . وكان يفكر فيه حتى عندما كان ينشغل بأمور أخرى . وكلما مسه ضيق، كان يفكر في ذلك ، فيجد راحة لباله .

وإذ أخذ الربيع ينقلب إلى صيف ، بدأ الناس الذين كانوا قد رحلوا هربا من الفيضان يعودون ، فرادى وجماعات ، وقد برح بهم الهزال ، وأضناهم الشتاء وسرتهم العوذة وإن كانت بيوتهم قد أصبحت أثراً بعد عين ، ولم يبق مكانها غير الطين الأصفر الذي استحالت اليه الأرض المشبعة بالماء . على أنه كان من اليسير أن يشيدوا من هذا الطين بيوتا جديدة ، وأن يشتروا حصيراً يجعلوه سقوفاً . وقصد كثيرون منهم إلى وانغ لنغ ليقترضوا منه بعض المال ، فأقرضهم بفوائد باهظة ، وهو يرى شدة حاجتهم إلى المال . وكان لا يرتضي سوى الأرض رهنا. وبالأموال التي اقترضوها زرعوا حبوبا على الأرض التي اكتسبت خصوبة كبيرة خلفتها المياه عند جفافها وكانوا عندما يحتاجون إلى الثيران والبذور والمحاريث، وعندما يعجزون عن اقتراض المزيد من المال ، يبيع بعضهم الأرض وأجزاء من حقوقهم حتى يستطيعوا زراعة ما يتبقى . ومن هؤلاء ابتاع وانغ لنغ الأرض ، ومزيداً من الأرض ، بأسعار زهيدة ، لأن حاجتهم إلى المال كانت ماسه على أن بعضهم لم يشاءوا بيع أراضيهم . وكانوا عندما لا يجدون ما يشترون به بذوراً

ومحاريثاً أو ثيراناً يبيعون بناتهم . ومنهم من ذهبوا إلى وانغ لنغ ليبيعوه بناتهم لأنه كان معروفاً بثرائه ، وسطوته وطيبة قلبه .

وفي تفكيره المستمر في حفيده المنتظر ، وفي غيره من الأطفال الذين سوف ينجبهم أولاده عندما يتزوجون جميعاً ، اشترى خمس جواري في يوم واحد،فقد كان غنياً إلى الى الحد الذي يمكنه من سرعة تنفيذ ما يقر رأيه عليه .

ثم جاء ذات يوم– بعد عدة أيام – رجل يحمل فتاة صغيرة رقيقة في السابعة من العمر ، يريد بيعها . فقال وانغ لنغ – في بادي الأمر – إنه كان زاهداً فيها لصغرها وضعفها . ولكن لوتس رأتها وأعجبت بها ، فقالت في دلال : « سآخذ هذه الفتاة لأنها جميلة » .

وتفرس وانغ لنغ في الفتاة ، فرأى عينيها الجميلتين المذعورتين ، ونحافتها التي تدعو إلى الإشفاق ، وقال ليدخل السرور على قلب لوتس – من ناحية – ولرغبته في أن يرى الطفلة وقد سمنت بعد إطعامها من ناحية أخرى : « فليكن ذلك ما دمت تريدين » .

وهكذا اشترى الطفلة بعشرين قطعة من الفضة ، فأقامت في الجناح الداخلي واعتادت أن تنام امام مقدمة الفراش الذي تنام عليه لوتس .

* * *

وخيل لوانغ لنغ إنه يستطيع بعد هذا ان يحظى بالدعة في بيته . وعندما انحسرت المياه ، وحل الصيف ، وحان للأرض أن تزرع بأجود البذور ، أخذ يسير هنا وهناك ، ويتأمل كل قطعة ، ويبحث مع تشينغ مدى جودة تربة كل منها ، وأي تبديلات يمكن إدخالها على المحصولات لتناسب خصوبة الأض وكان أينا ذهب آخذ معه ابنه الأصغر ، الذي كان مقدراً ان يخلفه في الإشراف على الأرض ، حتى يتعلم . ولكن وانغ لنغ لم يكن يلتفت قط ليرى كيف كان الفتى يصغي ، ولا ما إذا كان يصغي أم لا ، إذ كان الفتى يسير مطأطيء الرأس، كان

وجهه يبدو واجماً ، وما من احد يعرف فيما كان يفكر .

على ان وانغ لنغ لم يكن يرى ما كان الفتى يفعله ، وكل ما كان يعرف هو انه كان يسير في صمت وراء أبيه . فلما انتهى من تدبير كل شيء ، عاد إلى بيته راضياً ، وهو يقول في نفسه : « لم أعد شابا ، وليس من الضروري لي أن أعمل بيدي ، ما دام في أرضي رجال يعملون ، وما دام بيتي يعمره أبنائي ويسوده السلام .

على أنه لم يكن في بيته سلام . فبالرغم من أنه وهب ابنه زوجة ، وبالرغم من إنه اشترى من الجواري من يخدمهم جميعاً في البيت ، وبالرغم من أن عمه وزوجته كانا يحصلان من الأفيون ما يضمن لهما متعتهما طيلة النهار ، فإن الدعة لم تستتب ، وكان ذلك من جراء ابن عمه وابنه الأكبر مرة أخرى . فقد بدا ان الإبن الأكبر لوانغ لنغ لم يكن يملك التخلي عن كراهية ابن عمه،ولا عن ارتيابه العميق فيه . بل إنه كان يرتاب في أن الشاب كان يأثم مع الجواري ، بل ومع لوتس . وإذ عاد وانغ لنغ وابنه الأصغر إلى البيت من الحقول — ذات يوم — انتحى به ولده الاكبر جانباً ، وقال له : « لن احتمل هذا الرجل— ابن عمي— في المنزل بعد اليوم ، باستراقة النظر ، وبتجواله في أرجاء البيت وثوبه مفتوح ، وعيناه على الجواري » .

ولم يجرؤ على المضي في الإفصاح عما بنفسه إلى ابعد من هذا ، فلم يقل « أنه يتجرأ ايضاً على اختلاس النظر إلى امرأتك في الجناح الداخلي » ولهذا لاذ بالصمت واكتفى بذكر مسلك ابن عمه مع الجواري .

وكان وانغ لنغ قد عاد من الحقول جذلانا ، لأن المياه كانت قد انحسرت عن الأرض ، وجف الهواء وأصبح يميل إلى الدفء .. ولأنه كان مغتبطاً أيضاً لأن ابنه الأصغر قد ذهب معه . ولهذا رد وهو مغضب لهذه المشكلة الجديدة في البيت : « إنك لطفل احمق ، إذ تظل تفكر في هذه الأمور إلى الأبد . إذ لا يليق بالرجل ان يحب زوجته حباً جنونياً متهوساً ، كأنها من بنات الهوى ! »

إذ ذاك استاء الشاب من لوم أبيه له ، فقد كان أكثر ما يخشاه أن يتهمه أحـــد بتصرف غير صحيح ، كما لو كان جاهلاً من عامة الشعب . ولهذا أجاب بسرعة :

« ليس هذا من أجل زوجتي ، وإنما لأنه غير لائق في بيت والدي » .

ولكن وانغ لنغ لم يسمعه ، فقد كان سادراً في غضبه . وعاد يقول : « ثم ، ألن يقدر لي أن أخلص من كل هذه المتاعب التي تسود بيتي بين الذكور والإناث؟» . وعاد يصيح بعد صمت قصير : « وماذا تريدني أن أفعل ؟ »

فلم يلبث الشاب أن أجاب بهدوء : « وددت لو أننا أمكننا هجر هذا البيت ، والذهاب الى المدينة لنقيم فيها ، فليس من اللائــق أن نواصل العيش في الريف كعبيد الأرض .

فأرسل وانغ لنغ ضحكة مريرة ، قصيرة ، عندما سمع قول ابنه هـذا ، واستبعد رغبة الشاب باعتبارها شيئاً تافهاً لا يستحق البحث فيه . وقال بحزم : « هذا بيتي ، ولك أن تعيش فيه أو ترحل عنه .. هذا بيتي وهذه أرضي ، ولولا الأرض لمتنا جوعاً كغيرنا ، ولما استطعت انت أن ترفل متكاسلاً في ثيابـــك الفاخرة ، كعالم من العلماء . إن الأرض الطيبة هي التي جعلت منك شيئاً خيراً من ابن فلاح » .

ولكن الابن الأكبر لم يكن على استعداد للتخاذل ، بل تبع والده قائلاً : هناك البيت القديم الكبير ، بيت آل هوانغ .. إن الجزء الأمامي منه حافـــل بهذا وذاك من عامة الناس ، ولكن أجنحته الداخلية مغلقة وخالية ، ويمكننا أن نستأجرها وأن نعيش هناك في سلام . وتستطيع أنت وأخي الأصغر أن تذهبا إلى الأرض وتعودا منها بسهولة . ثم مضى يغري أبـاه ، وترك الدموع تطفر الى عينيه وقسرها على الانحدار على خديه ، دون أن يمسحها .

ولم يدر ما إذا كانت الدموع وحدهـــا هي التي أثرت على وانغ لنغ .. ولكنه على أية حال تأثر بكلام ابنه عندما قال : « بيت آل هوانج الكبير » .

ولهذا لما أن سمع ابنه يقول : « يمكننا أن نعيش في بيت آل هوانج » ، حتى قفزت هذه الفكرة الى ذهنه ، وكأنه كان يراها رأي العين .. « بوسعي الجلوس حيث كانت السيدة الكبيرة تجلس، وحيث أمرتني بالوقوف كأنني عبد .. فالآن استطيع الجلوس هناك ، وأن أدعو شخصاً آخر للوقوف في حضرتي » . وراح يفكر ، ثم قال لنفسه ثانية : « بوسعي أن أفعل هذا إذا شئت » .

وظلت هذه الفكرة تداعبه ، فجلس صامتاً ولم يرد على ابنه . لهذا فإنه وإن لم يشأ – في مبدأ الأمر – أن يقول إنه سوف ينتقل أو يغير أي شيء ، إلا أنه كان مستاء من خمول ابن عمه وكسله ، وراح يراقب الرجل بنظرات ثاقبة .. فوجد أنه كان يسترق النظر الى الفتيات بالفعل .. لقد ظل هذا الرجل غير متزوج .. ووحشاً ضارياً في شهواته .. وأبى ان ينساق للأفيون بسهولة كأبويه الشيخين .. وان يحظى بشهواته في الاحلام . وما كان وانغ لنغ ليرتضي ان يدعه يتزوج في البيت .. خوفاً من الذرية التي قد ينجبها ..

لهذا .. فإن وانغ لنغ عندما ذهب الى المدينة – ذات يوم – ليزور ابنه الثاني في متجر الحبوب . سأله : « ما رأيك يا بني .. في رغبة أخيك الأكبر في أن ننتقل الى المدينة .. الى البيت الكبير .. إذا أمكننا استئجار جزء منه ؟ » .

وكان الابن الثاني قد نما واصبح شاباً .. كما اصبح لطيفاً .. نظيفاً .. كسائر الكتبة في المتجر الذي يعمل فيه . وقد رد على ابيه في تلطف : « إنها فكرة رائعة ، وهي تناسبني تماماً ، إذ يمكنني عندئذ أن أتزوج وأعيش مع زوجتي هناك ، ونصبح جميعاً تحت سقف واحد ، كشأن الاسرات الكبيرة » .

ولم يكن وانغ لنغ قد دبر شيئاً لتزويج هذا الابن ، لانه كان شاباً متزناً هادىء الأعصاب ، ولم يبدر عنه ما ينم عن تأجج الشهوة فيه ، وكان لدى وانغ لنغ الكثير مما يشغل باله الآن ولكنه شعر بالخجل لأنه لم يؤد واجبه نحو هذا الابن ، فقال : كنت أردد لنفسي – منذ فترة طويلة – بأنه ينبغي لك أن تتزوج ولكن كثرة مشاغلي لم تترك لي وقتاً ، لا سيما بعد حلول المجاعة الأخيرة ،

واضطرارنا الى الامتناع عن إقامة الولائم .. أما الآن وقد توفرت الأقوات ثانية ، فقد آن أن ننجز هذا الأمر » . واستعرض في ذهنه ـ خفية ـ المكان الذي قد يجد فيه عروساً لابنه . وإذ ذاك قال الابن الثاني : « فلأتزوج إذن ، لأن الزواج عمل طيب ، وهو خير من إنفاق المال على بنات الهوى كلما اقتضت الحاجة . ثم إنه من الجيد للرجل أن يكون له ابناء ولكن ، لا تختر لي زوجة من احدى أسرات المدينة ، مثل زوجة أخي ، لأنها لن تكف عن الحديث عما كان في بيت أبيها ، وستحملني على انفاق المال ، وتصبح مصدر ازعاج لي » .

وسمع وانغ لنغ هذا بدهشة ، لأنه لم يكن يدرك أن زوجة ابنه كانت هكذا ، إذ لم يكن يرى سوى انها امرأة على قدر لا بأس به من الجمال وتحرص على أن تكون قوية المسلك . على أن حديث ابنه بدا حكيما ، فابتهج إذ رأى ابنه هذا ماهراً حريصاً على اقتصاد المال . والحق أنه لم يكد يعرف هذا الفتى على حقيقته ، إذ أنه كان ضعيفاً إذا قيس بأخيه الأكبر القوي النشيط .

أما الآن ، فقد تأمل وانغ لنغ الشاب ـ ابنه الثاني ـ فرأى شعره المقصوص بعناية ، والمضمخ بالزيت ، والجيد التصفيف ، وثوبه النظيف المصنوع من الحرير الرمادي الدقيق النقش . وشاهد حركات الشاب الرشيقة المتزنة ، وعينيه اللتين تكتمان أسرار نفسه ، وقال لنفسه في دهشة : « إنه ابني كذلك » . ثم رفع صوته قائلاً : « أي طراز من الفتيات تريد إذن ؟ » فأجاب الشاب في خفوت واتزان ، وكأنه قد دبر هذا الأمر من قبل : « أرغب في عذراء من القرية ، من اسرة طيبة تمتلك أرضاً ، وليس لها أقارب فقراء ، وتستطيع أن تجلب معها صداقاً طيباً .. ليست بالدميمة ، وليست باهرة الحسن .. تجيد الطهو ، حتى إذا كان في المطبخ خدم استطاعت ان تراقبهم . ويجب ان تكون من التقدير بحيث إذا اشترت ثوباً حاكته بحيث لا يزيد ما يفيض من قماشه على قبضة اليد .. هذه هي الفتاة التي اريدها لنفسي . »

واشتدت دهشة وانغ لنغ عند ما سمع هذا الحديث ، وقال ضاحكاً :

« حسناً ، سأبحث لك عن فتاة كهذه ، وسيبحث تشينغ عنها في القرى . ! »

وانصرف وهو لا يزال يضحك ، فسار في الشارع المؤدي الى البيت الكبير ، وتردد لحظة بين الاسدين الحجرين . ثم مضى الى داخله ، إذ لم يكن هناك من يقف في طريقه .. والمكان ينضح برائحة الرعاع الذين تكالبوا على غرف علية القوم عندما رحل هؤلاء . ومد بصره نحو الباب الذي كانت تلك المرأة تقيم وراءه فرآه مواربا ، وقد شغل الحجرة ساكن آخر ، رجل طاعن في السن فاغتبط وانغ لنغ لهذا ، وواصل سيره داخل الدار .

وتوغل داخل أجنحة الدار ، حتى وصل الى الجزء الخلفي ، فوجد باباً موصداً يؤدي الى جناح .. ورأى بجواره عجوزاً تغط في النوم .. تأملها فإذا بها زوجة الرجل الذي كان بواباً .. المرأة ذات الوجه المشوه بآثار الجدري . وفي تأمله إياها .. تبين ـ في لحظة طويلة ـ كم كانت السنوات عديدة وسريعة في مرورها .. منذ ان كان شاباً وقد وفد على هذا البيت حاملا بين ذراعيه ابنه الأول . وللمرة الأولى في حياته ، شعر وانغ لنغ بالشيخوخة ، تدب في جسمه . وما لبث ان قال للعجوز في شيء من الحزن : « استيقظي ودعيني ادخل » .

فنهضت المرأة وهي تفتح عينيها ، وتلعق شفتيها اليابستين ، وقالت : ليس لي ان افتح إلا لمن يرغب في استئجار جميع الغرف الداخلية » . فقال وانغ لنغ فجأة : « وهذا ما سأفعله إذا هي أعجبتني ! » .

وتبع المرأة الى القاعة الكبرى ، فارتد ذهنه في الحال — عبر السنين الماضية — الى اليوم الذي وقف فيه في هذا المكان ، ينتظر ان يزف الى جارية من البيت . ورأى أمامه التخت الكبير ، الذي كانت السيدة الكبيرة تجلس عليه وقد لفت جسمها الواهن المتداعي بالساتان الفضي .. وتحت تأثير حافز غريب ، تقدم فجلس حيث كانت تجلس .. ووضع يده على المنضدة .. وفي فورة الجلال الذي انبعث في نفسه .. أطل الى العجوز التي حملقت فيه بعينين تطرفان .. وانتظرت صامتة ما قد يفعله . ثم ملأ قلبه نوع من الارتياح .. كان يتوق اليه طوال حياته

دون ان يدري .. فدق المنضدة بيده وقال فجأة : « سيكون لي هذا البيت ! ».

★ ★

كان وانغ لنغ إذا ما قرر شيئاً – في تلك الأيام – لا يملك ان يؤديه بسرعة كافية . لهذا ابلغ ابنه الأكبر ما استقر رأيه عليه ، وكلف الشاب بأن يدبر الأمر ، وبعث الى ابنه الثاني ويستدعيه ليساعد في الانتقال . وفي اليوم الذي تمت فيه جميع الاستعدادات ، انتقلوا .. لوتس و كوكو وجواريها وأمتعتها اولا ، ثم الابن الأكبر لوانغ لنغ وزوجته . وخدمها والجواري .

وأما وانغ لنغ نفسه ، فلم يشأ ان ينتقل فوراً ، واستبقى معه ابنه الأصغر . وعندما حانت لحظة الرحيل عن الأرض التي ولد عليها ، لم يستطع ان يفعل هذا بالسهولة ولا بالسرعة اللتين كان يتوقعها . وحين استحثه أولاده قال : « ليكن .. أعدوا لي – إذن – جناحاً أقيم فيه وحدي ، وسأذهب إليه في اليوم الذي ارغب ، وسيكون ذلك قبل مولد حفيدي بيوم . وعندما أشاء سأعود ثانية الى أرضي » فلما عادوا يلحون عليه ، قال : « هناك أيضاً ابنتي البلهاء المسكينة ، ولا ادري هل آخذها معي أم لا . على أنه لا بد من ان آخذها فليس هناك من يعني بإطعامها سواي » .

وقال وانغ لنغ هذا في شيء من اللوم لزوجة ابنه الأكبر ، لأنها لم تكن تطيق وجود البلهاء المسكينة بالقرب منها ، بل كانت تتهرب منها في تحرج وتقول : « ما ينبغي ان يعيش من كان على شاكلتها البتة ، ويكفي ان انظر اليها فيتشوه الجنين الذي في بطني » .

وقال وانغ لنغ متلهفاً : « سآتي عندما يتم العثور على الفتاة التي تزف الى ابني الثاني فالأسهل ان ابقى هنا مع تشينغ ريثما تتم هذه المسألة » . وعلى هذا ، كف الابن الأكبر عن الحاحه .

ومن ثم لم يبق في البيت احد غير العم وزوجته وابنه وتشينغ والعمال ، إلى

جانب وانغ لنغ وابنه الأصغر والبلهاء . فانتقل العم وزوجته وابنه الى الجناح الداخلي .

وانتقل تشينغ الى الغرف الخارجية ومعه العمال ، وأقام وانغ لنغ وابنه والبلهاء في الغرف الوسطى . على أن وانغ لنغ لم يلبث أن تحرك أخيراً ، فأمر تشينغ بالبحث عن فتاة تصلح زوجة لأبنه الثاني .

وكان تشينغ قد طعن في السن ، وذوي جسمه وأصبح في نحافة عود الغاب، وإن ظلت فيه قوة أشبه بقوة الكلب العجوز الأمين . لذلك فإنه حين سمع ما أراده وانغ لنغ على ان يعمله ، اغتسل وارتدى ثوبه القطني الأزرق المفضل ، وانطلق الى هنا وهناك ، والى هذه القرية وتلك ، ورأى فتيات كثيرات . وأخيراً عاد وقال : « حبذا لو كنت أبحث عن زوجة لنفسي وليس لابنك .. ولو كنت أنا الذي سأتزوج — وكنت لا أزال في شبابي — لما اخترت إلا فتاة على مبعد ثلاث قرى من هنا ، فهي فتاة طيبة ، سمينة ، مدبرة لا عيب فيها إلا حضور ضحكتها .. وابوها على استعداد ، ويرحب بأن تربط ابنته بين اسرتك وأسرته ، وسيقدم صداقاً طيباً بالنسبة للأوقات الحاضرة . كما انه يملك أرضاً . ولكني قلت له إني لا أعد بشيء ما لم يصدر الوعد منك » .

وبدا لونغ لنغ ان الأمر على ما يرام ، وتاق الى ان ينتهي منه ، ولهذا أعطى وعده ، فلما جاءته الوثائق مهرها بعلامته ، وهكذا ارتاح باله ، وقال : «لم يبق الآن غير ابن واحد ، ثم اكون قد انتهيت من كل هذه الزيجات والزفافات وإني لمسرور إذ أقترب من راحة البال » .

وخيل الى وانغ لنغ — إذ ذاك — ان تشينغ قد ازداد ضعفاً مع تقدم سنه . ولما كان هو نفسه قد ازداد تثاقلاً وميلا إلى النعاس — لإسرافه في الطعام ولكبر السن — ولما كان ابنه الثالث اصغر من ان يتحمل المسئولية ، رأى ان من الخير أن يؤجر بعض حقوله النائية إلى آخرين من أهل القرية وهذا ما فعله وانغ لنغ،

فأقبل عليه كثيرون من القرى القريبة ليستأجروا أرضه ، وليصبحوا من « مؤاجريه » . وتم الاتفاق على الإيجار . فنصف المحاصيل لوانغ لنغ لأنه مالك الأرض ، والنصف للمستأجر مقابل عمله .

وكأنما أشفقت عليه الآلهة للمرة الأولى،فأعدت له راحة البال في شيخوخته. فإذا ابن عمه ـ يسمع بنشوب حرب في الشمال ، فقال لوانغ لنغ : « يقال إن هناك حرباً الى الشمال منا ، وسأذهب لأشترك فيها ، لأجد ما أعمله وأراه، هذا ما سأفعله إذا اعطيتني فضة لأبتاع مزيداً من الملابس ، ولوازم الفراش ، وبندقية أجنبية لأحملها على كتفي » . إذ ذاك طفر قلب وانغ لنغ سروراً ، ولكنه أخفى اغتباطه بدهاء ، وغمغم متظاهراً بالغضب : « إنك الابن الأوحد لعمي ، وبعدك لن يكون هناك من يتابع حياة جسمه فإذا أنت ذهبت الى الحرب ، فماذا يحدث ؟ » .

ولكن الرجل أجاب ضاحكا : « لست أحمق ، ولن أقف في مكان تتعرض فيه حياتي للخطر . فإذا نشبت معركة فسأبتعد حتى تنتهي . إنني أبغي تغييراً في حياتي ، وشيئاً من الترحال ومشاهدة ربوع غريبة عني ، قبل ان أصبح من الشيخوخة بحيث أعجز عن ذلك » .

وما لبث ان ساد الهدوء في النهاية ، إذ لم يبق في البيت الريفي سوى العجوزين اللذين يخلدان دائماً الى النوم ، أما في البيت القائم بالمدينة ، فإن ساعة مولد حفيد وانغ لنغ كانت تقترب . وأخذ وانغ لنغ ـ كلما اقتربت هذه الساعة ـ يكثر من المكث في منزل المدينة . وكان يجول في أرجائه ، وهو لا يكف عن التفكير في الحوادث التي مرت ، ولا يكف عن العجب ، ففي هذه الأبهاء - التي عاشت فيها يوماً أسرة هوانج العظيمة ـ اصبح يقيم مع زوجته وأولاده وزوجتي ولديه .. وها هو ذا حفيد من الجيل الثالث يوشك أن يولد .

وامتلأ قلب وانغ لنغ حبورا،حتى إنه لم يترك شيئا طيبا لم يشتره.فابتاع قطعاً من الساتان والحرير للجميع ، إذ ساءه أن يرى الأقمشة القطنية الرخيصة

على المقاعد المزركشة بنقوش محفورة ، وحول الموائد المنقوشة المصنوعة من خشب الجنوب الأسود .. واشترى قطعاً أخرى – من الأقمشة القطنية الزرقاء والسوداء الجيدة ـ للجواري ، حتى لا تحتاج أية واحدة منهن الى ارتداء ثوب مهلهل .. وقد فعل هذا ، وشعر بالاغتباط عندما جاء الأصدقاء – الذين تعرف بهم ابنه الأكبر في المدينة – إلى بيته ، وازدهاه ان يروا كل هذا .

وبيّت وانغ لنغ العزم على ان يأكل الأطعمة الفاخرة .. وبعد ان كان هو نفسه يقنع بالخبز المصنوع من القمح الطيب .. الملفوف على عود من الثوم . لم يعد يسره الان هذا الصنف او ذاك من الطعام .. بعد أن أصبح ينام الى وقت متأخر من اليوم .

وفي هذه الحياة المترفة العاطلة .. راح وانغ لنغ يستيقظ عندما يشاء، وينام حين يحلو له .. في انتظار حفيده .

وفي صبيحة أحد الأيام ، سمع أنين امرأة ، فذهب إلى غرفة ابنه الأكبر ، واستقبله ابنه قائلاً : « لقد حانت الساعة ، وإن كانت كوكو تقول إن الوضع سيستغرق وقتاً طويلاً . لأن حوض المرأة ضيق ، وسيكون الوضع عسراً » .

وبادر هاتفاً : « إذا جاء المولود ذكراً ، فسأدفع ثمن ثوب أحمر جديد للربة . ولكني لن أفعل شيئاً إذا جاء المولود أنثى » .

وخرج مضطرباً لأنه لم يكن قد فكر في هذه المسألة .. في ان المولود قد يكون أنثى فقصد إلى محل البخور ، واشترى مزيداً منه ، وبرغم ان اليوم كان حاراً والتراب يملأ الشوارع الى ارتفاع شبر ، فقد ذهب إلى المعبد الريفي الصغير ، حيث يقوم الصنمان اللذان يرعيان الحقول والأرض ، وألقى بالبخور وأحرقه ، وخاطب الصنمين قائلاً : « ها نحن أولاء قد عنينا بكما ، أبي وأنا وابني وها هي ذي ثمرة من جسد ابني ستظهر ، فإذا لم تكن ذكراً ، فلا تتوقعان أي خدمة اخرى » .

وإذ عمل كل ما كان بوسعه ، عـــاد إلى البيت منهوك القوى ، وجلس الى منضَدته ، ورغب ان تحضر له إحدى الجواري الشاي ، وأن تـــأتي له أخرى بنشفة مبتلة بالمـاء المغلي معصورة ليمسح بها وجهه ،فصفق ولكن احداً لم يوافه .

واخيراً ، وعندما خيل إليه ان الليل قد صار وشيك الحلول بعـد ان طال انتظاره ، جاءت لوتس تترنح على قدميها الصغيرتين لثقل جسمها ، وهي تستند إلى كوكو ، ولما رأته ضحكت ، وقالت بصوت عال : « أبشر فقد أصبح في البيت ابن لابنك ، والأم والأبن على قيد الحياة . وقد رأيت الطفل فوجدتـــه جميلاً وسليما » .

فضحك وانغ لنغ هو الاخر ، ونهض مصفقاً بيديه . ثم ضحك مرةأخرى وقال : « كنت أجلس هنا وكأني رجـــل ينتظر وصول أول مولود له ، ولا يعرف ماذا يفعل بهذا الشيء ولا بذاك وإنما يخاف من كل شيء » .

وعندما انصرفت لوتس الى غرفتها، وعاود الجلوس راح يفكر قائلا لنفسه : « لم يتملكني مثل هذا الخوف عندما أنجبت زوجتي طفلها الأول . ابني !!» . وجلس صامتاً وقد غرق في تأملاته، وتذكر في نفسه ذلكاليوم ،وكيف دخلت بمفردها الغرفة الصغيرة المظلمة ، وكيف انجبت له أولاده وبناته تباعـا وهي وحيدة ، صامتة .. وكيف كانت تذهب لتعاود العمل بجواره في الحقول أمـا هذه التي تزوجها ابنه فقد راحت تصرخ وتولول كالطفل من الألم ، واضطرتكل الجواري الى ان يجرين في البيت ، بينما وقف زوجها بباب غرفتها .

★★

وعندما أصبح عمر الطفل شهراً ، أقام ابوه – ابن وانغ لنغ – مـــآدب الميلاد ، ودعا إليها ضيوفاً من المدينة ، والد زوجته ووالدتهـا ، وجميـع كبراء المدينة . وصبغ مئات كثيرة من بيض الدجـاج باللون القرمزي . وانتشرت الاحتفالات والافراح في البيت ، إذ كان الطفل ذكراً معافى بديناً ، وقد تجاوز

يومه العاشر وهو على قيد الحياة ، فذهب بذلك الخوف عليه ، واغتبط الجميع .

وعندما انفض حفل الميلاد ، أقبل ابن وانغ لنغ على أبيه ، وقال : « الآن وقد اجتمعت الأجيال الثلاثة في هذا البيت ، وجب علينا ان نقتني ألواح النسب التي تقتنيها العائلات الكبيرة ، وأن نقيمها لتؤدي اليها الطقوس في أيام الأعياد إذ أننا قد اصبحنا أسرة راسخة الدعائم الآن » .

وسر وانغ لنغ لهذا أيما سرور ، فأمر بتنفيذه ، ومن ثم نفذ . وفي القاعة الكبيرة صفت الألواح ، يحمل احدها اسم جده ، وآخر اسم ابيه ، وتركت فراغات لاسم وانغ لنغ واسم ابنه عندما يموتان ، واشترى وانغ لنغ مبخرة أقامها امام الألواح .

وإذ تم هذا ، تذكر وانغ لنغ الثوب الأحمر الذي وعد به ربة الرحمة ، ومن ثم ذهب إلى المعبد ليقدم المال لذلك . وكأنما الآ لهة لا تسخو في العطاء دون ان تخفي وخزة في ذلك العطاء ، ففيما كان عائداً ، أقبل شخص يجري من حقول الحصاد ، لينبئه بأن تشينغ قد رقد يحتضر فجأة ، وقد سأل عما إذا كان وانغ لنغ يستطيع ان يذهب اليه فيراه وهو يموت . وصاح وانغ لنغ مغضباً ، وهو يسمع الرجل الذي كان يلهث بعد الجرى : « احسب ان الصنمين اللعينين في المعبد ، يغاران لأنني منحت ربة من المدينة ثوباً احمر ، وأحسب أنهما لا يدركان ان لا سلطان لهما على مولد طفل ، وإنما سلطانهما على الأراضي الزراعية وحدها » .

ومع ان غداءه كان جاهزاً ليأكله ، فإنه أبى ان يحمل ملقطيه الخشبيين ، على الرغم من ان لوتس نادته بصوت مرتفع لينتظر إلى وقت غروب الشمس . ورفض ان يمكث من أجل خاطرها ، وخرج . وإذ رأت انه لم يحفل بها ، أرسلت جارية خلفه بمظلة من الورق المشمع ، ولكن وانغ لنغ كان يجري بسرعة ، حتى إن الخادم البدينة وجدت عناء في ان تحمل المظلة فوق رأسه .

وجلس بجوار تشينغ ، وتناول يده وأمسكها ، فاذا بها خفيفة ، جافة ، صغيرة ، كورقة ذاوية من أوراق البلوط « فما كان من الممكن ان يصدق المرء ان اي دم يجري فيها ، لفرط جفافها وخفتها وسخونتها . ولكن وجه تشينغ - الذي كان شاحباً أصفر في كل يوم - بات أسمر ، تناثرت فيه بقع من دمه القليل. وغشيت عينيه نصف المفتوحتين غشاوة، ونضب البصر فيهما ، وتصاعدت أنفاسه في لهثات. فمال عليه وانغ لنغ ، وقال في أذنه بصوت عال : « ها أنذا ، وسأبتاع لك تابوتاً لا يفضله سوى تابوت ابي» . ولكن أذني تشينغ كانتا مشحونتين بدمه. وإذا كان قد سمع وانغ لنغ فإنه لم ينم عنه ما يشير إلى ذلك ، بل لبث راقداً يلهث ويحتضر ، حتى مات .

وعندما مات ، مال وانغ لنغ عليه ، وبكى كما لم يبك حين مات ابوه، وأمر له بتابوت من أحسن نوع ، واستأجر كهنة للجنازة ، وسار خلف التابوت في ثياب الحداد البيضاء .

وبعد ذلك قل ذهاب وانغ لنغ إلى أرضه عن ذي قبل ، لأنه بعد أن مات تشينغ كان يؤلمه ان يذهب الى هناك وحيداً، ولأنه بات منهوك القوى، وأصبحت عظامه توجعه إذا ما مشى في الحقول الوعرة وحيداً. لذلك أجر كل ما استطاع من أرضه ، فأقبل الناس عليها ملهوفين ، إذ كان من المعروف انها أرض طيبة . ولكن وانغ كان يأبى دائماً ان يتحدث عن بيع قدم واحدة من أية قطعة ولم يكن يقبل إلا أن يؤجرها لسنة واحدة ، لقاء مبلغ يتفق عليه . وبهذا كان يشعر بأنها كلها ملكه ، ولا تزال في حوزته .

وعين احد العمال ليقيم وزوجته وأولادهما في البيت الريفي، ليعنوا بالعجوزين مدخني الأفيون . ثم رأى عيني الأصفر المفعمتين بالشوق، فقال : « وأنت يحسن ان تنتقل معي إلى المدينة ، وسآخذ بلهائي معي كذلك ، فهي تستطيع ان تقيم في الجناح الذي أقيم فيه . إن الوحشة هنا بالغة بالنسبة لك بعد ان راح

تشينغ .. وبذهابه لم أعد واثقاً من أنهم سيترفقون بالبلهاء المسكينة وهم يرون ان ليس هناك من يشي بأنها ضربت أو أسيء إطعامها ، ولم يعد هناك من يعلمك شئون الأرض ، بعد أن ولي تشينغ » .

وهكذا أخذ وانغ لنغ ابنه الأصغر وبلهاءه معه ، ولم يعد - بعد ذلك - يأتي الى الدار المشيدة على أرضه إلا نادراً ، وفي فترات متباعدة .

وخيل لوانغ لنغ انه لم تبق في حالته هذه امنية يتمناها ، وأصبح في ميسوره ان يجلس في مقعده ، تحت أشعة الشمس بجوار البلهاء ، ويدخن نرجيلته وهو يحس بالهدوء والطمأنينة ، ما دامت الأرض في أيد تعني بها ، والمال يتدفق منها في يده دون ان يكبده عناء .

وهكذا كان من الممكن ان تسير الأمور ، لولا ابنه الأكبر ، الذي لم يكن يقنع بسير الحياة على هذا النهج ، وإنما كان يطلب المزيد . فجاء يوماً الى والده وقال .

- إننا بحاجة الى إجراء أشياء مختلفة في هذا البيت . ولا تحسبن ان بوسعنا ان نكون اسرة عظيمة ، لمجرد اننا نقيم في هذه الأجنحة الداخلية ، فها هو ذا أخي الأصغر سيتزوج بعد ستة أشهر فقط ، وليس لدينا مقاعد تكفي لجلوس الضيوف ولا أوان كافية ، ولا موائد كافية ، ولا أي شيء كاف في هذه الغرف. ثم إنه من العار أيضاً أن ندعو الضيوف ليأتوا فيجتازوا هذه البوابات الضخمة ويجوسوا وسط ذلك السرب من حثالة القوم بروائحتهم الكريهة واصواتهم المنكرة كما اننا سنحتاج الى هذه الأجنحة ايضاً ، بعد زواج اخي ومجيء أولاد له ولي .

. وتفرس وانغ لنغ في ابنه ، وهو واقف أمامه في ثيابه الفاخرة الأنيقة ، ثم اغمض عينيه ، واجتذب نفساً عميقاً من النرجيلة ، ودمدم يقول :

- ماذا تريد الآن ؟.. وماذا بعد ذلك ؟

وأدرك الفتى ان اباه قد برم به ، ولكنه - مع هذا - قال في عناد رافعاً صوته قليلاً :

- أقول يجب أن نحصل أيضاً على الأجنحة الخارجية ، وينبغي ان يكون لدينا ما يتناسب مع أسرة تمتلك من المال الوفير والأرض الطيبة ما تمتلكه أسرتنا.

ودمدم وانغ لنغ من شفتيه يقول :

- ان الأرض ملكي ، ولم يحدث ان عملت بيدك فيها على الإطلاق .

فصاح الولد يقول: « حسناً يا أبي ، انك انت الذي أردت ان اتعلم،وهأنذا الان عندما احاول ان اكون ابنا جديراً برجل صاحب أرض مثلك ، تنهرني وتريد ان تجعل مني ومن زوجتي فلاحين في الأرض ».

وتحول الشاب وانصرف بعنف ، وتظاهر بأنه سيهشم رأسه بضربها في شجرة الصنوبر القائمة في الساحة .

وخاف وانغ لنغ ان يؤذي الشاب نفسه ، لأنه كان حاد الطبع منذ صباه فصاح يقول : « افعل ما تشاء ... افعل ما تشاء ، ولا تزعجني » .

ولما سمع الابن هذا ، انصرف مسرعاً - لئلا يغير والده رأيه - واسرع بكل قوته وهو مغتبط ، فاشترى موائد ومقاعد مزينة بالحفر من « شوشو » ، وستائر من الحرير الأحمر لتعلق على الأبواب ، وصخوراً غريبة الشكل ليجعل منها « جبلايات » ، مثل التي شاهدها في الجنوب .

ودعا نجارين وبنائين مهرة ، فأصلحوا الغرف والبوابات التي تفصل الأجنحة التي تفصل التي خربها من كانوا يسكنونها من عامة الناس. وأعاد بناء الأحواض والبرك ، واشترى لها الأسماك الذهبية والرقطاء ، وبعد ان انتهى كل شيء ، واصبح جميلاً على قدر معرفته بالجمال .. زرع الأحواش باللوتس والنرجس والغاب القرمزي اللون - المجلوب من الهند - وكل شيء آخر تذكر

أنه رآه في الجنوب . ثم خرجت زوجته لترى ما عمله .. وسار الاثنان معاً .. ودخلا كل جناح وغرفة .. وأبدت ملاحظاتها على الأشياء التي ظلت ناقصة .. فأصغى اليها بانتباه كبير .. حتى ينفذ اقتراحاتها .

ولم يلبث الناس في شوارع المدينة ان سمعوا بكل ما فعله الابن الأكبر لوانغ لنغ وأخذوا يتحدثون عما تم صنعه في البيت الكبير بعد أن سكنه من جديد رجل ثري .. وبعد أن كان الناس يقولون « وانغ لنغ الفلاح » ، اصبحوا يقولون « وانغ الرجل الكبير » ، او « وانغ الرجل الثري » .

ولقد تحدث ذات مساء مع ابنه الأكبر ، فقال له .

ـ لقد برمت بكل هـذا الطلاء والصقل ، فكفى .. اننا لسنا ـ على اية حال ـ سوى أسرة ريفية .

ولكن الشاب اجاب في زهو يقول : « لسنا كذلك ، فقد بـدأ الناس في المدينة يدعوننا « اسرة وانغ لنغ العظيمة » . ولهذا يجب ان نعيش في مستوى يتناسب مع هذا الاسم . اما إذا كان اخي الأصغر لا يمد نظره إلى أبعـد من قيمة الفضة في حد ذاتها ، فسوف أحافظ انا وزوجتي على كرامة اسم الأسرة .

ولم يكن وانغ لنغ يعرف ان الناس أطلقوا على اسرته هذا الاسم ، إذ أنه مع تقدمه في الأيام لم يعد يذهب الى مشرب الشاي إلا قليلاً ولا إلى سوق الغلال على الإطلاق ، لأن ابنه الثاني كان يؤدي أعماله نيابة عنه . ومع هذا فقد شعر في قرارة نفسه بالغبطة والسرور ، وقال :

ـ « اننا جميعاً ، وحق الأسرة العريقة ، قد نشأنا من الأرض ، وامتدت جذورنا فيها فأجابه الشاب بلباقه : « أجل ، ولكنها لا تمكث هناك ، وإنما تتفرع وتثمر أزهارا وفاكهة » .

ولأن المساء كان قد حل ، فإنه أبدى رغبته في أن ينصرف ابنه من عنده ،

ويذهب إلى غرفته الخاصة ، ولكن الأبن الأكبر عاد يقول :

— حسن ، فلنكتف بهذا ، ولكن هناك شيئا آخر ..

فألقى وانغ لنغ بشرب نرجيله على الأرض ، وصاح : « ألا تدعني أعيش في هدوء ؟ »

فمضى الشاب يقول في عناد :

— إني لا أطلب شيئاً لنفسي ، ولا لابني ، وإنما لأخي الأصغر وهو ابنك . إذ لا يليق أن ينشأ جاهلا . يجب أن يتعلم شيئاً ما .

ولم يكن وانغ لنغ قد فكر في أن يسأل ابنه الأصغر عما يريد أن تكون حياته في المستقبل ، ما دام قد قرر أن يجعل من أحد ابنائه مزارعاً في الأرض .

وسأل وانغ لنغ ابنه الأكبر في ارتياب : « هل سمعته يقول هذا ؟ ».فأجاب الشاب : « اسأله أنت يا ابي » .

فارتفع صوت وانغ لنغ فجأة ، وهو يجادل ابنه قائلا .

— ولكن ، يجب أن يبقى أحد الأولاد في الأرض .

فقال الابن الأكبر : « ولماذا يا أبي ؟.. إنك لست بحاجة إلى ابناء يعملون في الأرض كالعبيد .. إنه أمر غير لائق ، وسوف يقول النــاس إنك ذو قلب قاس ، وربما قالوا أيضاً : « ها هوذا رجل يجعل من ابنه عبدا رقيقاً في الأرض، بينما يعيش هو عيشة الأمراء » .

وأخيراً قال وانغ لنغ « ابعث به إلى هنا » .

* *

وجاء الابن الثالث بعد برهة ، فوقف امـام والده الذي أخذ يتفرس فيه ثم قال : « أخوك الأكبر يقول إنك تود تعلم القراءة » .

فأجاب الصبي ، وهو يحرك شفتيه بمشقة : « أجل » .

فألقى وانغ لنغ بالرماد من الغليون ، وعبأه من جديد ببطء ،وقال : «حسن واعتقد أن هذا معناه أنك لا تريد العمل في الأرض ، وأنه سوف لا يكون لي

ولد في أرضي ، مع أن لي أبناء ، وليس لهم عمل » .

قال هذا في مرارة . ولكن الولد لم ينطق بشيء ، وإنما وقف منتصب القامة ساكن الحركة في ثوبه الأبيض المصنوع من الكتان، فغضب وانغ لنغ لصمته ، وصاح به : « لم لا تتكلم ؟.. اصحيح انك لا تريد أن تعمل في الأرض ؟ »

وعاد الصبي يرد بكلمة واحدة وهي : « أجل » .

فصاح : ماذا يهمني ما تفعل ؟ . اغرب عن وجهي !

فانصرف الصبي مسرعاً .. وجلس وانغ لنغ بمفرده ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً إن البنتين أثبتتا أنهما خير من الذكور ، فإحداهما بلهاء مسكينة لم تطلب أكثر من قصعة من أي طعام وقطعة من القماش تلعب بها .. والثانية تزوجت ورحلت عن بيته .. واخيراً أخذ الظلام يدب في الجناح فحبسه فيه وحيداً .

ومع هذا ، فقد اعتاد وانغ لنغ — عندما كان غضبه يزول — أن يترك لأبنائه حرية اختيار سبيلهم . ولهذا نادى ابنه الأكبر ، وقال له :

— اختر معلماً لابني الثالث ، إذا كان يريد هذا . ودعه يفعل ما يحلو له .

ونادى ابنه الثاني وقال له :

— ما دمت لن يكون لي ولد يعمل في الأرض ، فمن واجبك إذن أن تعنى بأمر الإيجارات والفضة التي تأتي من الأرض مع كل محصول ، وسأجعلك وكيلي لأنك تستطيع الوزن والكيل .

فاغتبط الابن الثاني ، لأن هذا معناه أن المال سيمر بين يديه — على الأقل — فيعرف مقدار الدخل ، ويمكنه بعد هذا أن يشكو لوالده إذا زاد الإنفاق في البيت عن اللازم .

وبدا الابن الثاني لوانغ لنغ أكثر غرابة من ابنيه الآخرين . فقد كان — حتى في يوم زفافه — ضنيناً بإنفاق المال .

وأخذ يراقب المال والهدايا التي ترد . ومنح الجواري والخدم أقل ما يمكن أن يعطي لهم من نقود .

ولم يدع الأبن الأكبر من اصدقائه إلا نفراً قليلاً ، ليسوا من ذوي الحيثية لأنه كان خجلا من تقتير أخيـه . ولأن العروس كانت مجرد قروية . وقد وقف جانباً في استهجان عند دخولها ، وقال :

إن أخي قد اختار وعاء من الفخاز ، بينما كان في وسعه – بفضل مركز أبي – ان يظفر بكأس من اليشب .

ومن بين جميع سكان هذا البيت ، بـــدا أنه لم يكن ثمة من ينعم بالهدوء والطمأنينة غير حفيد وانغ لنغ الصغير .

أما الأبناء ، فإنهم كانوا في اضطراب مستمر . فالابن الأكبر كان يخشى أن يقل الإنفاق فيقل قدرهم في نظر الناس ، في حين كان الابن الثاني يخشى من التبذير وضياع المال . أما الأبن الاصغر فكان يحاول جاهداً تعويض السنين التي ضيعها من حياته ، وهو يعيش كابن فلاح .

ولم يكن هذا الطفل هو الصغير الوحيد في البيت ، فإن زوجة ابنه الاكبر كانت وفية ، تحمل وتلد بانتظام وأمانة . وهكـذا كان وانغ لنغ يرى – في كل عام – المزيد من الأطفال في البيت .

واغتبط عندما حملت امرأة ابنه الثـاني في موعدها ، وأنجبت طفلها الأول بنتاً كما كان ينبغي فذلك يوحي بأحترامها لزوجة اخيه .

خمس سنوات انقضت ، وقـــد اصبح لدى وانغ لنغ اربع احفاد وثلاث حفيدات ولقد مات عمه ذات مساء في يوم قارس البرد ونقل وانـغ لنغ امرأة عمه إلى المدينة وافرد لها جناح خاص .

الفصل السابع والعشرون

اعتاد وانغ لنغ أن يسمع طوال حياته عن الحرب هنا وهناك ، ولكنه لم يرها قط تقترب إلا مرة واحدة ، عندما قضى فصل الشتاء في المدينة الجنوبية ، أيام شبابه . ولم يحدث ان اقتربت الحرب منه أكثر من ذلك ، وإن كان كثيراً ما سمع الناس – منذ أن كان طفلاً – يقولون : « هناك حرب في الغرب هذا العام » .. او يقولون . « الحرب في الشرق ، او في الشمال الشرقي » .

وسمع وانغ لنغ عنها – للمرة الأولى – من ابنه الثاني ، الذي عاد إلى المنزل – ذات يوم – من السوق ليتناول غداءه من الأرز ، في الظهيرة ، فقال لأبيه : « لقد ارتفعت أسعار الحبوب فجأة ، لأن الحرب قائمة الآن في الجنوب منا ، وهي تقترب في كل يوم . فعلينا ان نحتفظ بما نختزنه منها إلى ما بعد، لأن السعر سيزداد ارتفاعاً كلما اقتربت الجيوش منا ، فنستطيع أن نبيع بسعر جيد » .

فقال لابنه الثاني .

– اصنع بالغلال ما تراه مناسباً ، فهي بين يديك .

وأخذ – فيما تلى ذلك من أيام – يلعب مع احفاده عندما يكون في حالة رضاء ، ويأكل وينام ويدخن .. وأحيانا كان يذهب ليرى ابنته البلهاء المسكينة ، التي كانت تجلس في ركن قصي من جناحه .

ثم أقبلت ـ من الشمال الغربي ـ في أحد أيام بواكير الصيف ، جموع من الرجال مجتاحة ، كأنها أرجال من الجراد . وكان حفيد وانغ لنغ الأصغر يقف عند الباب مع أحد الخدم ، في صباح يوم أشرقت شمسه ليرقب ما يجري فلما شاهد الصفوف الطويلة من الرجال الذين ارتدوا سترات رمادية اللون ، عاد جريا إلى جده وصاح : « انظر أيها الشيخ ماذا يجري ! » .

فسار جده معه إلى البوابة ليرضيه ، فرأى الرجال يملئون الشارع . فجذب وانغ لنغ الطفل اليه بسرعة ، إذ رأى وجوههم ، وغمغم : « فلندخل ونغلق البوابة ، فهم ليسوا ممن يرتاح المرء اليهم يا حبيبي الصغير » .

ولكن واحداً من بين الرجال رآه فجأة ، قبل ان يتحول فصاح ، يناديه : « هو .. أنت هناك .. يا بن أخي أبي .. »

فتطلع وانغ لنغ عند هذا النداء ، ورأى ابن عمه ، الذي صاح في زملائه :

ـ يمكننا ان نتوقف هنا يا رفاقي ، فهذا رجل غني ، وهو قريبي .

وهرع وانغ لنغ مع الطفل ـ في يأس مما حدث ـ ليبحث عن ابنه الأكبر وذهب إلى جناح ابنه ، فوجده جالساً يقرأ كتاباً . ونهض الابن عند دخول أبيه ، وعندما سمع ما قاله وانغ لنغ لاهثاً ، أخذ يزمجر ثم خرج .

ولكنه عندما رأى ابن عمه ، لم يدر أيسبه ام يجامله . وإنما تأمل الجند ،ثم زمجر قائلاً لوالده الذي كان وراءه : « إن كلا منهم يحمل سكيناً » .

ومن ثم أبدى حفاوة ، وقال « حسناً . يا ابن عمي .. مرحباً بك إذ تعود إلى بيتك » . فابتسم ابن العم ابتسامة واسعة ، وقال : « لقد أحضرت بعض الضيوف معي » .

فقال الأبن الأكبر لوانغ لنغ : « مرحباً بهم ما داموا ضيوفك ، وسوف نعد لهم وجبة طعام حتى يأكلوا قبل ان يمضوا في طريقهم » وإذ ذاك قال ابن العم .. وهو لا يزال يبتسم : « ليكن ، ولكن لا تتعجل بعد ذلك ، لأننا

سنبقى بضعة أيام ، او ربما شهراً ، او سنة ، او ربما سنتين .. إذ علينا انترابط في المدينة حتى نستدعى إلى الحرب . »

فجاهدا ان يبتسما ما وسعهما الابتسام ، وقالا : « هذا من حسن حظنا .. إنه لمن حسن حظنا .. »

وفكر الابن الأكبر في زوجته الجميلة القويمـــة ، وقال : « يجب ان نضع النساء معاً في اقصى جناح ، وأن نحرسهن هناك ليلاً ونهاراً ، ونحكم إغلاق الأبواب ، ونعد البوابة الخلفية ــ بوابــة السلام ــ بحيث يتسنى فتحهــا بسهولة » .

وهذا ما فعلوه. فقد أخذوا النساء والأطفال وأودعوهم جميعاً الجناح الداخلي وكان الابن الأكبر ووانغ لنغ يحرسان الباب ليلا ونهاراً ، والابن الثاني يجيء كلما استطاع ، وهم جميعاً يحرصون على الحراسة آناء الليل وأطراف النهار .

ولكن كان هناك ذلك الرجل ، ابن العم . ولأنه قريبهم ، لم يكن بوسع احد ان يمنعه شرعاً . فكان يقرع البوابة ، ثم يدخل ، ويجول في انحـــاء البيت كيفما شاء .

* *

ذات يوم وبعد ان شاهد ابن العم كل شيء ، قصد الى والدته . ورافقه وانغ لنغ ليدله على الطريق فرآها راقدة في فراشها تغط في نوم عميق ، ووجد ابنهــا مشقة في إيقاظها ، ولكنه ايقظها بعد ان ظل يضرب الأرض ــ عند فراشها ــ بمؤخرة بندقيته . فأفاقت اخيراً . واخذت تحملق فيه وكأنها في حـلم . فنفد صبره وصاح بها :

ها هو ذا ابنك امامك ، ومع هذا فأنت تظلين نائمة .

فرفعت نفسها عن الفراش عندئذ وحملقت فيـــه مرة اخرى . وقالت في

تعجب : « ابني .. انه ابني .. » .

وتفرست فيه فترة طويلة .. وأخيراً ، وكأنها كانت في حيرة لا تعرف ماذا تفعل ، قدمت له غليون الأفيون ، وكأنها لا تستطيع التفكير في شيء افضل من هذا ، ثم قالت للجارية القائمة على خدماتها : « أعدي بعضاً منه له » .

فتفرس فيها ثم قال : « لا لست أريد شيئاً من هذا » .

ولكن وانغ لنغ بادر يقول : « كم وددت لو انها رضيت بأقل من هذا ، فإن ما تتعاطاه من أفيون يكلف حفنة من الفضة في اليوم ، ولكننا لم نجرؤ على أن نعارضها ، وقد بلغت هذه السن ، وهي تريد كل هذه الكمية » .

ولم يكن وانغ لنغ وأسرته يكرهون أحداً من هذا القطيع من الكسالى – الذين احتلوا الجناح الخارجي – ويخشونه ، بقدر ما كانوا يكرهون ابن العم هذا ويخشونه ..

ذلك أن ابن العم كان يهرول داخلاً إلى البيت وخارجاً منه كيفما شاء ، ليتطلع إلى الجواري . وأخيراً رأت كوكو كل هذا ، فقالت : « ليس هناك غير شيء واحد يمكن عمله ، وهو إعطاؤه جارية يلهو بها خلال مقامه هنا ، وإلا أقدم على ما لا ينبغي أن يقدم عليه » .

وفرح وانغ لنغ لما قالته ، وتشبث بالفكرة ، إذ بدا له أنه لا يستطيع تحمل الحياة بكل هذه المتاعب التي تسود بيته ، ولهذا قال : « إنها فكرة طيبة » . وأمر كوكو بأن تذهب إلى ابن عمه وتسأله عن الجارية التي يريدها لأنه كان قد رآهن جميعاً » .

وذهبت كوكو وفعلت ما أراد ، ثم عادت وقالت : « يقول إنه يريد الفتاة الصغيرة الفاتحة اللون ، التي تنام على فراش السيدة » ..

وعندما سمعت «زهرة الكمثري» الخبر صاحت : « آه ياسيدي ، لست انا ، لست انا .. اني خائفة منه على حياتي .. »

فغضبت لوتس منها .. ثم التفتت إلى كوكو وقالت : « خذي هذه الجارية وقدميها له » .

ولم يكن في استطاعة ابني وانغ لنغ معارضة زوجة أبيها ، وبالتالي لم يكن في وسع زوجتيهما المعارضة ، ولم يكن ذلـــك ميسوراً للابن الأصغر كذلك ، وإن وقف جانباً ، وأخـذ يحملق فيها ويداه معقودتان على صدره ، وحاجباه مقطبان فوق عينيه السوداوين ، ولكنه لم يقل شيئاً . كذلك وقف الأطفال والجواري يتطلعون في صمت ، ولم يكن ثمة صوت غير صوت العويل الرهيب الصادر من الفتاة الباكية الخائفة .

ولكن هـذا المشهد أمض وانغ لنغ ، فنظر إلى الفتـــاة الصغيرة في تردد ولم يعبأ بغضب لوتس ، وإنما شعر بالتأثر ، لأنـه كان على الدوام رقيق القلب . وقد استشفت الفتاة رقة قلبه هذه في وجهه ، فهرولت نحوه ، وأمسكت بقدميه في يديها ، وأحنت رأسهـــا على قدميه ، واخذت تبكي وتشهق بعنف . فنظر إليها ، ورأى ضآلة كتفيها ، وكيف كانتا تهتزان ، وتذكر جسم ابن عمه الكبير الخشن الضاري ، الذي تخطى مرحلة الشباب ، فتملكه الاشمئزاز من هـــذا الأمر ، وقال لكوكو في دعة : « حسن .. إنه لمن الشر إرغام الجارية الصغيرة بهذا الشكل » .

نطق بهذه الكلمات في دعة ورقة كبيرتين ، ولكن لوتس صاحت في حدة: « يجب أن تفعل ما طلب منها ، وإني لأقول إنه لمن الحماقة كل هـذا العويل على شيء تافه كهذا ، يجب أن يحدث إن عاجلاً أو آجلاً لجميع النساء » .

ولكن وانغ لنغ كان رقيق القلب ، فقال للوتس : « لنر أولاً ماذا يمكننا أن نفعله غير هـــذا ، فلأشتر لك جارية اخرى إذا شئت ، أو أي شيء آخر تريدينه . ولكن دعيني أر ماذا يمكن عمله » ..

وفجأ لجأت لوتس إلى الصمت ، ولا عجب فقد كانت تطمع من زمن في ساعة أجنبية الصنع ، وخاتم جديد من الياقوت. والتفت وانغ لنغ إلى كوكو وقال : « اذهبي إلى ابن عمي وأبلغيه أن الفتاة مصابة بمرض خبيث مستعص ، فإذا كان

يريدها على الرغم من ذلك ، فله ما يشاء . أما إذا خاف منها كما نخاف كلنا ، فأخبريه أن لدينا فتاة غيرها سليمة » .

وطاف بنظره يفحص الجواري الواقفات حوله ، فادرن وجوههن ضاحكات وأظهرن جميعهن الاستحياء ، عدا واحدة فلاحة ممتلئة الجسم ناهزت العشرين من عمرها أو أزيد اكتسى وجهها بالحمرة ، وقالت وهي تضحك : « لقد سمعت ما فيه الكفاية عن هذه الأشياء وأود أن أجربها ، لو رضي أن يأخذني . فهو ليس بالشخص المخيف كبعض الآخرين » .

فاستراح وانغ لنغ ، وقال : « اذهبي إذن » . وقالت كوكو : « اتبعيني عن قرب ، فإني أعرف ما سيحدث .. إنه سيلتقط أقرب ثمرة إليه » .. وخرجت الاثنتان .

ولكن الجارية الصغيرة ظلت متشبثة بقدمي وانغ لنغ ، وإن كانت قد كفت عن البكاء وراحت تستمع لما يدور حولها . وكانت لوتس لا تزال غضبى منها ، ولهذا نهضت ، وقصدت إلى غرفتها دون أن تنطق بكلمة . وعندئذ أنهض وانغ لنغ الجارية برفق فوقفت قبالته ذليلة شاحبة ، يفيض وجهها البيضاوي الصغير الناعم بالرقة والشحوب ، وفمها صغير باهت الحمرة . فقال بعطف : « ابتعدي عن سيدتك يوماً أو يومين يا طفلتي ، ريثما ينفثىء غضبها ، واختبئي عندما يأتي هذا الرجل لئلا يشتهيك مرة أخرى » .

فرفعت عينيها ونظرت إليه ، نظرة طويلة مفعمة بالعاطفة ، ثم مرت بجواره في صمت ، وكأنها طيف . واختفت .

وعاش ابن العم في البيت شهراً ونصف شهر . وكان يأخذ الفتاة الفلاحة إليه كلما شاء ، وقد حملت منه فأخذت تتفاخر بهذا في أروقة الدار ، وأخيراً دعا داعي الحرب فجأة ، وانصرف الجنود مسرعين ، وكأنهم قش عصفت به الرياح .. ولم يبق منهم غير ما خلفوه من أقذار وأنزلوه من دمار .

ووضع ابن العم خنجره في منطقته عند وسطه . ووقف أمامهم وبندقيته على كتفه ، وقال في سخرية : « إذا لم أعد إليكم ، فاني أكون قد تركت عندكم نفسي الثانية .. حفيداً لوالدتي ، وليس كل رجل بالقادر على أن يترك ابناً في كل مكان يتوقف فيه شهراً أو شهرين ، لكن هذا من مميزات حياة الجندية ، فبذوره تنبت وراءه ، وعلى غيره أن يتعهدوها » .

وقهقه في وجوههم جميعاً ، وخرج مع الآخرين ..

وعندما رحل الجنود ، بادر وانغ لنغ وابناه الكبيران إلى الاتفاق على إزالة جميع آثار ما مر بهم ، فاستدعوا النجارين والبنائين مرة أخرى ، وأخذ الخدم ينظفون الأبهاء ، وأصلح النجارون النقوش والموائد المهشمة بمهارة . وفرغت البرك مما كان فيها من قاذورات ، وملئت بمياه نظيفة . واشترى الابن الأكبر — من جديد — سمكاً ذهبي اللون ومنقطاً ، وزرع — مرة أخرى — أشجاراً يانعة ، وشذب الفروع المهشمة في الأشجار المتبقية . وما كاد ينقضي العام حتى ازدهر المكان من جديد ، وعاد كل ابن إلى جناحه ، وساد النظام مرة أخرى.

وأمر وانغ لنغ الجارية — التي حبلت من ابن عمه — بأن تقوم على خدمة زوجة عمه خلال أيام حياتها التي ما كان محتملاً أن تطول بعد الآن ، وأن تتولى وضعها في تابوتها بعد موتها . وقد اغتبط وانغ لنغ لأن هذه الجارية لم تنجب غير طفلة .. فلو أنها كانت قد أنجبت ذكراً ، لأصابها الزهو والكبرياء ، ولطالبت بمركز في الأسرة . أما بعد إنجابها أنثى فإن الأمر لم يعد أكثر من أن جارية أنجبت جارية . فلم تزد على ما كانت عليه ..

ومع هذا فإن وانغ لنغ كان منصفاً لها ، وقد منحها قليلاً من الفضة فقنعت ، ولكنها ظلت ترجو شيئاً واحداً ، حدثت وانغ لنغ به عندما أعطاها الفضة ، إذ قالت له : « احتفظ بالفضة معك ياسيدي لتكون صداقاً لي ، وأرجو — إذا لم يكن في هذا مشقة لك — أن تزوجني بفلاح أو رجل فقير طيب ، وسوف يكون ذلك خيراً عملته ، فإنني — بعد أن عشت مع رجل — سأجد من العسير

أن أعود إلى فراشي وأنام فيه وحيدة » .

فوعدها وانغ لنغ عن طيب خاطر ، وقال في تثاقل : « عندما تموت مدمنة الأفيون ، سأبحث لك عن رجل .. ولا يمكن أن يطول هذا الأمد .. »

ونفذ وانغ لنغ ما وعد به . فقد جاءت المرأة إليه ، ذات صباح ، وقالت: « آن أن تفي بوعدك ياسيدي ، فإن العجوز قد توفيت في الصباح الباكر ، دون أن تفيق على الإطلاق ، وقد وضعتها في تابوتها » .

وأخذ وانغ لنغ يفكر فيمن يعرفهم من الرجال الذين كانوا يعملون في أرضه ، وأخيراً تذكر الفتى الثرثار الذي كان سبباً في موت تشينغ ..

وكانت نزوة وانغ لنغ أن يجلس على التخت المرتفع في القاعة الكبرى ، ويستدعي الأثنين ليمثلا أمامه . وعندما فعلا هذا تحدث في بطء لكي يتسنى له أن يتذوق نكهة هذه اللحظة الغريبة ، فقال لها : « يارجل ، ها هي ذي امرأة وهي لك إذا شئت أن تأخذها .. وما عرفها أحد غير ابن عمي » .

فارتضاها الرجل ممتناً ، إذ كانت امرأة سمينة ، ميالة إلى المرح ، أما هو فكان أفقر من أن يتزوج غير مثلها ..

ونزل وانغ لنغ عن التخت ، وقد بدا له أن حياته قدبلغت ذروتها ، وأصبح أحفاده يلتفون حوله كأعواد الغاب : ثلاثة أحفاد من ابنه الأكبر ، أكبرهم في العاشرة من العمر ، واثنان من ابنه الثاني .. وهناك ابن ثالث .. لن يلبث أن يتزوج ، فلا يبقى بعد هذا ما يقلقه في حياته .. بل بوسعه ـ بعد ذلك ـ ان يعيش في دعة وسلام ..

غير أنه لم يكن هناك سلام .. ويبدو ان مجيء الجنود كان أشبه بمجيء سرب من النحل البري الذي يترك وراءه وخزات أينما حل ، فان زوجة الابن الأكبر وزوجة الابن الثاني ، اللتين ظلت كل منهما تظهر قدراً كبيراً من الود للأخرى إلى أن اضطرتا الى الإقامة معاً في جناح واحد ، تعلمتا الآن أن تكره الواحدة

منهما الأخرى كرهاً شديداً ، نشأ عن مئات من المشاجرات الصغيرة ..

ثم كان هناك ذلك اليوم الذي جامل فيه ابن العم الزوجة الريفية وسخر من الزوجة القادمة من المدينة . وهي مناسبة لم تكن لتغتفر على الإطلاق ، فكانت زوجة الابن الأكبر ترفع رأسها في تعال كلما مرت بزوجة الابن الثاني . وفي احد الأيام قالت لزوجها بصوت عال ، وهي مارة : « من المخزي أن تضم الأسرة امرأة جريئة سيئة التربية إلى حد أن يناديها شخص ويصفها باللحم الأحمر وتضحك له » ..

ولم تسكت زوجة الابن الثاني إزاء هذا ، بل بادرت الى الرد بصوت مرتفع تقول : « إن سلفتي أصبحت تغـــار لأن رجلاً لم يصفها بأكثر من قطعة من السمك البارد .. » .

وهكذا كرهت كل منهما الأخرى ، وأخذت هذه الكراهية تشتد على مر الأيام ، ومما زاد الأمر سوءاً أن الشقيقين لم يكونا متحابين جـداً ، وكان الابن الأكبر على خوف دائم لئلا يبدو مولده ومركز أسرته وضيعين في نظر زوجته التي نشأت في المدينة ، وكانت أكرم منبتاً منه . كما كان الابن الثاني يخشى من أن تؤدي رغبة شقيقه في الإنفاق والرفعة إلى القضاء على الميراث قبل تقسيمه . وكان الأخ الأكبر يشعر الى جانب هذا بالضيق لأن الابن الثاني كان ملماً بجميـع الأموال التي يملكها والدهما ، وما ينفقه منها ، كما أن الأموال كانت تمر بين يديه . ومع أن وانغ لنغ كان يتلقى الأموال وينفقها بنفسه فإن الابن الثاني كان يعرف كل شيء عنها ، في حين لم يكن الابن الأكبر يعرف شيئاً ، وإنما كان يتعين عليه أن يذهب الى والده ويطلب منه هذا وذاك وكأنه طفل ..

لهذا ، فعندما كرهت كل من الزوجتين الأخرى ، امتدت هذه الكراهية الى الرجلين أيضاً ، وساد الغضب كل من في الجناحين ، وأخذ وانغ لنغ يزمجر لانعدام السلام في بيته ..

وكانت لوانغ لنغ أيضاً متاعبه الخاصة الخفية مع لوتس ، منذ اليوم الذي

حمي فيه جاريتها من ابن عمه ، فعند ذلك اليوم لم تظفر الفتــاة بحظوة لدى لوتس . فقد كانت تغار من الفتاة ، ولهذا كانت تصرفها من الغرفة عندما يحضر وانغ لنغ وتتهمه بأنه يتطلع الى الفتاة ، ولكنه في الواقع لم يكن ، الى ذلك الحين ، قد فكر في الفتاة أو نظر إليها إلا كطفلة صغيرة مسكينة اعتراها الخوف فبذل لها من الرعاية ما كان يبذله لفتاته البلهاء المسكينة فحسب . ولكن اتهام لوتس له جعله يفطن إلى الفتاة ويتفرس فيها ، فوجدها بالفعل بارعة الحسن ، شاحبة كزهرة الكمثري ، وإذ شاهد هذا أحس بشيء يتحرك في دمه المكتهل ! شيء ظل هادئاً مستكيناً طوال السنوات العشر الماضية ..

وفي حين كان يضحك من لوتس ويقول : « ماذا ؟ .. أتظنني أنني لا أزال تواقاً الى الغزل والهوى ، وأنا الذي لا آتي الى غرفتك سوى ثلاث مرات في العام » .. راح في الوقت نفسه يختلس النظرات الى الفتاة من طرف عينيــه ، فتثور لواعجه ..

وكأن المتاعب التي أحدثتها النساء في بيته لم تكن كافية .. فلم يلبث ابنه الأصغر ان جلب له متاعب جديدة .. كان ابناً هادىء الطباع منصرفا إلى كتبه إلى حد لم يعد معه احد يفكر فيه إلا باعتباره شاباً نحيفا ضامر الجسم يحمل على الدوام كتبا تحت إبطه ويتبعه مدرس متقدم في السن .

ولكن هذا الصبي عاش بين الجنود عندما حلوا ببيتهم ، وسمع القصص التي كانوا يروونها عن الحرب والأسلاك والمعارك . وكان يصغي إليهم في اهتمام دون ان ينبس ببنت شفة ، ولم يلبث ان رجا مدرسه ان يأتيه بروايات وقصص عن حروب الممالك الثلاثة ، وعن العصابات التي كانت تعيش في العصور القديمة قرب بحيرة سيوى . وهكذا امتلأ عقله بالأحلام ، فذهب الى والده وقال له : « اني اعرف ما أريد ان افعل .. أريد أن أكون جنديا ، وأن اذهب لتوي لأشترك في الحروب .. » .

وعندما سمع وانغ لنغ هــــذا القول تملكه الحزن وخيل له ان هذا اسوأ

ما يمكن ان يحدث له ، فصاح بصوت جهوري : « وأي جنون هـــذا ؟ أفما أستطيـــع ان انعم بالهدوء مع ابنائي ؟ ..» .

ولكن الصبي كان مصراً على رأيه ، فنظر الى والده ، وقطب حاجبيـه ، واكتفى بقوله : « لسوف اذهب » .. فأخذ وانغ لنغ يغريه بقوله : « يمكنك ان تذهب الى أية مدرسة تحبها ، وسوف ارسلك الى اعظم المدارس في الجنوب بل الى مدرسة اجنبية لتتعلم اشياء غريبة .. لك ان تذهب الى اي مكان تريده للدراسة إذا لم تصبح جنديا، انه لعار على رجل مثلي .. رجل يملك فضة وأرضا ان يصبح ابنه جنديا » ..

وعندما رأى الصبي مستمراً في صمته ، عاد يغريه من جديد بقوله : « قل لوالدك الشيخ ، لماذا تريد ان تكون جنديا ؟ » .. فرد الصبي فجأة وعينـــاه تبرقان تحت حاجبيه : « ستنشب حرب لم نسمع بمثلها على الاطلاق وستحدث ثورة وينشب قتال لم يسبق لهما مثيل ، ثم تصبح ارضنا حرة . »

وأصغى وانغ لنغ وقد اصابته دهشة لم يثرها فيه قبل ذلك اي من أبنائه الثلاثة .فقال بتعجب : « اخبرني . ما هذا الهراء كله ؟ .. لست ادري شيئا من هذا .. ان ارضنا حرة فعلا .. كل ارضنا الطيبة حرة ، واني اؤجرها الى من اشاء ، فتعود عليّ بالفضة والحبوب الطيبة ، وتأكل انت منها وتلبس وتتغذى ولست ادري اية حرية تريدها اكثر من التي تتمتع بها الآن » ..

ولكن الفتى غمغم في مرارة : « انك لا تفهم .. فقد تقدمت بك السن الى حد اصبحت لا تستطيـــع معه إدراك شيء . »

واخذ وانغ لنغ ينكر ، فحدث نفسه قائلاً : « اني منحت هذا الابن كل شيء .. حتى حياته نفسها ، فهو قد استمد كل شيء مني ، وقد سمحت له بترك الأرض ، فلم يعد لي ولد يعني بالأرض من بعدي . ويسرت له معرفة القراءة والكتابة ، وان لم تكن هناك اية حاجة إليهما في اسرتي ، لأن عنـــدنا ولدين آخرين متعلمين » .

وظل يفكر في هذه الأمور . وأضاف يحدث نفسه : « ان هذا الابن قد استمد كل شيء مني » ..

واخذ يحدج الفتى بنظره ، فرأى انه اصبح فارع الطول كالرجال ، وإن كان يعد يافعا ، ثم قال بصوت منخفض نسبيا ، وهو متردد ، لأنه لم ير اية بادرة توحي بالشهوة في هذا الصبي : « لعله بحاجة إلى شيء آخر فوق ذلك » . ثم قال بصوت عال ، وفي بطء : « كما اننا سنزوجك يابني في القريب العاجل » .

ولكن الصبي حدج والده بنظرة انبعث منها الشرر من تحت حاجبيه المقطبين ، وقال بازدراء : « إذن سأولي هاربا من هنا حقا ، لأن المرأة بالنسبة لي لا تحقق كل آمالي ، كما هي بالنسبة لأخي الأكبر » .

وادرك وانغ لنغ في الحال انه اخطأ ، فأسرع يقول مبرراً نفسه : « لا..لا.. لن نزوجك ، ولكني اعني انه إذا كانت هناك جارية ترغب فيها . » . فرد الصبي بنظرات مفعمة بالكبرياء والشمم ، بعد ان عقد ذراعيه على صدره : « انني لست شابا عاديا ، وإنما لي مطامعي واتوق الى المجد ..اما النساء فكثيرات وفي كل مكان .. » .

واستدرك الصبي ، وكأنه تذكر شيئا كان قد نسيه ، وتخلى فجأة عن كبريائه ، وسقط ذراعاه عن صدره ، وقال بصوته العادي : « وفضلاً عن هذا ، فليس ثمة مجموعة من الجواري اقبح من اللواتي عندنا ، وإذا كنت ابالي بواحدة منهن — والواقع انني لست ابالي — فلا ارى فيهن جميلة اللهم إلا تلك الجارية الشاحبة الصغيرة القدم ، التي تقوم على خدمة السيدة في الجناح الداخلي » .

وادرك وانغ لنغ انه يتحدث عن « زهرة الكمثري » ، فشعر بغيرة عجيبة تنهش قلبه ، احس فجأة بأنه اكبر سنا مما هو ، ورأى انه شيخ ضخم الجثة ، اشيب الشعر ، بينما ابنه رجل نحيل الجسم ، في مقتبل الشباب ، ولم يصبحا — في تلك اللحظة — ابا وإبنا ، انما كانا رجلين ، احدهما شيخ والآخر شاب ،

فقال وانغ لنغ بغضب : « ابتعد عن الجواري ، فلست ارضى في بيتي بتلك الأساليب الشائنة التي اعتادها ابناء الأشراف ، وما نحن إلا قوم من الريف ، حميدو الشمائل ، معتصمون بالأخلاق الفاضلة ، ولن يكون في بيتي شيء من هذا القبيل » .

وفتح الصبي عينيه دهشة ، ورفع حاجبيه الكثيفين ، وهز كتفيه ، وقال لوالده : « أنت الذي تحدثت عن هذا الأمر أولاً » . ثم تحول وانصرف خارجا ، وبقي وانغ لنغ وحده في غرفته ، جالساً الى المائدة . وشعر بالوحدة والوحشة واخذ يتمتم لنفسه قائلاً : « لم يعد هناك سلام في أي مكان في بيتي .. » .

لم يستطع وانغ لنغ ان يبعد عن فكره ما قاله ابنه الأصغر عن « زهرة الكمثري » فصار يرقبها على الدوام ، كلما جاءت او ذهبت . واحتل تفكيره فيها كل عقله ، دون ان يفطن ، وهام بها ، ولكنه لم يتحدث بذلك الى احد ..

وفي ليلة من ليالي اوائل صيف ذلك العام ، طلب هواؤها ، وشاع فيه الدفء والعبيق ، جلس وانغ لنغ وحيداً في فناء بيته تحت شجرة « أكاسيا » مزدهرة وقد ملأ عبير زهرها مشمّيه . وشعر وهو جالس هناك بالدم يجري فتياً حاراً في عروقه ، وكأنه دم شاب ، وكان قد شعر طول يومه بهذا الشاب ، حتى لقد فكر في ان يخرج ليمشي على ارضه ويشعر بتربتها الطيبة تحت قدميه .. وان يخلع نعليه وجوربيه ليحس بها قدماه الحافيين ..

كان يود ان يفعل ذلك ، ولكنه خجل من ان يراه الناس ، لهذا أخذ يتجول في ارجاء بيته والقلق مستبد به . وابتعد كلية عن الجناح الذي تقيم فيه لوتس ، ومن ثم سار وحده .. ولم يشأ ان يرى اية واحدة من زوجتي ابنيه المتشاجرتين ولا حتى احداً من احفاده الذين كانوا عادة مصدر بهجته ..

وهكذا مر اليوم طويلاً ومملاً ، وعندما حـــل الليل كان لا يزال وحيداً ، جالساً في جناحـــه بمفرده . ولم يكن في البيت كله شخص يمكنه أن يتجه

إليه فيحدثه كصديق . وكان هواء الليل ثقيلاً حاراً ، يتضوح بعبير أزهار شجر الأكاسيا .

وبينما هو جالس هكذا في الظلام – تحت الشجرة – مر شخص بجوار المكان الذي جلس فيه ، قرب بوابة جناحه ، حيث تقوم الشجرة . فرفع نظره بسرعة ، وتبين أن الشخص هو « زهرة الكمثري » ، فناداها بقوله « يا زهرة الكمثري ! » ، وخرج صوته أشبه بالهمس ، فتوقفت الفتاة فجأة ، ومالت برأسها لتنصت . فكرر النداء وصوته لا يكاد ينبعث من حنجرته ، وقال : « تعالي هنا إلي ! » .

فلما سمعته دلفت في خوف ، من خلال البوابة ، ووقفت أمامه ، وهو لا يكاد يتبينها ، وهي واقفة في الظلام . ولكنه كان يشعر بها هناك ، فمد يده وأمسك بقميصها الصغير ، وقال وهو يكاد يختنق : « أيتها الطفلة . . ! » ولكنه توقف ، ولم يزد على هذا النداء . وإنما قال في نفسه ، إنه رجل طاعن في السن ، وكان ذلك الشيء مشيناً بالنسبة لشخص مثله ، له أحفاد وحفيدات تقرب أعمارهم من سن هذه الطفلة . وراح يعبث بقميصها وكانت – هي واقفة تنتظر – قد انتقلت إليها حرارة دمائه ، فمالت وانزلقت إلى الأرض ، وكأنها زهرة تسقط عن جذعها . وأمسكت بقدميه . فقال لها في بطء : « أيتها الطفلة .. إنني شيخ . شيخ طاعن في السن » . فتكلمت ، وخرج صوتها في وسط الظلام ، كأنه زفرة ندت عن شجرة الأكاسيا ، وقالت : « إنني أحب الشيوخ .. إنني أحب الشيوخ ، لأنهم رفقاء » .

وعندما سمع صوتها الصغير يختلج عند قدميه ، طغت على قلبه موجة حب عارم لهذه الفتاة ، فأمسك بها ، وأنهضها برفق ، وقادها إلى داخل غرفته .

ولما انتهى الأمر ، أدهشه هذا الحب في سنه هذه ، أكثر من دهشته لأي شهوة سابقة إذ أنه مع كل حبه لزهرة الكمثري ، لم يحتضنها بعنف كما احتضن الأخريات اللاتي عرفهن ، بل كان يمسكها برفق ، ويقنع بالشعور بملمس شبابها

الخفيف على لحمه الثقيل الطاعن في السن . وصار يقنع بمجرد رؤيتها في النهار ، وبلمس قميصها الذي يهفهف مع الهواء وباقتراب جسدها ودنوه منه في الليل . فعجب لحب الشيوخ الذي يتميز بالتدله والهيام ، ويسهل إرضاؤه هكذا .

أما هي ، فكانت فتاة بلا شهوة ، وإنما تعلقت به كما تتعلق الابنة بأبيها ، وكانت بالنسبة له أكبر من طفلة ، ولكنها لم تبلغ بعد مرتبة المرأة .

وظل ما فعله وانغ لنغ سراً لم ينكشف بسرعة ، لأنه لم يقل شيئاً عنه على الإطلاق . ولماذا ما دام هو سيد بيته ؟ غير أن عين كوكو كانت أول من لمحت الأمر . ورأت الفتاة وهي تتسلل في الفجر من غرفته ، فأمسكت بها وضحكت ، ولمعت عيناها اللتان تشبهان عيني الصقر ، وقالت : « وهكذا تعود قصة السيد الشيخ من جديد » .

وسمعها وانغ لنغ من غرفته ، فهرع إلى ثوبه ولفه حول جسمه ، وخرج مسرعاً . وابتسم لها في حياء ، وبشيء من الزهو ، وقال متمتماً: «لقد قلت إنه من الخير لها أن تختار صبياً صغيراً ، ولكنها آثرت الشيخ الكبير » . فقالت كوكو وعيناها تلمعان خبثاً ودهاء : « ما أبدع أن تسمع السيدة بذلك » . فرد وانغ لنغ ببطء : « أنا نفسي لا أعرف كيف حدث هذا ، ولم يكن في نيتي أن أضيف امرأة أخرى إلى داري ، ولكن الأمر حدث من تلقاء نفسه » . فقالت كوكو : « يجب أن تعلم السيدة بهذا الأمر » .

وكان وانغ لنغ يخاف غضب لوتس أكثر من أي شيء آخر ، ولهذا اخذ يستعطف كوكو قائلاً : « أخبريها أنت إذا شئت .. وإذا أمكنكِ أن تفعلي هذا دون أن تثيري غضبها عليّ ، فسأمنحك في سبيل هذا قبضة من المال » .

فوعدته كوكو بذلك ، وهي تضحك وتهز رأسها . وعاد وانغ لنغ إلى جناحه ، فلم يبارحه ، إلا بعد أن عادت كوكو ، وقالت « لقد أخبرت السيدة

بالأمر ، فثارت غضباً ، إلى ان ذكرتها بالساعة الواردة من الخارج ، والتي طالما تاقت إليها ووعدتها انتبها. وقلت لها إنها سيكون لها خاتمان من العقيق. خاتم في كل يد .. وانها ستحصل ايضاً على الأشياء الأخرى التي تفكر فيها ، وسيكون لها جارية اخرى تحل محل « زهرة الكمثري » على ألا تدخل إليها « زهرة الكمثري » مرة اخرى ، ولا تذهب أنت الآخر إليها في الوقت الحاضر لأنها تشمئز من رؤيتك » .

فوعدها وانغ لنغ في الحال بكل هذا ، وقال : « أحضري لها كل ما تشاءه ، ولن أبخل عليها بشيء » . وسره ألا يرى لوتس قريباً ، حتى تهدأ سورة غضبها بعد تحقيق رغباتها .

ولكن .. بقي هناك أولاده الثلاثة ؛ وقد شعر نحوهم بخجل غريب مما فعل . ولكنه اخذ يكرر لنفسه هذه العبارة : « ألست سيد هذا البيت ؟ وأليس لي ان استولي على جاريتي التي اشتريتها بفضتي ؟ » . ولكنه كان خجلاً ، وإن شعر بشيء من الزهو ايضاً ، كما يشعر المرء الذي لا يزال فيه بقية من الشباب ، بينما ينظر إليه الآخرون على أنه مجرد جد لا اكثر ... واخذ ينتظر ابناءه ليأتوا إليه في جناحه .

وقد حضر واحداً بعد الآخر ، كل على حدة . وكان اولهم في الحضور الابن الثاني ، الذي اخذ يتحدث عن الأرض والمحصول والجدب الذي سيحل في الصيف وسيؤدي إلى تقسيم المحصول إلى ثلاثة اقسام .

واخذ في الوقت ذاته ينظر هنا هناك — مسترقاً النظر إلى الغرف . فأدرك وانغ لنغ انه يبحث عن الجارية ليعرف إن كان ما سمعه حقيقة ، ولهذا نادى « زهرة الكمثري » من مخبئها — في غرفة النوم — وقال لها : « احضري لي شاياً يا صغيرتي واحضري شاياً لابني ايضاً » .

فخرجت وكان وجهها الشاحب الرقيق قد أصبح وردي اللون كالخوخة .

وأخذت تسير مطأطئة الرأس ، في خفة ، على قدميها الهادئتي الوقع . وحلق الابن الثاني فيها ، وكأنه سمع من قبل ولكن لم يستطع ان يصدق حتى الآن .

وأخذ يتجاذبان اطراف الحديث على هذا النمط ، وهما يحتسيان الشاي . وملأ الابن الثاني عينيه مما رآه ثم انصرف . فتنفس وانغ لنغ الصعداء وشعر انه استراح من ابنه الثاني .

وجاء الابن الأكبر قبل ان ينتصف نهار ذلك اليوم . وكان فتى مديد القامة جميلاً مزهواً بسني نضجه . وكان وانغ لنغ يخشى عجرفتـه ، فلم يناد « زهرة الكمثري » في بادىء الامرَ ، وإنما انتظر وهو يدخن نرجيلته . وجلس الابن الأكبر بادي الزهو والخيلاء ، وسأل والده عن حالته الصحية ورفاهيته ، فرد وانغ لنغ بسرعة وهدوء ، قائلا إنه في خير حال . وعندما تفرس في ابنه الأكبر وتفحصه زال خوفه منه ، إذ رآه على حقيقته .. كان رجلاً كبير الجسم ، ولكنه كان يخاف زوجته التي نشأت في المدينة ، ويخشى ألا يبدو نبيل للولد اكثر مما يخشى اي شيء آخر . وانتشى وانغ لنغ بعنفوان قوته المستمدة من فلاحـــة الأرض والتي لم تفارقه حتى حين كان لا يقدر وجودها ، وعـــاد يظهر عدم الاكتراث بابنه الأكبر ، كما كان يفعل من قبل ، ولا يهتم بمظهره المتعالي . وفجأة نادى « زهرة الكمثري » بصوته الطبيعي وقال : « تعالي يا طفلتي وصبي الشاي مرة اخرى لابني الآخر » .

وخرجت في هذه المرة وهي في أقصى حالات الفتور والسكون . وكان وجهها البيضاوي الشكل أبيض كالزهرة التي تحمل اسمها ، وقد خفضت عينيها وهي تدخل ، وأخذت تتحرك في سكون ، ولم تفعل غير ما طلب منها ان تفعله ، ثم خرجت بسرعة .

وظل الرجلان جالسين في هدوء ، وهي تصب لهما الشاي ، حتى إذا خرجت ، ورفعا قدحي الشاي ليحتسيا ما فيهما ، أخذ ولنغ لنغ يتفرس في عيني لبنه ،

فلمح نظرة إعجاب سافرة . . وكانت نظرة رجـل يحسد آخر في سره . ثم احتسيا الشاي ، وأخيراً قـال الابن في صوت غليظ غير متزن : « لم أصدق الأمر هكذا » . فـأجاب وانغ لنغ في هدوء يقول : ولم لا ؟ إن هذا بيتي » .

فتنهد الابن . وبعد فترة من الوقت ، قال : « إنك غني ولك أن تفعل ما تحب » . وتنهد مرة أخرى وقال « أعتقد أن واحدة ليست كافية لأي رجل على الدوام .. ودائماً يأتي يوم .. » وقطع حديثه ، وإن بدت في نظرته لمحة من يحسد آخر ضد إرادته ، ورأى وانغ لنغ هذا ، فضحك في نفسه لأنه كان يدرك تماماً طبيعة ولده الشهوانية ، وأن زوجته بنت المدينة لن تظل مسيطرة عليه على الدوام ، وسوف يعود الرجل في يوم ما إلى ما كان عليه .

وارخى الليل سدوله قبل ان يأتي الابن الأصغر . وقـد اتى منفرداً ايضاً وكان وانغ لنغ – في ذلك الوقت – جالساً يدخن في الغرفة الوسطى منجناحه ، وقد اضيئت الشموع الحمراء على المنضدة .

وفجأة ، راى ابنه الأصغر واقفا امامه . وقد برز من ثنايا الظلام الذي يملأ الجناح ولم يره وهو يدخل. ولكنه وقف هناك منحنيا بطريقة غريبة ، فومضت في ذاكرة وانغ لنغ – دون أن يفكر في الأمر – ذكرى نمر او قط رآه مرة ، عندما اتى به رجال القرية من التلال التي أمسكوه فيها . . وكان مقيداً ، ومع هذا فقد حاول القفز ، وبرقت عيناه .. وكذلك كانت عينا الفتى تبرقان وهو يتبعهما على وجه والده ، وقد قطب حاجبيه فوق عينيه .. الحاجبان الكثيفان ، اللذان كانا شديدي السواد إلى حد لا يتفق مع شبابه . وهكذا وقف الشاب . واخيراً ، قال بصوت هادىء متأهب للمشاكسة : « والآن ، انا ذاهب لأكون جندياً .. انا ذاهب لأكون جندياً . . » . ولكنه لم ينظر إلى الفتاة ، وإنما كان ينظر إلى أبيه وحده . والعجب في الأمر أن وانغ لنغ – الذي لم يخف إطلاقاً من ابنه الأكبر ولا ابنه الثاني – شعر فجأة بالخوف من هذا الفتى الذي

لم يحفل بأمره – منذ مولده – إلا نادراً . فأخذ يتمتم ويدمدم . واراد ان يقول شيئاً ، ولكن ما من صوت انبعث منه عندما اخرج مشرب النرجيلة من فمه ، وإنما ظل يحملق في ابنه الذي راح يكرر : « سأذهب الآن .. سأذهب الآن .. » . ثم التفت الى الفتاة فجأة ، فنظرت اليه وهي تنكمش ، ثم غطت وجهها بيديها حتى لا تراه ، فانتزع الشاب عيناه منها وهرول خارجاً من الغرفة ، ونظر وانغ لنغ الى مستطيل الظلام الذي يمثل فتحة الباب المؤدية الى ليلة صيف مدلهمة .. فوجد الصبي قد انصرف ، والسكون قد خيم على المكان .

وأخيراً التفت وانغ لنغ الى الفتاة وتحدث اليها برفق واتضاع ، وفي حزن شديد ، وقد فارقه شعور بالزهو والفخر ، فقال : « انني كبير السن بالنسبة لك يا حبيبة القلب ، واني لأعلم ذلك علم اليقين .. انني شيخ كبير طاعن في السن ! » .

ولكن الفتاة أنزلت يديها عن وجهها ، وبكت في حرارة لم يسمعها منها من قبل ، وقالت : « ان الشبان قساة القلوب ، وانا أوثر الشيوخ وأفضلهم ! » .

وعندما انبلج صباح اليوم التالي ، كان الابن الأصغر لوانغ لنغ قد رحل الى حيث لم يدر أحد .

* * *

وكما يضطرم الخريف بحرارة صيف كاذبة قبل ان يستحيل شتاء ، كذلك كانت سرعة حب وانغ لنغ لزهرة الكمثرى ، فقد زالت حرارته القصيرة وانقضت شهوته ، فصار شغوفاً بها ولكن بلا اشتهاء . ولما خبت الشعلة فيه ، اصبح فجأة شيخاً بارد الحس بفعل السن . ولكنه ظل ميالا اليها ، مرتاحاً الى وجودها في جناحه . وكانت تخدمه بأمانة وصبر لا يتفقان مع سنها .

ومن أجله كانت رحيمة بابنته البلهاء المسكينة ، وهــذا ما اثلج صدره ، وحمله – في يوم ما – على ان يفضي اليها بما ظل فترة طويلة يخفيه في فكره . فقد فكر مرات كثيرة فيما قد يحل بهذه الفتاة البلهاء المسكينة بعد موته ، إذ لم يكن هناك سواه من يعني بها او يبالي سواء عاشت او ماتت جوعاً ولهذا اشترى حزمة صغيرة من مادة سامة بيضاء ، من احد متاجر الأدوية ، وقال لنفسه انه سيعطيها لفتاته البلهاء لتأكلها عندما يحس بدنو أجله .ولكنه – مع هذا – كان يخشى هذه اللحظة اكثر من خشيته ساعة موته هو . ولهذا شعر بالراحة عندما رأى « زهرة الكمثرى » على هذه الأمانة والإخلاص .

فناداها – ذات يوم – وقال لها : « ليس هناك احد غيرك يمكنني ان اترك له هذه البلهاء المسكينة بعدما أرحل عن هــــذا العالم . ان في هذه اللفافة باب الأمان لها ، وما عليك بعد موتي إلا ان تخلطي محتوياتها بقدر من الأرز ، ثم تعطيه لها لتأكله ، حتى تتبعني الى حيث ارحل ، وبذلك اكون مستريحاً ».

ولكن « زهرة الكمثرى » أجفلت من الشيء الذي كان يمسكه في يــده ، وقالت في ضعفها ونعومتها المألوفين : « انني لا اقــوى ولو على قتل حشرة ، فكيف يمكنني ان أنتزع حياة ؟.. لا يا سيدي ، وإنما سآخذ هذه البلهاء المسكينة في رعايتي ، لأنك كنت رحيما بي ، بل كنت أرحم من أي شخص عرفته طوال حياتي . فأنت الوحيد الذي اظهر لي الرحمة » .

وكاد وانغ لنغ ان يبكي لما قالت ، لأن إنساناً أياً كان لم يظهر له مثل هذه العاطفة ، فتعلق قلبه بها وقال : « خذيها يا بنيتي ، فليس ثمة من أثق به كما اثق بك .

وأخذ وانغ لنغ يوغل في الكبر ، وصار يوثر العزلة ولا يختلط إلا بهاتين الاثنتين . طفلته البلهاء المسكينة و « زهرة الكمثرى » . وكان احيانا ينهض قليلا ، ويتطلع الى « زهرة الكمثرى » فيثقل الهم قلبه ، ويقول لها : « إنهــا

حياة شديدة الهدوء بالنسبة لك ياطفلتي » . ولكنها كانت تجيبه على الدوام ، بلطف وامتنان ، قائلة : « إنها حياة هدوء وأمن » .

وأحياناً كان يعيد عليها القول : « انني كبير السن بالنسبة لك ، والنيران التي في ضلوعي أصبحت رماداً » . ولكنها كانت دائماً ترد عليه بالشكر وتقول : « إنك رحيم بي ، وأنا لم أرد يوماً من رجل أكثر من هذا .. » .

وتملكه مرة حب الاستطلاع ،عندما قالت له هذه العبارة ، فسألها : «ماذا حدث لك في صغرك فجعلك تخافين من الرجال إلى هذا الحد ؟ » . وتطلع إليها منتظراً الرد ، فرأى آيات رعب شديد مرتسمة في عينيها اللتين ما لبث أن غطتهما بيديها وقالت في همس : « انني أكره كل رجل إلاك ، وقد كرهت جميع الرجال ، حتى والدي الذي باعني ! .. لم اسمع عنهم غير الشر ، ولهذا أكرههم جميعاً .. » .

فقال متعجبا : « كنت أخال انك عشت عيشة ميسرة هادئة في بيتي » . فأجابت : « ان قلبي مفعم بالاشمئزاز » . وأشاحت بوجهها عنه وهي تقول : « إنني في أشد حالات الاشمئزاز .. وانا اكرههم جميعا .. انني اكره جميع الشبان .. » .

وهكذا كان وانغ لنغ يجلس في بيته ، وأخذت حياته تتتابع يوما بعد يوم، وعاما بعد عام . وصار ينام تحت الشمس ، كما كان ابوه يفعل في سالف الأيام ، ويقول لنفسه ان حياته قد انتهت وانه قانع بها ، راض عنها .

وأحيانا كان يذهب الى الأجنحة الأخرى .. وكان يرى لوتس ، ولكنها لم تذكر الفتاة التي أخذها على الإطلاق ، وإنما كانت تقابله بالترحاب . وكانت هي الأخرى قد هرمت ، وقنعت بالطعام والخمر اللذين كانت تحبهما ، واكتفت بالفضة التي كانت تظفر بها كلما طلبت .. وكانت تجلس هي وكوكو ـ بعد مضي هذه السنوات الكثيرة ـ كصديقتين لا كسيدة وخادمة ، وتتحدثان عن

عن هذا الأمر وذاك ، وخاصة عن الأيام السالفة التي قضيناها مع الرجال ..

وكان وانغ لنغ إذا ذهب إلى غرفة أولاده عاملوه في ود ، وهرعوا الى اعداد الشاي له . وكان يطلب رؤية آخر حفيد ولد له ، ويسألهم مراراً - لأنه كان كثير النسيان - قائلاً : « كم حفيداً أصبح لي الآن ؟ » . فيجيبه أحدهم : « أحد عشر ولداً ، وثماني بنات لا بنيك كليهما » . فيضحك ويقول : « أضيفوا اثنين في كل عام وانا اعرف العدد ، أليس كذلك ؟ » .

ثم كان يجلس فترة ، ويتطلع الى الأطفال وهم يتجمعون حوله ويتفرسون فيه ، وكان احفاده قد أصبحوا طوال القامة ، فراح يتطلع إليهم ، ويتفرس فيهم ليفحصهم وهو يتمتم لنفسه قائلاً : « ان لهذا الصبي ملامح جده الأكبر ، وها هو ذا آخر شبيه بليو التاجر ، وهذه صورة مني عندما كنت صغيراً » ، ثم يسألهم : « هل تذهبون الى المدرسة ؟ » فيردون عليه بأصوات متنافرة قائلين : « أجل يا جدنا » فيعود الى سؤالهم : « هل تدرسون الكتب الأربعة ؟ » ، فيضحكون في سخرية طفلية واضحة ، لأنه رجل متأخر وغير عصري بهذه الدرجة ، ويقولون . « لا ، ياجدنا فلم يعد هناك من يدرس « الكتب الأربعة » منذ الثورة » . فيقول متأملاً : « آه .. لقد سمعت عن ثورة ، ولكني كنت مشغولاً للغاية طول حياتي ، بحيث لم استطع الاشتراك فيها ، إذ كانت الأرض هي على الدوام شغلي الشاغل .. » .

ولكن الصبية كانوا يضحكون خلسة لذلك ، واخيراً ، كان وانغ لنغ ينهض وهو يشعر بأنه مع كل هذا لم يكن سوى ضيف في اجنحة ابنائه ..

وفي مرة سأل كوكو : « هل هناك من سمع عن ابني الأصغر ، وإلى أين ذهب كل هذه الفترة الطويلة ؟ » . فأجابته كوكو : « انه لا يكتب خطابات ، ولكن احياناً يفد شخص من الجنوب ، فنعرف منه انباءه . ويقال له اصبح ضابطاً في الجيش ، وله شأن كبير في شيء هناك يقال له الثورة ، ولكني لا ادري ما هي ، وربما كانت نوعاً من الأعمال » . وتأوه وانغ لنغ في هذه المرة ايضاً ..

وكلما حل الربيع وعاد مرة بعد مرة ، كان وانغ لنغ ، يشعر باقترابه ، في شيء من الغموض والإبهام كلما كرت الأعوام .. شيء واحد ظل باقياً لم يتزحزج وهو حبه لأرضه ، وكان قد ابتعد عنها ، ومع انه كان ينساها شهوراً كثيرة متوالية ، فانه ظل يشعر ، كلما حل الربيع في كل عام ، بأنه لا بد له من ان يخرج الى ارضه . ومع انه لم يعد قادراً على جر محراث في الأرض أو او على اداء اي عمل سوى ملاحظة غيره .

وهكذا كان يتجول في يوم من ايام نهاية الربيع ، والصيف على وشك الحلول ، فذهب الى حقوله ، وسار فيها قليلاً حتى وصل الى المكان المسور الذي دفن فيه موتاه . فوقف معتمداً على عصاه ، وهو يرتجف واخذ يتطلع الى القبور ، ويتذكر من فيها واحداً واحداً ، وقد اصبحوا الآن اقرب إليه من ابنائه الذين كانوا يعيشون معه في البيت .. صار الموتى اكثر وضوحامن الجميع ، ما عدا طفلته البلهاء المسكينه و « زهرة الكمثري » . وكرت به ذاكرته راجعة سنوات كثيرة الى الوراء ، فتجلى له كل شيء في حياته واضحا ، حتى طفلته الثانية الصغيرة ، التي لم يسمع عنها شيئا منذ زمن اطول من ان يتذكره .. تمثلها غادة جميلة كما كانت في بيته ، ذات شفتين رفيعتين وحمراوين ، وكأنهما شريط من الحرير ، وكانت مفقودة بالنسبة إليه شأن الآخرين الذين يتوسدون الثرى ، فأخذ يتأمل ، ثم تذكر فجأة ، وقال لنفسه : « ان دوري سيكون التالي » . ثم دخل المقبرة ، ورأى البقعة التي سيدفن فيها اسفل من والده وعمه ، وفوق تشينغ ، وغير بعيد عن « أولان » . وأمعن النظر في تلك القطعة من الأرض التي سيرقد فيها جسده ، وتمثل نفسه مدفوناً فيها ، وقد عاد إلى أرضه ليظل فيها إلى الأبد ، فغمغم يقول : « يجب ان ابحث عن تابوت » ..

وتركزت هذه الفكرة في عقله ، فلما عاد الى المدينة استدعى ابنه الأكبر وقال له : « هناك شيء أود أن اقوله لك » . فقال الابن : «قل فإني مصغ إليك»

ولكنه عندما هم بالكلام نسي فجأة ما كان يريد ان يقول ، فتحدرت

الدموع من عينيه ، لأنه كان قد اهتم بهـــذه المسألة وركز عقله عليها فاذا بها تتبخر ، لهذا دعا « زهرة الكمثري » وقال لها : « ماذا كنت اريد ان اقول ياطفلتي ؟ » . فأجابته « زهرة الكمثري » برقة : « اين كنت اليوم ؟ » فقال لها مترقباً الإجابة وعيناه مثبتتان عليها : « كنت في الأرض ». فعادت تسأله بلطف مرة اخرى : « وفي أية بقعة من الأرض ؟ » . وهنا تذكر فجأة ما كان يريد ان يقول ، فصاح وهو يضحك وعيناه مبللتان بالدموع : « حسناً ، لقد تذكرت انني يا بني اخترت مكاني في الأرض وهو بقعة تحت قبر والدي واخيه ، وفوق قبر امك ، وبجوار تشينغ . واني أود ان ارى تابوتي قبل ان اموت » . .

فصاح ابنه : « لا تقل هذا ياوالدي . ولكني مع هذا سأفعل ما تقول . »

واشترى الابن تابوتاً منقوشاً بالحفر ، قد من كتلة ضخمة من خشب زكي الرائحة يستخدم عادة لدفن الموتى ولا يستعمل لأي غرض آخر، لأنه خشب صلب كالحديد . فارتاح وانغ لنغ واطمأن وامر بأن يوضع التابوت في حجرته فكان يراه كل يوم . .

وفجأة خطر لوانغ لنغ خاطر جديد فقال : « اود ان ينقل هذا التابوت إلى البيت المشيد من الطين حيث سأمضي الأيام القليلة الباقية لي وفيه سأموت . .

وعندما رأوا تصميمه على هذا فعلوا ما أراد . . وعاد الى بيته المشيـد على ارضه وانتقل إليه هو و « زهرة الكمثري » وابنته البلهاء المسكينة ومن كانوا في حاجة إليهم من خدم . . وهكذا عاد وانغ لنغ ليعيش على ارضه . وترك منزله في المدينة للأسرة التي أسسها .

ومر الربيـع وتلاه الصيف ، وكذلك موسم الحصاد . . وأخـذ وانغ لنغ يجلس في شمس الخريف الدافئة ، قبل حلول الشتاء ، معتمداً إلى الحائط كما كان والده يفعل . ولم يعد يفكر في أي شيء غير طعامه وشرابه وأرضه ، ولكنه - فيما يتعلق بالأرض - لم يكن يفكر في أي محصول يمكن أن تغله ، ولا في أية حبوب يجب أن يبذر فيها ، ولا في أي شيء آخر غير الأرض نفسها . . وكان

ـ احياناً ـ ينحني فيجمع في يده حفنة من تراب أرضه ويجلس هكذا ممسكاً بها في يده . فكان يخيل أن الحياة دبت فيها بين أصابعه فيشعر بالرضا والقناعة ، وهو قابض عليها بهذا الشكل . وكان يفكر فيها وفي تابوته الملقى هنـــاك .. والأرض الرفيقة التي كانت تنتظر بغير عجلة حتى يأتي إليها ..

وكان ولداه يأتيان إليه في كل يوم ، أو على الأكثر مرة في كل يومين ، كما كانا يرسلان إليه الغذاء الرقيق الذي يتناسب مع سنه .. ولكنه كان يفضل في الأغلب القمح المقشور بالماء الدافيء ليرتشفه كما كان والده يفعل ..

وكان ـ في بعض الأحيان ـ يشكو قليلاً من ولديه ، إذا لم يعوداه كل يوم .. وكان يقول «لزهرة الكمثري » التي كانت بقربه على الدوام : «فيم هما مشغولان؟» فإذا قالت له : « إنهما لا يزالان في مستهل حياتهما ، ولديهما أشياء كثيرة تشغلهما فابنك الأكبر قد أصبح ضابطاً في المدينة بين الأثرياء .. وأصبحت له زوجة جديدة ، وابنك الثاني بدأ يؤسس لنفسه متجراً عظيما للحبوب » .. كان يصغي إليها دون أن يعي شيئاً مما تقول ، ثم لا يلبث ان ينسى كل شيء بمجرد أن يتطلع الى أرضه ..

ولكنه في ذات يوم ، أدرك كل شيء بوضوح وجـــلاء ..وكان ذلك لفترة قصيرة ، عندما جاء ولداه يعودانه .. وبعد أن حيياه منصرفين ، خرجا وسارا متمهلين حول البيت ، في طريقهما إلى الأرض ، فتبعهما وانغ لنغ في صمت .. ووقفا فاقترب منهما ببطء ، ولكنهما لم يسمعا وقع أقدامه ولا صوت عصاه وهو يدب بها على التربة اللينة . وسمع وانغ لنغ ابنه الثاني يقول : « سنبيـــع هذا الحقل .. وهذا ايضا ، وسنقتسم المال بيننا بالتساوي .. وسأقترض منك نصيبك بفائدة طيبة ، لأني بعد مد الخط الحديدي سأتمكن من شحن الأرز إلى البحر ، و .. » .

ولكن الشيخ لم يسمع من كل هذا سوى عبارة : « نبيع الأرض » ، فصاح دون أن يستطيـــع منع صوته من الارتعاش غضبا : « يا لكما من ولدين شريرين

عاطلين .. أتبيعان الأرض ؟ » واختنق صوتـــه ، وكاد يهوى على الأرض .. ولكنهما أدركاه وأمسكا به ، فأخذ يبكي ، فعمد الإثنان إلى تهدئته ، وقالا له على سبيل التهدئة : « لا .. لا .. إننا لن نبيـــع الأرض ابداً » ..

فقال في انكسار : « ان بيع الأرض إيذان بنهاية أية أسرة تقدم عليه .. فمنها نشأنا ، وإليها نعود .. فاذا حافظتما عليها ، عشتما .. ولا يمكن لأحد أن يسلبكما الأرض » .

وترك الشيخ الطاعن في السن ، دموعه تجف على خديه ، تاركا آثاراً ملحية وانحنى فتناول حفنة من التراب ،وأمسك بها وهو يغمغم قائلاً: « ستحل النهاية إذا بعتما الأرض » ..

وأمسك الولدان بأبيهما ، كل من ناحية : أمسك كل منهما بإحدى ذراعيه ، بينما كان يقبض يده بشدة على التراب الدافيء المتفكك .. وراحا يهدئان من روعه ، ويكرران هذه العبارة « كن مطمئنا يا ابانا .. كن مطمئنا .. فلن تباع الأرض » ..

ولكنهما نظرا إلى بعضهما البعض من فوق رأس أبيهما ، وابتسما ...

مطابع منيمنه الحديثة

بيروت حارة حريك

هاتف ٢٣١٧١٥

بيرل بك وكتابها

- انها الأديبة الاميركية الفائزة بجائزة نوبل العالمية للآداب.
- عرفت الروائية الشهيرة بيرل بك بقصصها ذات الطابع الصيني ـ الاسيوي. ذلك انها ترعرعت وعاشت، اول عهدها بالكتابة، في الصين.
- ان كتابها هذا «الارض الطيبة» يعتبر من اروع انتاجها الادبي انه ملحمة جيلين، وصراع على «الارض الطيبة» في دلتا النهر الكبير، وسجل حي لتناقض ارض البشر وتشابكها المعقد.

انه كتاب جدير بالقراءة

منشورات : مكتبة الثقافة العربية ـ بغداد
توزيع : المكتبة الحديثة ـ بيروت
توزيع : مكتبة النوري ـ دمشق


Exclusive
For
www.ibtesama.com